

علي أدهم

صور أدبية



صور أدبيّة

على أدهم

صور أدبيّة



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الفصول التى يجمع شملها هذا الكتاب تذكرنى بهذا البيت الرائع الذى ختم به الشاعر الكبير البحترى سينيته الخالدة فى وصف إيوان كسرى ، وهو قوله :

وأرانى من بعد أكلف بالأشـــراف طراً من كل سنخ وأس [١]

فهى تتحدث عن مرقس أورليوس الإمبراطور الرومانى الفيلسوف وبوذا الحكيم الهندى وجيتى الشاعر الألمانى وبلزاك الكاتب الروائى الفرنسى وباكونين الزعيم الروسى وغيرهم من الشخصيات الفذة التى امتازت بحكمتها وأدبها أو بأخلاقها وأسلوب حياتها أو بقواها الخالقة ونمط تفكيرها .

وقد حاولت أن أقدم للقارئ صورة موجزة عن حياة هؤلاء الأفراد النوادر ، وإلمامة عن إتجاهاتهم ومذاهبهم فى التفكير والحياة ، وقد يكون من حق كاتب الترجمة الموجزة أو المطولة أن يطلق لخياله العنان ماشاء له الانطلاق ، ولكن ليس من حقه أن يدخل الخيال ويعتمد على الحدس فى جمع المواد ، وتحرى الحقائق والوقائع ، لذلك عنيت باستشارة أوفى المراجع وأصح المظان ، من غير تعصب لهم أوكسر عليهم ، وقد حذر فرويد فيما أذكر كتّاب التراجم من تحويل موضوع الترجمة إلى صورة أبوية يدين لها الإنسان بالولاء والطاعة ، ويحاول تنزيهها عن العيوب والنقائص ، ونقيض ذلك الكراهة التى تشوه التصوير وتحول دون الفهم الصادق والعطف البصير ، ولكل إنسان سواء عظم قدره أو هان عيوبه وحسناته ونواحيه المظلمة القاتمة وجوانبه المضيئة المشرقة ، وأصعب من الاسترسال فى الذم أو الاستغراق فى المدح محاولة بعث الحياة فى الصورة عن طريق تخير الكلمات المعبرة ، والمواقف الكاشفة ، والأفعال الدالة على جوهر الإنسان ومعدنه .

وفن كتابة التراجم شديد الاتصال من ناحية بالنقد الأدبى ، ووثيق العلاقة من

---

(١) السنخ الأصل والأس بفتح الهمزة الأصل .

ناحية أخرى بالتحليل النفسى ، والاقتصار على استجلاء معانى النصوص وتفهم معارض الأحاديث قد لا يكفى لاستبطان الدوافع وتمثل الحياة ، كما أن الإسراف فى التعويل على التحليل النفسى قد يغرينا بأن نقف من مختلف الشخصيات موقف الطبيب من المريض .

وكاتب الترجمة يرسم من زاويته المعينة ، ويستملى روح عصره الخاص ، ومن ثم تختلف الناس والعصور فى فهم الشخصيات وتصويرها ، ووزنها وتقديرها ، وكل باحث وكل عصر يؤكدان منها بعض النواحي ويكتشفانها ، وحياة كل إنسان عالم ضخم من الأفكار والتجارب والمشاعر والأحاسيس ، فغير غريب أن تتعاون العصور وتتوالى جهود الباحثين للاهتداء إلى دخائلها وتوضيح خفاياها .

على أدهم

الإمبراطور الفيلسوف

١

فى اليوم السابع من شهر مارس للسنة الميلادية ١٦١ مات الإمبراطور الرومانى الأروع النبيل أنطونينوس بيوس بقصره فى لوريام ميتة هادئة وقوراً جديرة بأن تختم بها حياة كحياته المثالية الرفيعة . ولما شعر بدنو الأجل ، ووشك الرحيل ، أحكم تدبيره ، ونظم شؤون أسرته الداخلية ، وأصدر أمره بنقل تمثال الحظ المصنوع من الذهب من حجرته إلى حجرة ابنه المتبنى مرقس أورليوس . وكانت التقاليد المرعية تقضى بوضع هذا التمثال فى حجرة الإمبراطور الجالس على العرش . وأغمض الإمبراطور الصالح بعد ذلك جفنيه ، وودع عالم الدثور والفناء . وقد شمل الحزن عليه الإمبراطورية جميعها ، وأقيم له فى كل قلب مأتم ، وتبارت شتى طبقات الأمة الرومانية فى الإحتفال بمنعاه وتكريم ذكراه ، والإشادة ببره وتقواه ، والتحدث عن خلاله الكريمة ، ومناقبه البارعة ، وكيف أنه ولى الحكم فأحسن السيرة ، ووطد الدولة ، ونشر الأمن والطمأنينة ، ولم يظلم أحداً ، ولم تسفك فى خلال حكمه قطرة واحدة من الدم ! مما بعث مؤرخ الدولة الرومانية الكبير جيبون على أن يقول فى خلال الحديث عن حكمه[1] « يمتاز حكمه بالميزة النادرة ، وهى تزويد التاريخ بمواد

---

(١) صفحة ٨٧ من المجلد الأول من كتاب جيبون عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها طبعة .
The World Classics

وكاد يكون من حق أنطونينوس بيوس أن يظفر بالسبق والتبريز فى حلبة جد قليلة ، والتاريخ فى الواقع لا يزيد إلا قليلاً على تسجيل جرائم البشر وحماقاتهم وكوارثهم » .

الفضائل الإنسانية ، والمحاسن الملوكية ، لولا أنه اختار خلفاً له قد استطاع أن يساميه فى الفضائل والمناقب ، ويرجحه بالذكاء الخارق ، والشخصية المحببة الجذابة .

وقد كان أنطونينوس رقيق القلب ، جم العطف ، كثير البشر والطلاقة والإيناس ، وكان فيلسوفاً دون أن يدعى ذلك ويفخر به ويتعالى على الناس . وكان مرقس فيلسوفاً مفكراً نظرياً مخلص السعى ، عف النفس ، قد إبتلى بهذا المرض الغريب والداء العضال وهو داء البحث الذى لا يهدأ فى نواحى النفس ، والكشف عن ميولها ودوافعها ، ورفع النقاب عن أوهامها وأضاليلها ، وهو داء يقربه من أبناء العصر الحاضر ، وينبت له المودة فى قلوبهم ، ويجعلهم يعطفون عليه ، ويعرجون على ذكراه ، ويعجبون بشخصيته ، ويفيدون من حكمته ، ويستريحون فى ظله الظليل ، وينهلون من نبعه العذب الصافى .

ومثل مرقس أورليوس ممن يشرفون الإنسانية ، ويظهرون لنا مراقى السمو التى يمكن أن يبلغها الإنسان على ضعفه وعجزه وقصوره ، وليس أدل على ما قد يرتفع إليه الإنسان فى مدارج النبل والعظمة الأخلاقية من تلك الأمثلة الطيبة والنماذج الصالحة التى تأتى من هؤلاء الذين وضعهم القدر فى أرفع الدرجات وأسمى المنازل ، فمرقس أورليوس كان حاكم أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ فى عصر من أزكى العصور ، وكانت الدنيا عليه مقبلة ، وعنه راضية ، وبه مغتبطة ، وكانت فى يده أزمة البسط والقبض ، وأعنة الأمر والنهى ، ومع

ذلك الجاه العريض ، والنفوذ العظيم آثر حياة الزهد والورع ، وإختار طريق الحكمة والفلسفة ، وغض جفنيه عن كل ما يريب ، وشمس وتأبّى على الدنايا والمغريات والنقائص والهفوات ، وظل فى جلبة الملك ولجبه محتفظاً بخلقه القويم ، ونفسه العالية .

ولست أزعم أن هذا الرجل العظيم كان معصوماً من العيوب ، موقى من العثرات ، فإن الكمال فى هذه الدنيا لم يكتب لأحد ، ولم يرزقه إنسان ، وإرنست رينان المؤرخ الكبير وهو من أشد المؤرخين والفلاسفة تحمساً له وعطفاً عليه لم يعفه من اللوم والنقد والتفنيد ، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده فى ثقة واطمئنان وقد قبله أنصاره وخصومه أنه من الأفراد القلائل فى التاريخ الإنسانى الذين إقتربوا من الكمال وكانوا قدوة صالحة ومثلاً عالياً .

وقد نشأ أورليوس فى أسرة الأنطونينوسيين ، وكانت الحكمة والفضيلة وراثيتين فى هذه الأسرة النبيلة ، وكان حكم الأباطرة نرفا وتراجان وهادريان وأنطونينوس بيوس من العهود الصالحة المزدهرة القليلة النظير فى تاريخ الأنسان ، فقد كان هؤلاء الأباطرة نزاعين إلى الإصلاح ، مقدرين لما عليهم من تبعات ، وقد قاموا بأداء واجباتهم على خير الوجوه ، وكان كل فرد منهم يرى أن وظيفته العالية لم تخرج عن كونها نوعاً من أنواع الخدمة المدنية ، فلا يلقى باله إلى إحاطة العرش بهالات النور والبهاء ، ومظاهر العظمة والأبهة والجبروت ، ولا يسترهب الناس ولا يستذلهم ، وإنما يتحرى جهده إسعادهم ، والأخذ بيدهم ، والنهوض بهم ، فلا يعنيه ويهمه ولا يقيمه ويقعده سوى صيانة مصالحهم . وتدبير الرخاء لهم ، وتحرى العدالة فى الأحكام ، وقد نفى هؤلاء الأباطرة الفلاسفة المتشككون عن الملك ذلك الغموض والخفاء ، والروعة

الكاذبة ، والقداسة الزائفة ، واحترموا سلطة السناتو ، ورفعوا كلمته ، وإنقادوا لأوامره .

وفى مثل هذا الجو المشبع بالإعتدال والحكمة درج مرقس أورليوس ، وقد رآه الإمبراطور هادريان وهو فى الثامنة من عمره ، فأعجب به ، واسترعى نظره محياه الهادئ الحزين ، وكراهته للكذب والخداع ، وإيثاره الصدق والأمانة .

وقد قضى طفولته وبواكر أيامه فى الريف بين أحضان الطبيعة ، وتلقى دروس البلاغة والفلسفة وسائر ضروب المعرفة السائدة فى عصره على أحسن مفكرى زمانه وخير أساتذته ، ومال منذ نشأته إلى مذهب الرواقيين ، وأخذ نفسه بقوانينهم الصارمة ، ففى الثانية عشرة من عمره كان يلبس الثياب الخشنة الغليظة ، ويأبى إلا أن ينام على ألواح من الخشب عارية مجردة ، وإقتضى الأمر تدخل والدته لتنصحه وتلح عليه فى وجوب وضع بعض الفراء فوق تلك الألواح الخشبية إبقاءاً على صحته وترفقاً به ، وكان يعيش معيشة الراهب الذى يقسم وقته بين العمل المتصل والتأمل والتفكير المستمر ، وكان وجهه شاحباً لا تظهر فيه نضرة النعيم ولا ترف الملك ، وكان يبدو فى عينيه أثر الإجهاد والتعب ، ولم يكن يعنيه من أمور دنياه سوى القيام بالواجب ، وأتباع الوصايا الأخلاقية .

ومثل هذه النشأة الجافة الصارمة الشديدة الوطأة على الطبيعة الإنسانية لا تسفر فى أغلب الأوقات عن خير كثير ، وقد ينتهى هذا الشظف والتقشف إلى العبوس والإربداد ، وتحجر القلب ، وتبلد العواطف ، والحذلقة البغيضة ، والتفيهق الممقوت ، فما الذى صان مرقس أورليوس عن ورود هذا المورد الراكد العطن والضرب فى الصحراء القاحلة الجدبة ؟

تفسير ذلك هين ، فقد كان ملئ عينيه مثل حى للفضيلة الإنسانية وهو

الإمبراطور أنطونينوس بيوس الذى كان يجله ويحترمه ، وقيمة الإنسان الأخلاقية رهن بقدرته على الإعجاب والتقدير ، فمرقس أورليوس بلغ ما بلغه من السمو الأخلاقى والرقى النفسى لأنه رأى إلى جانبه أجمل مثل من أمثلة الحياة الكاملة الفاضلة ، وكأنه كان يشير إلى ذلك حينما كتب فى تأملاته يقول[1] «حاذر حتى لا تصبح قيصراً ، وتصطبغ بتلك الصبغة ، وهذا من الأمور التى يسهل الإنغماس فيها ، فانظر لنفسك ، وكن صريحاً مخلصاً مستمسكاً بالفضيلة والتواضع ، ملتزماً الجد والوقار ، وتحر العدل والصلاح ، وترفق بالناس ، وعاملهم باللين ، واجهد فى أداء الواجب ، وأعمل على أن تكون كما ترضى لك الفلسفة ، واحترم الآلهة ، وأدفع السوء عن البشر ، وهذه الحياة قصيرة المدى ، وكل ما تستطيع أن تغنمه من فوائدها هو التقوى والأعمال النزيهة الخالصة ، وليكن قدوتك فى أعمالك جميعاً أستاذك أنطونينوس ، فتشبه به فى اتباعه الدائم لما يوصى به العقل ، وسيره على منهج واحد فى مختلف الظروف والأحوال ، وطهارة نفسه ، وهدوء نظرته ورقة روحه وعذوبتها ، وإحتقاره للشهرة والمظهر الكاذب ، وحرصه الكريم على أن يتعرف عمله ، ويستجلى أسراره ، ويخلص إلى دخائله ، وأنظر كيف كان لا يغادر موضوعاً من الموضوعات إلا بعد أن يوسعه بحثاً وتنقيباً ويحيط بكلياته وجزئياته ، ويستوعبه إستيعاباً ، فلا تند عند شاردة ولا واردة ، وكيف كان يحتمل ما يوجه إليه من اللوم والتأنيب الظالم دون أن ينبس بكلمة ، وكيف كان يتأنى ولا يتعجل فى عمل أى شىء ، وكيف كان يسد أذنيه عند سماع أقاويل السوء ، وكيف كان ينظر إلى أعمال الناس وأخلاقهم ويدرسها دراسة منزهة عن سوء الظن والرغبة فى إستنباط العيوب والتهدى إلى المساوئ والميل إلى السفسطة والمغالطة ، وكيف

(١) الجزء السادس الخاطرة رقم ٣٠ من كتاب التأملات .

كان يراعى الاقتصاد فى بيته وفراشه وملبسه وطعامه وخدمته ، وكان دأبه الصبر والجلد والعكوف على العمل حتى المساء ، وتذكر حبه لأصدقائه وكيف كان يحتمل المعارضة ، والسرور الذى كان يلم بنفسه حينما كان يأخذ بالرأى الذى يفضل رأيه ، وتقواه التى لم يكن بها أدنى أثر للإعتقاد بالخرافات ، فكر فى ذلك كله ، وتشبه به فى هذه الصفات جميعها حتى تلقى ساعتك الأخيرة بنفس مطمئنة وضمير خالص كما لقيها » .

على أن القدوة الصالحة والمثل الحى لم يكونا كافيين لتجنيب مرقس أورليوس الخشونة والجفاف والعنف الذى تسوق إليه مثل هذه الفلسفة الزاهدة المترفعة ، وإنما يضاف إليهما سجاحة الخلق وسماحة النفس التى لم يكن لها نظير فى الرقة والعذوبة والرحمة والحنان . وقد كانت قسوته مقصورة على نفسه ، وقد قضى حياته فى دراسة كيف يقابل الإساءة بالإحسان ويلقى الشر بالخير ، وبعد إحدى تجاربه الحزينة للإلتواء البشرى جلس فى المساء ليكتب ما يأتى « إذا استطعت أن تصلحهم ، وتقوم إعوجاجهم ، فافعل ، فإذا أعياك ذلك فاعلم أنك أوتيت الرحمة لتشملهم بها ، والآلهة أنفسها تتولى هذه الكائنات برحمتها ، وتعينها على نيل المال والمجد والصحة ، فانعم وتفضل كما ينعمون ويتفضلون » .

وفى يوم آخر يظهر أن الناس أفرطوا فى الإساءة إليه فقد كتب فى سجله الخالد حينما ثاب إلى نفسه فى هدأة الليل « هكذا نظام الطبيعة ، والناس من هذا الطراز لا يستطيعون العدول عن ذلك ، وليس لهم فيه حيلة ولا عنه مذهب ، وتعجبنا من ذلك يشبه دهشتنا حينما نرى شجرة التين وهى تحمل التين ، وتذكر أنك أنت وخصمك بعد فترة جد قصيرة سيمضى بكما الموت ، وسرعان ما يغمر إسميكما النسيان » .

وكانت خواطر العفو الشامل والغفران العام كثيرة الطواف بنفسه ، وفى لحظات نادرة كانت تعلو هذا العطف السمح بسمة خفية كما فى قوله « خير وسيلة للإنتقام من المسيئين هى ألا نصبح مثلهم » .

وقد وجه إلى نفسه فى ذات يوم هذا اللوم « لقد نسيت رابطة القرابة المقدسة التى تربط كل إنسان بالنوع البشرى ، وليست هى قرابة الدم والولد ، وإنما هى قرابة المشاركة فى نفس الفهم والإدراك ، وقد غاب عنك أن الروح العاقلة لكل إنسان مستمدة من الله ، وأننا لا نملك مالنا ، فأطفالنا وأجسادنا وأنفاسنا كلها مستعارة من السماء ، كل ذلك على ما يظهر قد نسيته » .

وكان فى حياته العملية سهل الجانب ، دمث الأخلاق ، تغلب عليه البساطة مثل أغلب الناس الطيبين ، وكان جم التواضع بغير رياء ولا تظاهر ولا إدعاء أو مغالطة للنفس ، ومن حكمته البارعة أنه كان يعتقد أن الرجل الشرير يشقى بما فى نفسه من الشر ، وأن الشرير شرير على الرغم منه ، وكان يرثى لحال الذين لا يشبهونه فى أخلاقه ، ولا يسيرون فى الناس سيرته ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يعتقد أنه ليس من حقه أن يفرض على الناس مذهبه ويلزمهم إقتفاء أثره ، والإهتداء بهديه .

ولم تغب عن عينيه الفاحصتين وخاطره الجوال سخافة البشر وخستهم وضعف نفوسهم ، ولكنه كان يأبى له كرم أخلاقه وصفاء نفسه إلا أن يغض الطرف عن ذلك ، ويغالط فيه نفسه ، وربما كان هذا التعامى المقصود المتعمد من لوازم النفوس النبيلة ومن عيوبها . ويقرب من ذلك قول أبى تمام :

ليس الغبى بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى

وأصحاب هذه النفوس الكريمة الخيم يرون أن الدنيا ليست على ما يريدونه لها من الكمال فيخدعون أنفسهم ليروها على الصورة التى يريدونها لها ، وهذا

النوع من التباله يضايق فى بعض الأحيان قراء تأملات مرقس أورليوس ، ودارسى سيرته وحياته ؛ وهو فى تأملاته يثنى على أساتذته ، ويشيد بقدرتهم ، ويغالى بقيمتهم ، ويجعلنا نظن أن كل من حوله من ذوى الفضل والرجحان ، ولكنه حينما يستدنى الكواكب لينظمها عقود مدح لأخيه فى التبنى وشريكه فى الحكم المدعو لوسياس قيراس – ذلك الرجل السادر الخليع – يثير تعجبنا ودهشتنا ، لقد كان الإمبراطور الفيلسوف الصالح يستهدف للوهم حينما يحمله قلبه الطيب ونفسه الخيرة على أن يخلع صفاته الكريمة على قوم غير جديرين بها ولاهم أهلاً لها .

ولا نزاع فى أننا هنا تلقاء نفس كبيرة ، وقلب عظيم ، فهل كان عقله عظيماً كنفسه كبيراً كقلبه ؟

يؤكد لنا رينان أنه كان عظيم القلب والعقل ، ورينان من أعرف الناس به وأقربهم إليه ، ويستدل على ذلك بقدرته الفائقة على النظر إلى أبعد أعماق هاوية الواجب ، والغوص فى مسارب الوعى ومجاهل الضمير ، وإن كان ينكر عليه عدم إجترائه وتردده فى إنكار ما هو فوق الطبيعة ، ويقول رينان «إننا نفهم غرضه وندرك مغزاه حينما يتحدث عن فظاعة الدنيا إذا خلت من الله والعناية الإلهية ، ولكن الذى لا نستطيع أن نفهمه الفهم كله هو كيف إستطاع أن يتحدث حديثاً جدياً عن تدخل الآلهة فى شئون البشر فى حالات خاصة من حالات تدريب الإرادة ؟» .

ويرى رينان أنه لا يستطيع أن يفسر ذلك النقص فى ثقافة مرقس أورليوس إلا بضعف تربيته العلمية ، على أن الذى يجب أن نسلم به هو أن مثل هذا العيب ليس له أهمية تذكر ، فقد كان إيمانه بالحياة الأخلاقية قائماً على إيمانه بالعقل والطبيعة ، وهو فى ذلك عصرى للغاية .

الإمبراطور الفيلسوف

٢

كثير من المؤرخين الذين يكرهون النزعة الفلسفية ويؤثرون ما يسمونه السياسة العملية يرون فرضاً عليهم أن يثبتوا أن الحاكم الفيلسوف من طراز مرقس أورليوس لا بد أن يكون سيئ الإدارة . واهى الرأى ، غير قادر على النهوض بأعباء الملك ، وإحتمال تبعاته ؛ وحقيقة أن هناك ما يثبت أن فرط تسامح مرقس أورليوس قد جنى على سياسته ، وأساء إلى سمعته ، ولكن عهده برغم ذلك كان حافلاً بالإصلاح والأخذ بأسباب التقدم والنهوض ، ولقد كانت له ثروة ضخمة ، ولكنها كانت تنفق جميعها فى سبيل المصلحة العامة ، وكان يحترم السناتو ويرعى جانبه ، وكان فى كل عام يشن حرباً لحماية الثغور والمحافظة على سلامة الدولة مع فرط كراهيته للحرب ، وشدة حبه للسلام ، وقد حارب الكوادى والماركومانى حرباً مظفرة لا لين فيها ولا هوادة .

وكان ديمقراطى النزعة يمقت الأرستقراطية الرومانية القديمة ، ولا يرى قيمة لغير الإمتياز الشخصى ، ولم يجد فى أشراف الرومان من يؤيد أفكاره فى الحكومة الصالحة ولذا آثر أن يستعين برجال لم يرشحهم للحكم سوى كفايتهم وإستقامة أخلاقهم ، وقد أخذت الحكومة الرومانية فى القرن الثانى الميلادى لأول مرة فى التاريخ بتلك النظرية السليمة التى تقول إن الحكومة عليها واجبات أبوية نحو الشعب .

وكان أهم ما يشغل بال السياسيين مشكلة تعليم أولاد الفقراء والصعاليك

والعبيد ، وكان النظام الإقتصادى السائد لا يجعل علاج هذه المسألة من الشؤون الهينة ، وقد عالجها تراجان بفرض مبالغ من المال على الأشياء المرتهنة ، وعهد إلى وكلاء من قبله فى جمع ريع تلك الأموال ، فلما جاء مرقس أورليوس جعل هؤلاء الوكلاء من موظفى الدولة الملحوظين ، وكان يختارهم بعناية بالغة وتدقيق شديد ، وناط بجماعة من الفقهاء المتمكنين مهمة تهذيب القوانين القديمة وتنقيحها وتعديلها وإشاعة الروح الإنسانية فيها ، وتلطيف قسوتها وشدتها ، وجعلها ملائمة لحالة قوم متحضرين .

وأخذ الإمبراطور على عاتقه حماية الضعفاء والعاجزين ، ولم يكن لهم قبل ذلك نصير ، فأصبح الطفل اليتيم أو المريض يظفر بالعناية ويحظى بالرعاية ، وقام الإمبراطور بوضع خطط وأساليب تبث روح الرحمة والعطف والإنسانية فى مختلف أعمال الدولة وإدارتها ومصالحها .

وموجز القول إن هذا الرجل النبيل والحاكم القدير كان لا يرى الإنسان العادى آلة من الآلات أو وسيلة من الوسائل كما هو شأن بعض أدعياء السياسة وفريق الحكام الغلاظ الأكباد القساة القلوب : وإنما كان يعتبر الإنسان كائناً أخلاقيًّا له حقوق كما أن عليه واجبات .

وقد حاول أن يبطل تلك المظاهر الفظيعة التى كانت تجعل المسارح الرومانية مؤذية للمشاعر السليمة ، ولكنه لم يوفق فى ذلك ، فقد كانت هذه المشاهد الكريهة جزءاً من حياة الأمة الرومانية ووسيلة من وسائل الترفيه عن الشعب ، ولما سلح المصارعين وأرسلهم إلى ميادين الحرب التى قام بها لدفع غارات القبائل الألمانية كادت تحدث ثورة حاطمة ، وأخذت الأوشاب والدهماء تقول «يريد أن يسلبنا تسليتنا ليرغمنا على أن نكون فلاسفة مثله» واضطر مرقس أورليوس أن ينزل على حكم الرأى العام ، وقد حاول تلطيف الشر الذى

لم يستطع دفعه ، فأمر بوضع فراش تحت الراقصين على الحبل ، وأن تكون الأسلحة التى تستعمل فى المصارعات غير حادة ولا مسنونة ، وكان يتحاشى جهده حضور هذه الحفلات .

واتخذ الإمبراطور من أساتذته وزراء وسياسيين ، ورفع مكانتهم ، وكان لأستاذه جونياس راستيكاس منزلة سامية فى نفسه ، على أن هذا العطف الذى أسبغه الإمبراطور الفيلسوف على جماعة المفكرين وبينهم الصالح والطالح كان لابد أن يتمخض عن بعض العيوب ، وقد استدعى الفلاسفة المشهورين من كل ناحية من نواحى الإمبراطورية المترامية الأرجاء ، وكان من بين هؤلاء جماعة من الدجالين والمتخلفين العاجزين ، وكان شعرهم الأشعث ولحاهم المرسلة وأظفارهم الطويلة تجعل منهم موضوعاً صالحاً للفكاهة والتندر ، وكان الإمبراطور يجود عليهم بالمال ، وتظلهم رعايته ، حتى صار يقال إنهم عبء على كاهل الدولة ، واضطر الإمبراطور إلى أن يبرر موقفه ويدافع عن سياسته .

ولم يحاول مرقس أورليوس إخفاء عيوب أصدقائه ، ولكن حكمته كانت تقيم حداً فاصلاً بين النظرية الفلسفية فى ذاتها وضعف الذين يقولون بها ، وكان يعلم أن الفلاسفة الذين يأخذون أنفسهم بما يقولون للناس قليلو العدد أو أنهم غير موجودين على الإطلاق ، ولكنه كان أرجح عقلاً وأعمق حكمة من أن ينتظر الكمال فى الناس ، وعيوب الفلاسفة لم تبغض إليه الفلسفة .

وكان من الطبيعى أن يكبر على ممثلى الروح الرومانية القديمة أن يروا مناصب الدولة الكبيرة نهباً مقسماً بين هؤلاء الناس الذين ليس لهم حسب ولا نسب ، وقد قدموا من الشرق الذى ينظر الرومانيون إلى أهله نظرة تنطوى على الزراية والإحتقار ، وهذا هو الموقف الذى شاء سوء الحظ لآفيدياس كاسياس أن يقفه من مرقس أورليوس ، وهو بطل مجاهد وسياسى ممتاز على جانب من الإستنارة

والثقافة ، وكان يعطف على الإمبراطور ، ويضمر له الحب ، ولكنه كان مقتنعاً الإقتناع كله بأن فن الحكم يستلزم شيئاً آخر غير الموهبة الفلسفية ، ويروى أنه نبز الإمبراطور بأنه « امرأة عجوز تتفلسف » وآل به الأمر فى النهاية إلى إعلان الثورة والخروج عليه ، وكانت التهمة التى قذف بها الإمبراطور هى إسناد مناصب الدولة إلى قوم ليس لهم ضمان من المال والثروة والجاه أو سابقة من الفضل ، وبعضهم لم يحصل علماً ولم يتلق درساً .

وكان الإمبراطور ينظر إلى أصدقائه الفلاسفة نظرة إحترام وتقدير ، ويعدهم إخوانه فى الحكم وسياسة الدولة ، وكان هذا المظهر الغريب ملائماً لأخلاقه ومتمشياً مع طبيعة الإمبراطورية ، وتصور الرومان للدولة ، فقد كان تصورهم للدولة تصوراً عقلياً خالصاً ، وكان القانون هو المعبر عن العقل ، فمن الطبيعى إذاً أن يجئ اليوم الذى تلقى فيه مقاليد الأمور إلى أيدى أصحاب العقول . وقد كانت الفلسفة حينذاك تقوم مقام الدين ، وكان لها دعاتها الذين يبشرون بها ويعملون على إذاعتها وتغليبها . وكان من العادات المتبعة أن يدعو الناس فى ساعة الوفاة أحد الحكماء ليهون عليهم إحتمال الموت ويشجعهم فى الساعة الأخيرة من حياتهم .

وكان أول واجبات الفيلسوف هو أن ينير بصيرة الناس ، وأن يسندهم ويأخذ بيدهم ، ويهديهم سواء السبيل . وحينما كان يصيبهم حزن شديد كانوا يدعون الفيلسوف ليسرى عن نفوسهم ويعزيهم ويواسيهم ، وكان الحكيم هو الصديق الحميم للأمير الذى يستشيره فى دخائله ، ويفضى إليه بأسراره ، ويتقبل نصيحته ومشورته .

وقد مهد ذلك لحدوث ما قال عنه رينان إنه يشبه المعجزة ، وهو ما يمكن أن يسمى « بحكم الفلاسفة » ، وقد عنى هذا الحكم بتوفير أسباب التقدم

الإجتماعى والأخلاقى ، وهذب القوانين ، وصقل العادات والآداب ، واقام الدولة على قواعد الحكمة والبر والصلاح ، ولكن من ناحية أخرى إعترى الضعف القوة الحربية وهبط مستوى الأدب ، فقد كان الفلاسفة ينظرون فى شيء من التعالى والإشفاق إلى خيلاء الأدباء والكتاب وصلفهم وإسرافهم على أنفسهم ، وفرط حبهم للشهرة والمديح ، وكان الأدباء فى دورهم يسخرون من أسلوب الفلاسفة الحوشى النافر المتعاظل ، وتجافيهم عن رقة الآداب وحسن السلوك ، ولحاهم الغزيرة وملابسهم الخشنة الثقيلة .

وتردد مرقس أورليوس حيناً من الزمن بين الفلاسفة والأدباء ، ثم قطع بالرأى واختار جانب الفلاسفة ، وأمدهم بتأييده ، وناصرهم ما وسعه الجهد ، وأهمل فى سبيل ذلك اللغة اللاتينية ، وآثر اليونانية وخصها بعنايته لانها لغة الفلسفة ولغة المؤلفين والمفكرين الذين كان يحبهم ويولع بقراءتهم ، وكان لذلك أثره البعيد فى تقهقر الأدب اللاتينى وعودة الأزدهار إلى الفكر اليونانى ، ولم يتقدم الفن كذلك فى عهده لأن اتجاه العصر لم يكن يحفل بالجمال والقالب ، وإنما كان فى طليعة ما يشغل الساسة والمفكرين النهوض بالضعفاء وتيسير أسباب الحياة لهم ، وترقيق قلوب الأقوياء ، وكبح شرهم ، وتقليم أظفارهم .

وكانت الفلسفة الشائعة فلسفة أخلاقية خالصة تنقصها الروح العلمية ، ولذا سمت بالقلوب ولم ترتفع بالعقل ، فكثرت الخرافات ، وذاع الإعتقاد بالسحر والرؤى والأحلام ، وتفشت الأوهام والخزعبلات ، وتبع ذلك ضروب شتى من الجهالات والحماقات ، وكثر الدجالون والممخرقون وأدعياء السحر والشعوذة . ولم يقترن التقدم الاجتماعى بالتقدم الفكرى ، ولم يكن للإمبراطور الفيلسوف حيلة فى ذلك ، فالعمل الذى كان يستطيع القيام به قد قام به على خير وجه ، وكان الهدف الذى يرمى إليه هو الإصلاح الاجتماعى ،

ولكنه كان يستلزم زمناً طويلاً وجهداً متوالياً .

على أن هذا الإمبراطور الفيلسوف الصالح قد وقع فى خطأ خطير عرضه للكثير من اللوم ، وذلك الخطأ هو إحجامه عن حرمان نجله كومودس من وراثة العرش بعد أن بدأت تظهر نوازعه الشريرة وبوادر عدم صلاحيته لتولى أمور الدولة والجلوس على العرش ، وقد وجه إلى سياسة الإمبراطور النقد الكثير من جراء ذلك ، وقيل عنه إن حبه لابنه غطى على فكره ، وأضل رأيه ، وجعله لا يبصر مصلحة الدولة والملايين من أفراد الشعب . وقد التمس له رينان شيئاً من العذر فكتب فى هذا الصدد يقول:[1] « هذه المسألة من الأشياء التى يسهل أن نراها من بعيد حيث لا تكون العقبات بارزة حاضرة ، ويفكر الإنسان فى الأمور بمعزل عن الحقائق وخارج نطاق الوقائع ، وينسى قبل كل شىء أن الأباطرة الذين ساروا على سنة التبنى منذ عهد الإمبراطور نرقا لم يكن لهم أولاد وقد كان التبنى مع حرمان الابن أو الحفيد متبعاً فى القرن الأول الميلادى ، ولكنه لم يسفر عن نتائج محمودة ، وكان مرقس أورليوس على ما يظهر يفضل الوراثة المباشرة لأنه كان يرى أن ذلك يحول دون المنافسة ، فحالما ولد كومودس فى سنة ١٦١ أظهره لفيالق الجيش بالرغم من أنه كان له ابن آخر ولد معه ، وفى سنة ١٦٦ طلب لوشياس فيراس أن يصبح ابناً مرقس أورليوس – كومودس وآنياس فيراش – وريثين للعرش ، وكان أساتذة كومودس قد لحظوا فيه العلامات والظواهر والدلالات التى تنم على الطبيعة الشريرة والخلق الفاسد ، ولكن كيف يصدرون أحكاماً سابقة على غلام فى الثانية عشرة من عمره ؟ على أن كومودس كان يحاول أن يكبح جماح نفسه ، ولما ظهرت بوادر سوء خلقه فى النهاية واستبان الإمبراطور أن الذى سيخلفه على العرش كان هولة وأن الأرجح

(١) راجع كتاب رينان عن مرقس أورليوس من صفحة ٢٣٤ إلى صفحة ٢٣٨ .

أنه سيسير على خلاف منهجه ، وينحرف عن الطريق السوى ، خطر له بغير شك خاطر حرمانه من وراثة العرش ، ولكن ذلك جاء متأخراً : وفضلاً عن ذلك فإن كومودس كان فى السابعة عشرة من عمره ، فمن يستطيع أن يجزم بأن أخلاقه لن تتحسن وتتهذب ؟ ولقد استمر هذا الأمل حتى بعد وفاة أبيه ، وقد أظهر كومودس فى بادئ الأمر أنه سيتبع نصائح الرجال الذين إختارهم والده ليكونوا إلى جانبه » .

وهذا هو رأى رينان فى هذه المسألة وهو كل ما يستطاع أن يقال دفاعاً عن مرقس أورليوس ، وهكذا شاء سوء الحظ أن يكون نجله وخليفته على العرش نقيضه فى كل شىء ، كان الإمبراطور مرقس أورليوس مثلاً أعلى فى الحكمة والفضيلة ، وكانت حكمته أكبر من عصره . وكان موقفه سليماً من الناحية الأخلاقية . ولكن الظروف القاسية عملت على معاكسته ، وإذا عيى الطبيب النطس عن علاج المريض فليتقدم إذاً الأدعياء والدجالون لمباشرة العلاج وضمان الشفاء ، وإذا أخفقت الحكمة والفلسفة والفضيلة فى إصلاح العالم فليتول ذلك الجهل والسفه والحماقة والخفة والنزق ؛ وحيث لم يوفق الفيلسوف القديس والحكيم الصالح مرقس أورليوس فليحمل عنه العبء نجله كومودس الفاسد الشرير السادر فى الغواية ، المنغمس فى البهيمية ، وهكذا شاءت الأقدار أن تفتن فى المطابقة فيجئ كومودس شر الناس بعد مرقس أورليوس خير الناس ، وأعفهم وأرجحهم ، وأسماهم حكمة ، وأصدقهم مثالية .

الإمبراطور الفيلسوف

٣

فى حياة الإمبراطور مرقس أورليوس مسألة شائكة لا يزال يدور حولها البحث ، ويختلف الرأى ، ويشتد الجدل ، وهى موقفه من الاضطهاد الذى أصاب المسيحيين فى عصره ، وقد حاول بعض المؤرخين أن يشكوا فى صلة الإمبراطور بحوادث الاضطهاد التى وقعت فى مدينة ليون ، ولكن يظهر أنه من الثابت أن مرقس أورليوس قد أقرها – كما يقول ماثيو أرنولد وهو أحد المعجبين بالإمبراطور الفيلسوف – والواقع أن جانباً مما أصاب المسيحيين فى عصر الأباطرة المصلحين من أمثال تراجان وأنطونينوس بيوس ومرقس أورليوس كان يرجع إلى تصورهم الخاص للمسيحية التى كانوا يحاولون إطفاء نورها وإخماد أنفاسها ، فقد كانوا يرونها من الناحية الفكرية والفلسفية شيئاً سخيفاً لا خير فيه ولا غناء ، وكانوا يعتقدون أنها من الوجهة الأخلاقية تغرى بالفساد وتبعث على الشر والإجرام ، أما من الناحية السياسية فكانوا يرونها هادمة للدولة مفككة لعرى المجتمع ، وكانت الفكرة الغالبة هى أن المسيحيين جمعية سرية تعمل فى الخفاء لتحقيق أغراض مريبة ضارة ، وكانت جمهرة الشعب الرومانى لا تشك فى أن هؤلاء المسيحيين كفرة ملاحدة يستحلون المحرمات ، وينتهكون حرمة الآداب ، ولا يتورعون عن أكل لحوم البشر ، وكانت الديانة الرومانية من ناحية أخرى بغيضة إلى نفوس المسيحيين ، يمقتونها أشد المقت ، ولا يكتفون فى معارضتها بالمقاومة السلبية الصامتة ولا يمتنعون عن تقديم القرابين فحسب ، بل يحرضون

غيرهم من الطوائف على أن يسلك مسلكهم ، ولا يقنعون بترك تماثيل الآلهة ، بل يعمدون إلى إسقاطها من فوق القوائم التى ترتكز عليها ، ولذا كان الرومانيون يمقتون المسيحيين ويسيئون بهم الظن ، وكانت الاجتماعات التى يعقدها المسيحيون مثاراً لأعاجيب الروايات ، وغرائب الظنون فى الأوساط الرومانية . وكانت كراهة الشعب الرومانى للمسيحيين من القوة والتأصل بحيث كان يجد الحكام والأمراء صعوبة كبيرة فى كبح جماحها ، وصد تيارها الجارف ، وكان من السهل أن تنتقل هذه الآراء والمعتقدات من العامة إلى الخاصة .

وقد يعجب الإنسان كيف أن تعاليم سامية كتعاليم السيد المسيح تستهدف لمثل هذا التصوير الخاطئ والعرض المشوه ، ولكن السبب الحقيقى هو أن المسيحية كانت روحاً جديدة فى العالم الرومانى ، وكان مقدراً أن هذه الروح الجديدة ستزلزل قواعده وتحلل كيانه ، وكانت هذه الروح الجديدة تشبه الروح الديمقراطية فى العالم الحديث ، ومثل كل روح حديثة ينفر منها الناس فى مستهل أمرها نفوراً غريزيًا لأنها تليح لهم بعالم جديد مجهول ، ولا عجب أن تلقى الروح الجديدة شدة ومقاومة من العالم الذى يشعر شعوراً غامضاً خفيًا بأنها ستقلبه رأساً على عقب ، وتقوم على أنقاضه . وكانت الدولة الرومانية شديدة الحرص على توطيد نفوذها ، وتقرير سلطانها ، فهى لا تسمح بأن تقوم فى داخل حدودها وبين بصرها وسمعها جماعة تتحداها ، وتخلع طاعتها ، وتخرج عليها .

وكان الإمبراطور مرقس أورليوس بحكم مركزه حامى التقاليد الرومانية ، والقيم على الدولة وشؤونها ، ولم يكن فى وسعه بحكم نشأته وثقافته وتقاليد قومه أن يرى المسيحية على حقيقتها ، ويقدر ما فى آدابها من سمو وتسامح وإنسانية ، وكان حتماً عليه أن يراها شيئاً مناقضاً للنظام ، هادماً للمجتمع ، فواجب الدولة مقاومته ، وكسر شوكته ، والقضاء عليه ، وهو بحكم مركزه أول من

يفرض عليه الإشرافَ على ذلك رعاية للأمانة وصيانة للدولة . ولكننا نرى برغم ذلك كله أن هذا الحكيم الفيلسوف العظيم القلب واللب قد أساء بعض الإساءة عن غير قصد إلى المسيحية ، وقد تغتفر هذه الإساءة لغيره ، ولكنه كان رجلا الكمال بغيته والحق طلبته ، فهو لا يقاس على غيره ، ويطلب منه أكثر مما يطلب من سواه ، وقد يكون برئ الساحة واضح العذر ، ولكنه مع ذلك كله سيئ الحظ في هذه المسألة .

وليست هي أول مسألة لازمه فيها سوء الحظ ، وتنكر له القدر ، فقد أساء إليه الحظ إساءة أخرى شابت صفو حياته ، واستنفدت مقداراً غير يسير من حلمه الرزين ، وصبره الطويل ، وتجلده المنقطع النظير ، فقد كانت فاوستينا زوجة الإمبراطور الصالح لا تفهمه ولا تقدره ولا تحبوه بعطفها ، ولا تبادله الحب ، وكانت في بادئ الأمر تضمر له بعض الحب ، ولكن سرعان ما ملت حكمته ، وساءتها جهامة ورعه ، وذلك الحزن الصامت الوديع الذي كان يغلب عليه ، وكانت فاوستينا امرأة رفافة الجمال ، بارعة الحسن ، فاتنة جذابة ، كثيرة البدوات ، حادة الطباع ، وقد كثرت حول سمعتها الشائعات وتناثرت الأخبار السيئة ، ويقول رينان عنها[1] ، إن البحث التاريخي الدقيق أظهر بطلان الكثير من التهم التي قذفت بها » ، ولكنه مع ذلك يرى أن البقية القليلة من التهم التي لم يستطع التحقيق التاريخي تفنيدها من الخطورة بمكان ، وهي لم تقبل أن تشارك زوجها في ميوله ونزعاته ، وكانت تمقت أَصدقاءه وصُحابته ، وكان ذوقها يخالف ذوقه وإتجاهها يناقض اتجاهه .

ويرى رينان أن الإمبراطور كان يعرف ذلك ، ويشقى به ، ويحتمله صابراً

---

(١) راجع صفحة ٢٣٢ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس (الترجمة الإنجليزية – طبعة ولترسكوت) .

محتسباً ، ولم تخذله هنا تلك النظرية العجيبة التى كان يحرص عليها ، وهى أن يفرض على نفسه أن يرى الأشياء كما يجب أن تكون لا كما هى عليه فى الواقع ، وسد أذنيه عن سماع أخبار السوء ، ولم يتحول عن خطته ، وظلت فاوستينا « زوجته الصالحة الوفية العفة النقية » ولم ينبذ هذه الأسطورة حتى بعد موتها ، وقد استطاع فى أعوامه الأخيرة أن ينسى كل شىء ، ويغالط نفسه فى كل الأمور ويخدعها ، ولكنه لم يرتفع إلى هذه القمة إلا بعد معارك حامية ، وصراع داخلى رهيب ، وكأن جوهر فلسفته الخضوع والإستسلام ونبذ كل شىء ، وكان لزاماً عليه أن يحمل نفسه على توديع السعادة الدنيوية ، والمآرب الأرضية ، ليصل إلى هذه الحالة ، وربما لم يكن فى مقدور البشر أن يقدروا مدى الآلام التى عاناها مثل هذا الرجل لبلوغ هذه الحالة النفسية العجيبة النادرة !

وريـنان يقول فى هذا الصدد[١] « حقيقة أن توديع السعادة هو بدء الحكمة وآكد طريق للظفر بالسعادة » ويردف ذلك بقوله « لا شيىء أعذب من السرور الذى يعقب تنازلنا عن السرور » فهل الأمر كذلك ؟ هذه مرتفعات قد لا تقوى على السير فى دروبها ، وربما كان إخواننا أصحاب الأمزجة الصوفية أقدر منا على فهمها !

وقد أحسن الدفاع عن فاوستينا الأستاذ الحجة فاركهارسون فى كتابه القيم عن « حياة مرقس أورليوس وعالمه » – وهو من خير الدراسات التى كتبت عن حياة الإمبراطور الفيلسوف – فقال[٢] « لقد صار اسم فاوستينا مضغة فى الأفواه ، وأصبح مضرب المثل فى الضعف النسائى ، وجمعت الأقاويل التى ترددت حولها طائفة من الأوهام والفروض التى غدت فى دورها جزءاً من

---

(١) راجع صفحة ٢٣٣ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس (الترجمة الإنجليزية).
(٢) راجع صفحة ٨٢ من كتاب فاركهارسون عن حياة مرقس أورليوس وعالمه.

القصة كما يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال ، ومن المتعذر الفصل فى الموضوع لنقص الأدلة ، ويكفى أن نقول إن الباحث النزيه لا يتردد فى تبرئة الإمبراطورة الشابة بناء على الدليل الباقى ، ويبدو أن هذه الإشاعة السيئة مجرد حقد مثل القذر الذى رميت به مارى أنطوانيت ، وهو ضريبة الجمال التى يدفعها فى الأماكن السامية » ، ويرى فاركهارسون أن كثيراً من الأخبار السيئة التى لوثت سمعة فاوستينا أذيعت بعد مضى مائتى سنة على وفاتها ، ويستخلص من ذلك أنها ظاهرة البطلان واضحة التلفيق ، وقد مال إلى تبرئتها كذلك المؤرخ هايوارد فى كتابه عن مرقس أورليوس ، ويرينا ذلك ان التهم التى قذفت بها فاوستينا ليست من الأمور المقطوع بصحتها ، والتى يميل البحث التاريخى الحديث إلى التشكيك فيها وتفنيدها .

وقد أشرت إلى نكبة الإمبراطور بابنه كومودس ذلك الفظ الغليظ القلب المنتكس الطبيعة ، المجبول على الأذى والشر ، وقد ألمع الإمبراطور إلى بعض ماعاناه منه فى قوله[1] « ما الذى يستطيع أن يفعله شر الناس من الأعمال السيئة إذا ظللت مصراً على العطف عليه والإحسان إليه ؟ وإذا ترفقت فى لومه حينما تلوح الفرصة وألقيت عليه فى اللحظة التى يحاول فيها الإساءة إليك أمثال هذه الدروس فى غير غضب « اعرض عن ذلك يا ولدى فقد ولدنا لغايات أخرى ، إنك لا تسىء إلى وإنما تسىء إلى نفسك » وأبصره بلباقة المبادئ العامة التى تقضى بأن تكون هذه هى القاعدة ، وأنه لا النحل يعمل عمله ولا الحيوانات التى تعيش فى القطيع ، ولا أنتقصه ولا أهينه وأسخر به بل أقول كل ما أقوله له بلهجة الوامق العاطف كأنه صادر عن قلب لم تؤثر فيه مرارة الغضب ،

---

(١) راجع صفحة ١٨٩ / ١٩٠ من كتاب التأملات (طبعة سكوت) وصفحة ٢٣٤ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس الترجمة الإنجليزية (طبعة سكوت) .

ولا أحدثه كأنى معلم المدرسة أو لأكسب إعجاب الحاضرين ، وإنما أستعمل نفس الصراحة التى أتحدث بها إليه حينما نكون منفردين معاً » .

ولكن هذا العطف الأبوى والترفق الفلسفى والنصح البليغ لم يضلح لسوء الحظ من شأن نجله المنكودكومودس ، وكانت تنتظر هذا الرجل الرصين الوديع فى سنواته الأخيرة آلام أخرى ، وتجارب جديدة مرة قاسية ، فقد تخطف الموت أصدقاء طفولته وأخدان شبابه ، وأصبح هؤلاء السادة الغطارف الذين جمعهم حوله أنطونينوس ونعم بصحبتهم مرقس أورليوس طى الأرماس ، وأحس أنه فى جيل لا يفهمه ، وأخذ يطيل التفكير فى الموت . من ذلك قوله فى تأملاته[1] «لا تلعن الموت بل رحب به لأنه فى عداد تلك المظاهر التى تريدها الطبيعة ، وإنحلال كياننا شىء طبيعى مثل الشباب والشيخوخة والنمو والنضج التام . . . وإذا كنت فى حاجة إلى تفكير خاص ليصلح ما بينك وبين الموت فما عليك إلا أن تفكر فيمن سيطوى الموت ما بينك وبينهم ، ولا تفكر فى مغاضبتهم والحملة عليهم ، وإنما خذ نفسك بحبهم واحتمالهم فى رفق ولين ، ولكن برغم ذلك تذكر أنك لا تفارق قوماً يشعرون بمثل شعورك ويفكرون تفكيرك ، والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يجعلنا نستمسك بالحياة ويقيدنا بها هو تلك الصحبة المباركة ، صحبة من هم على شاكلتنا وأشباهنا ، ولكن لما كانت الأمور كما ترى فانظر الغصص الدخيلة التى تعانيها حتى لتنبعث منك هذه الصبيحة «أيها الموت لا ترجئ قدومك خشية أن أنسى نفسى» .

وأخذ يمعن فى تحليل الحياة وتشريح أجزائها حتى أصبح الفرق يسيراً بينها وبين الموت ، ووصل عن هذا الطريق إلى التسامح الشامل وعدم الإكتراث الذى كان يلطف من حدته الإشفاق والإحتقار ، وكان الهدف الذى يرمى إليه

(١) صفحة ١٤٥ / ١٤٦ من كتاب التأملات وصفحة ٢٣٨ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس

هو «أن يعيش زاهداً مستسلماً بين الرجال المزيفين الظالمين» والطيبة الصادقة الوطيدة هى التى تقوم على الزهد فى كل شىء والملل منه والتبرم به ، والإحساس بأن كل ما فى هذه الدنيا تافه حقير سطحى زائل ، وإذا بدت الدنيا للإنسان أطلالاً دارسة ورسوماً عافية فماذا يبقى؟ الشر والحقد والضغينة ؟ كلا فإن الأمر أهون من أن يستحق هذا العناء ، ومباشرة الشر تستلزم إيماناً خاصًّا بجدية الحياة والتصديق على الأقل بما فيها من متعة ولذة ، والإيمان بالإنتقام ، والإيمان بالطموح ، ولكن الرجل الذى زالت عن بصره غشاوة الأوهام ، وعرف أن كل رغبة تنطوى على حماقة لا يكلف نفسه مثل هذا العناء ، ولقد وصل مرقس أورليوس إلى ما يشبه النرفانة عند البوذيين ، فتخلص من رق الأهواء والشهوات ، وسما على الأغراض والأهداف ، وانتصر انتصاراً نهائيًّا على الموت ، واستطاع أن يبتسم إليه ويتلقاه فى غير خشية ، بل فى قبول تام وترحيب صادق .

وفى العاشر من شهر مارس للسنة الميلادية ١٨٠ مرض الإمبراطور مرضه الأخير ، واستعد للقاء الموت الذى كان يطلبه ويدعوه ، وأمسك عن الطعام والشراب ، واستدعى ابنه كومودس ، ورجاه أن يتابع الحرب القائمة حتى يصل بها إلى النهاية .

وفى اليوم السادس من مرضه استدعى أصدقاءه وخاطبهم بلهجته المألوفة وسخريته الخفيفة المهذبة ، وتحدث إليهم عن غرور الحياة وباطلها وعدم الإكتراث بالموت ، فتفجرت عيونهم بالدموع ، وسالت عبراتهم فقال لهم «لماذا تبكون من أجلى؟ لا تفكروا فى غير إنقاذ الجيش ، وكل ما فى الأمر هو أننى أسبقكم . . . فالوداع» .

وسئل «من يوصى بابنه ؟» فأجاب «أوصيكم به إذا وجدتموه جديراً بذلك

وأوصى الآلهة الخالدين » .

وحزن الجيش حزناً شديداً لأنه كان يحب الإمبراطور الفيلسوف ويعبده عبادة ، وكان الجيش يعرف المنحدر الذى ستسقط فيه الإمبراطورية بعد موته وكان لا يزال به بقية من القوة تكفى لأن يقوم بتقديم نجله للجيش ، وقد مكنته قدرته على الإحتفاظ بهدوئه والسيطرة على نفسه برغم الآلام التى يعانيها من أن يظل جلداً رزيناً حتى فى تلك اللحظة القاسية .

وفى اليوم السابع شعر بقرب الخاتمة ، وكان لا يرى غير نجله ، وأبعده بعد دقائق قليلة خشية أن تصيبه عدوى المرض الذى أصابه ، وربما كان ذلك مجرد عذر ليريح نفسه من محضره البغيض ، ثم غطى رأسه كأنه يحاول النوم ، وفى الليلة القادمة أسلم الروح ، ونقلت جثته إلى روما ، ودفن فى مقبرة الإمبراطور هادريان ، وكان كل فرد من أفراد الشعب يشعر بأنه قد فقد أباً يشجيه فقده أو أخاً يؤلمه رحيله أو إبناً يشق عليه موته ، وفى يوم الإحتفال بدفنه لم يكد يسفح عليه دمع فقد كان جميع الناس يعتقدون أن مثله لا يموت ، وأنه قد انتقل من الحياة الأرضية الفانية وعاد إلى الآلهة التى أعارته الأرض حيناً من الزمن ! وكان الذى تمكنه أحواله من إقتناء تمثال للإمبراطور فى منزله ولا يفعل ذلك يذم ويلام ، وكان جميلاً من الناس ومشرفاً للإنسانية هذا الوفاء النزيه والتقدير الصادق البرىء لهذا الرجل الراحل العظيم ! ويقول رينان فى كتابه عنه تعليقاً على ذلك [١] « لم تكن هناك عبادة أكثر شرعية من ذلك ، وهى لا تزال عبادتنا إلى اليوم ، وكل منا يحمل فى نفسه الحزن على مرقس أورليوس كأنه قد مات بالأمس ، فبه قد جلست الفلسفة على العرش ، وبفضله حكم الدنيا حيناً من الزمن أحسن رجال عصره وأعظمهم ، وكان من الخير حدوث هذه التجربة ،

(١) صفحة ٢٤٢ من كتاب رينان عن مرقس أورليوس .

فهل تحدث هذه التجربة مرة أخرى ؟ وهل تبلغ الفلسفة الجديثة فى دورها مرتبة الجلوس على العرش كما بلغت الفلسفة القديمة ؟ وهل يكون لها مرقس أورليوس الخاص بها يحفه رجال من أمثال فرونتو وجونياس راستيكاس ؟ وهل تصير أمور البشر مرة ثانية إلى أيدى أعقلهم وأكثرهم حكمة ؟» .

وقد ترك مرقس أورليوس للإنسانية كتاباً يعد من أسمى الكتب التى كتبها القدماء وأبقاها على الزمن ، وهو كتاب التأملات ، وليس هذا الكتاب مجرد مجموعة أفكار فلسفية أو خواطر أخلاقية صالحة للوعظ والتبشير والهداية والإرشاد ، وإنما هو قصة نفس كانت تنشد الحقيقة وتعنى بمشكلات الحياة الكبيرة ، وتديم التفكير فى معنى الحياة والموت ، وهو مناجاة مستملة من مأساة حياة رجل كبير القلب ، راجح العقل ، لا يريد أن يذيع عقيدة أخلاقية أو أن يقدم لك مذهباً فلسفيًّا ، ولكنه مع ذلك يستولى عليك ، ويلمس قلبك .

وقد انتهى إلى فكرة أن على الإنسان أن يخمد رغباته إذا أراد أن يكون سيد نفسه ، وهى نفس النتيجة التى إنتهى إليها شوبنهاور والبوذيون ، وهى نوع من الإنتحار الداخلى وكبت الرغبات والميول والأهواء .

والوصية التى يوصينا بها الرواقيون والبوذيون وشوبنهاور ومرقس أورليوس هى أن نعمل على أن نكون مثل الأحجار التى لا تحس شيئاً ، ولكن إذا كانت الأحجار لا تحس ولا تشعر وبذلك تتخلص من الألم ، فهى كذلك لا تستشعر الحب ولا تعرف الإيمان ، وقد كان قلب مرقس أورليوس حافلاً بالحب والعواطف الإنسانية الكريمة ، عامراً بالإيمان بعدالة الكون وقداسته ، وواضح أن هنا نوعاً من أنواع التناقض ، ولكنه تناقض مقبول لأنه أنقذه من جفاف الشعور وجمود الحس ، وقساوة القلب التى استهدف لها الرواقيون ، فقد حاولوا إخماد العواطف نزولاً على حكم العقل ، وكان لزاماً عليهم أن يخمدوا كذلك

الحب والعطف ، أما مرقس أورليوس فقد سلم بوجود حرية الإرادة ليستطيع الصفح عن الغير ، وكان يرى كذلك أن الخير والشر طبيعيان كإزدهار الورد فى الربيع ، وهذا التناقض أفسد عليه مذهبه الفلسفى ولكنه أفاض على تفكيره من ناحية أخرى روحاً إنسانية جذابة .

ولم تنقذه من صرامة النسك وظلام اليأس طيبة القلب وحدها ، وإنما كذلك الإيمان بقوة العقل الإنسانى ، فهو يقول لنفسه فى تأملاته « إعمل على أن تتذكر على الدوام أنك رجل وأنك رومانى ، وليكن ديدنك أن تؤدى أعمالك فى رزانة غير متكلفة وبإنسانية وحرية وعدالة » .

ويقول كذلك « إن السلطة المقدسة ليست سوى الروح والعقل اللذين يملكهما كل إنسان » فإلهه هو الضمير الإنسانى ، وليس له إيمان محدد فيما يخص الآلهة سوى هذا الإيمان .

وهو لا يؤكد شيئاً ، ولأفكاره دائماً وجهان ، وجه يفترض وجود الله والروح ، ووجه آخر يفترض أنهما غير موجودين ، فهو يقول مثلاً[(١)] : « الدنيا إما أن تكون أخلاطاً من الذرات تجتمع حيناً وتفترق حيناً آخر ، وإما أن تكون وحدة متسقة خاضعة لقوانين النظام والعناية ، فإذا صح الرأى الأول فلماذا أطلب البقاء حيث الطبيعة فى فوضى والأشياء تخبط خبط العشواء فى اجتماعها وتفرقها ؟ ولماذا أعنى بأى شىء آخر غير عودتى إلى عنصر الأرض فى أسرع وقت مستطاع ؟ ولماذا أجشم نفسى المتاعب وأسومها العذاب ؟ فلأعمل ما أريد فإن عناصرى ستتبدد وتتفرق ، ولكن إذا كانت هناك عناية فإنى سأكبر حاكم الدنيا العظيم وأطمئن إلى رعايته وألوذ بحماه » .

---

(١) كتاب التأملات صفحة ٢٧ الترجمة الإنجليزية طبعة سكوت .

ويقول فى مناجاة أخرى[1] «اعمل وتحدث وفكر كأنك معرض للموت فى كل لحظة من لحظات حياتك ، وماذا فى الموت مما يروع ويهول ؟ إذا كان هناك آلهة فإنك لن تعذب لأنها لا تمسك بسوء ، وإذا لم يكن هناك آلهة أو كانت لا تحفل بالمخلوقات الفانية أمثالنا فإن عالماً بغير آلهة ولا عناية إلهية لا يستحق أن يعاش به ، ولكن الواقع أن وجود الآلهة وإهتمامها بأمور البشر من المسائل التى لا خلاف فيها ، وقد منحت الإنسان القدرة على تجنب الكوارث الحقيقية . . . » .

ولم يستطع مرقس أورليوس أن يخرج من هذه الحيرة ، ويطمئن إلى حل نهائى لهذه المشكلة ، وهذا هو مصدر مأساة حياته الأخلاقية ، فكان هناك صراع دائم فى نفسه بين اليقين وبواعث الشك ، وكان هذا اليقين الذى لا يفتأ يطارد الشك ويغالبه مصدر همه ونصبه وعذابه وآلامه ، وقد ظل كذلك إلى النهاية يشك ويؤمن ، ويحارب إيمانه الشكوك ، وقد مات وهو فى غمرة الهيجاء ونقعها المثار ، ولكنه لم ينهزم !

وقد كان فى بعض الأحايين يسمو إلى القمم العالية حيث الصمت الذى لا تصل إليه ضجة الأرض وضوضاؤها ، والهدوء الذى لا تشوبه عواصف الأهواء والشهوات ، والحكيم الذى يظل متوقلاً فى تلك الأعالى والمرتفعات لا مفر له من أن يقضى على إرادة الحياة فى نفسه ، وإذا قضى الإنسان على إرادة الحياة فى نفسه فقد قضى كذلك على إرادة الفضيلة وإرادة الخير ، وقد إستطاع مرقس أورليوس أن يقمع أهواءه ، ويروض جماح نفسه ، ولكن نبع الحب والعطف ظل فى نفسه عذباً فياضاً يذكرنا بتلك الأسطورة التى تروى عن ساكيامونى البوذا ، وذلك أنه فى خلال السنوات الطويلة التى قضاها فى

(١) كتاب التأملات صفحة ٨٦ الترجمة الإنجليزية طبعة سكوت .

الصحراء جالساً بغير حراك كانت عيناه معقودتين بالسماء ، وكان دائم التفكير فى الأبدية حتى قارب الوصول إلى النرفانة ، وتصلبت مفاصل ذراعيه الممدودتين وطارت فوقه خطاطيف ، فلما رأته ثابتاً لا يتحرك ظنته حجراً أو جذع شجرة ، فعششت فى راحة يده ، وكانت تعود إليها فى كل ربيع ، ولكنها فى يوم من الأيام طارت لكى لا تعود مرة ثانية ، فلما عرف ذلك هذا الذى أخمد فى نفسه كل رغباته ، وقمع إرادة الحياة والذى أصبح لا يألم ولا يفكر ، واستمتع بهدوء النرفانة عز عليه فراق الخطاطيف فطفرت الدموع من عينيه .

وهكذا القلب البشرى – كما يقول الكاتب الروسى الكبير مرزكوفسكى – «لا يصل إلى الهدوء المطلق ، والحكمة الخالصة لأنه لا يستطيع أن يحرم على نفسه الحب» وربما كان هذا الضعف هو مصدر قوته وآية مجده وعظمته .

بوذا

إفرحوا للأنباء السارة ! سيدنا بوذا قد عرف أصل الشر كله وهدانا طريق الخلاص ! .

بوذا يفرق شمل أوهام عقولنا ، وينقذنا من أهوال الموت .

بوذا – سيدنا – يريح المتعبين ، ويسعد المكروبين ، وينزل السكينة على قلوب الذين نلعوا بأعباء الحياة ، ويشجع المستضعفين حينما يشرفون على فقدان ثقتهم بأنفسهم ويودعون الأمل .

وأنتم يا من تعانون شدائد الحياة ، ويا أيها المجاهدون الصابرون ، ويامن صبت نفوسهم إلى حياة الحق إفرحوا للأنباء السارة .

لقد جاء البلسم للجرحى ، والخبز للجائعين ، والماء للظماء ، والأمل لليائسين ، ولمع الضوء لمن احتواهم الظلام ، وحل اليمن الذى لا ينفد للصالحين .

داووا جراحاتكم أيها المجروجون ، وكلوا حتى تشبعوا أيها الجائعون ، واستريحوا أيها المتعبون ، وأرووا ظمأكم أيها العطاش الصادون ، واشخصوا بأبصاركم إلى النور أيها القاعدون فى الظلام ، وليغمر السرور قلوبكم يا من خانهم الحظ ، وتنكرت لهم الأيام .

لتثقوا بالحق أيها المحبون للحق ، لأن ملكوت الصلاح قد قامت فى الأرض دولته ، ونسخ ضوء الحق ظلام الباطل .

نستطيع الآن أن نتبين طريقنا ، ونسدد خطواتنا ، فقد جلا لنا سيدنا بوذا الحق .

الحق يشفى أوجاعنا ، وينقذنا من الهلاك ، ويمدنا بالقوة فى الحياة والموت ، والحق وحده يستطيع أن يغلب شرور الباطل .

افرحوا للأنباء السارة ! »

بهذا التشيد الواضح الدلالة على اتجاه البوذية استهل الكاتب البحاثة الأمريكى يول كيرس كتابه «إنجيل بوذا» الذى جمع مادته من شتى أسفار البوذية وسننها وتعاليمها .

ولا نزاع بين الباحثين العارفين فى أن بوذا منشئ هذه العقيدة الواسعة الانتشار ، والكثيرة الأتباع والأشياع من أعظم وأنبل الشخصيات التى عرفها تاريخ الإنسانية ، وإذا عددنا عظماء الهنود فإن بوذا يأتى فى الطليعة ، وقد بدأ الأستاذ واديا المفكر الهندى المعاصر فصلاً كتبه عن بوذا بقوله[1] «قليل من الناس – سواء فى داخل الهند أوفى خارجها – الذين ينكرون أن بوذا هو أعظم هندى فى جميع الأزمان» .

والواقع أننا حينما نقترب من البوذية نجد أنفسنا إزاء عقيدة إنسانية فلسفية النزعة سامية الأهداف ، وحينما تطالعنا شخصية بوذا نجد أننا تلقاء شخصية جديرة بالحب والإعجاب والتقدير سواء رضينا عن مذهبه وقبلناه أورفضناه وأنكرناه ، وسواء نظرنا إلى البوذا من ناحية صفاء نفسه وطهارتها ، وعذوبة روحه ولطافتها ، وجرأة أفكاره وأصالتها أومن ناحية بعد مدى تأثيره فى ثقافة الهند والصين واليابان وتوجيه التفكير فإن ليس من السهل أن نجد له نظيراً يساميه فى نبالته أويدانيه فى قداسته ، أويقاربه فى تماسك منطقه وقوة حجته .

وقد كانت القوانين التى يقررها العلماء النفسيون والباحثون الإجتماعيون من ناحية الوراثة وآثار البيئة وعوامل النشأة تحتم أن ينشأ البوذا هندوسياً غالياً فى

(١) راجع عدد ابريل سنة ١٩٤٨ من مجلة «الفلسفة» البريطانية صفحة ١١٦ .

محافظته ، ولكن قوانين العبقرية المجهولة الخفية كانت تعمل على توجيهه وجهة أخرى .

وتختلف الآراء فى بوذا فهل هو موجد دين أو خالق فلسفة حياة ؟ وربما كان الجواب عن ذلك يتوقف على مدى فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة ، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا متصرفة فى أقدارنا ومصائرنا وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كشفت لنا فإن بوذا بمقتضى هذا التفسير لم يكن صاحب دين ، وذلك بالرغم من أن أتباعه رفعوه بعد موته بقرون إلى مرتبة الآلهة ، وقبلوا كلماته باعتبارها حقائق لا يتطرق إليها الخطأ ، ولكن هذا من صنع الأتباع وليس من عمل بوذا نفسه ، فقد كان يحاول على الدوام أن يبسط آراءه بسطاً منطقياً ، ويؤيدها بالحجة الناصعة ، والتفكير المستقيم ، والمنطق الرصين ، فهو صاحب فلسفة أكثر بكثير مما هو صاحب دين .

وقد كان هذا المفكر العميق الثائر يحمل سامعيه تبعة خطيرة ، ويكلفهم تكليفاً صعباً ، فمن أقواله « لا تقبلوا كل ما ينقل إليكم أو يروى لكم ، ولا تستسلموا للتقاليد ، ولا تقبلوا قضية من القضايا لأنها وردت فى أسفارنا ، ولا لأنها توافق عقيدتكم ، ولا لأنها من أقوال معلمكم » فهو يلزم سامعيه هذه الإلزام المكروه وهو أن يفكر الإنسان لنفسه ، ويعمل عقله ، ويستقل فى تفكيره ! وهى من غير شك نصيحة شاقة ، ومطلب عزيز ، فإن الأيسر والأنفى للهموم والمتاعب هو أن يتجنب الإنسان التفكير ، ويحط عن كاهله تبعته ، ويعتمد على ما خلفه له المتقدمون ، وتاريخ البوذية نفسه كسائر تواريخ المشكلات الفكرية يرينا صعوبة الأخذ بهذه النصيحة :

ولم يكن بوذا منكراً للآلهة ، وإنما كان موقفه منهم يشبه موقف اللاأدريين ، فهو لا يشغل باله بوجود الآلهة أو عدم وجودها ، وذلك لأن

خلاص الإنسان فى رأيه متوقف على نفسه لا على الآلهة ، والإنسان فى رأى بوذا هو صانع مصيره ، ومن كلمات بوذا الأخيرة لأتباعه «كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بذاتها ، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفاً ، ولا تعتصموا بملاذ خارجى ، ولا تحتموا بغير أنفسكم» ومن كان هذا رأيه وتلك عقيدته فما حاجته إلى الآلهة ؟

وقد وصف بعض الباحثين البوذية بأنها ديانة معطلة ، ولكن الواقع أن هذا الوصف لا يخلو من مبالغة وإسراف ، فإن المسألة هنا مسألة عدم اكتراث لا مسألة جحود وإنكار ، ومما أخذ على البوذية أنها تؤكد جانب الحزن فى الحياة وتنزع نزعة تشاؤمية ، وكون البوذية شديدة الشعور بوجود الشقاء حقيقة لا تنكر ولكن كونها ديانة ميالة إلى التشاؤم مسألة فيها نظر ، فبوذا قد حاول أن يبصر الناس بطريق الخلاص من شرور الحياة ، وسبيل النجاة من أحزانها .

ومن أقوال بوذا عن النرفانة «يا أصدقائى ، إن القضاء على الجشع ، والقضاء على الكراهية ، والقضاء على الوهم ، ذلك كله يا أصدقائى هو النرفانة» فالنرفانة على ما يظهر ليس معناها القضاء على الحياة وإخماد جذوتها ، وإنما معناها قهر الشهوات ، والتغلب على النية السيئة والجهل والغضب والخوف وكل ما يجعل الحياة عبئاً ثقيلاً ، وهما مقعداً مقيماً ، فمن استطاع ذلك يكون قد وصل إلى النوفانة ، وليست هى الوصول إلى العدم والفناء ، وإنما هى الوصول إلى أسمى مراتب الاستنارة الفكرية ، والسيطرة التامة على النفس .

وبعض مفسرى البوذية وشراحها من المفكرين الغربيين يرون فى النرفانة نهاية الموقف السلبى من الحياة وأقصى ما ينتهى إليه اليأس من الوجود ، ولكن المفكرين الهنود يرفضون هذا التفسير ، والنرفانة فى رأيهم موقف إيجابى ، وتسوية مناسبة لمشكلات الحياة ، وطريقة ميسورة للخلاص من آلامها

وأحزانها ، فليست هى من قبيل اليأس الذى يقول فيه البحترى :

واليأس إحدى الراحتين ولن ترى   تعباً كظن الخائب المكدود

وإنما هى أمل ورجاء فى الإفلات من قيود توالى الميلاد ، وتناسخ الأرواح ، وأسر اللبانات المتعبة ، والشهوات المنهكة ، والمطامع والإغراءات ، والأهواء والنزوات .

وقد ولد بوذا قبل المسيح بستة قرون فى شمال الهند بالمنطقة المعروفة باسم مقاطعة بهار ، ويقال إن والده كان من أعيان مدينة كاپيلاڤاستو الأثرياء أومن أمرائها ورئيس قبيلة شاكياس ، فهو من أبناء طبقة المحاربين ، وكان اسم أبيه سدذوذانا واسم أمه مايا ، وقد توفيت بعد مولده بسبعة أيام ، فأرضعته شقيقتها وكانت الزوجة الثانية لأبيه وتولته برعايتها .

ولفظة بوذا معناها المستنير ، وأصل اسمه سيدذارتا ، ومعناها الذى بلغ أمله ، واسم أسرته أسرة جوتاما ، وكان وارث إمارة أبيه .

ونلقى بوذا فى أول حياته وفى ريعان شبابه أميراً شريف النسب ، منحدراً من سلالة الفاتحين الآريين ، جميل الصورة ، جذاب المحيا ، حلو الشمائل ، وكان الابن الوحيد الوارث لثروة أبيه ومكانته المرموقة ، ولكننا نجده مع ذلك كله نهباً للهموم وفريسة للأحزان ، والخواطر السود . ولقد ظفر بالحب ، وتزوج حسناء فاتنة ، ورزق طفلاً اسمه راهولا ، ولكن كل ما حفه من أسباب الثراء ، ودواعى المتعة ، ومؤهلات العيشة الراضية ، المترفة الناعمة ، لم يستطع أن يصرفه عن التفكير فى مشكلة الحياة ولغز الوجود ، وكانت أحزان الإنسانية وآلامها تنغص عليه صفو حياته ، وتطيل تفكيره فى قسوة الدهر وظلم الأيام .

ولحظ ذلك والده ، فأهمه الأمر ، وساءه ميل الأمير الشاب إلى الوحدة والاعتزال ، والاستغراق فى الأفكار ، والتأملات ، فعمل على أن يجنبه رؤية

المرضى ، وسماع أخبار الموتى ، ومعرفة ما يبتلى به الناس طول العمر والإمعان فى الشيخوخة ، وحرص على ذلك خشية أن يدفع التفكير فى شقاء الحياة ابنه إلى التنسك والتماس الوحدة فى جوف الغابات ، وقنن الجبال ، فلا يجد للإمارة وارثاً من ذريته ، وقدر أن هذا سيثير مطامع جيرانه الأقوياء .

ويروى الرواة أن الأمير الشاب خرج من قصره ذات يوم ، وسار فى الطرقات مثل عامة الناس ، فرأى شيخاً هرماً قد نالت منه الشيخوخة ، فتركت رؤيته فى نفسه أثراً باقياً وألماً موجعاً ، وخرج من القصر فى اليوم التالى ، فوقعت عينه على رجل مريض قد شفه المرض ، وأنهكه الداء ، فعاد إلى القصر حزيناً مغموماً ، وخرج من قصره اليوم الثالث فرأى ميتاً محمولاً إلى القبر ، فعاد يفكر فى مشاهدات هذه الأيام الثلاثةويقلبها على جوانبها المختلفة ، فما هذه الشيخوخة التى تسلب الإنسان قوته ونضارته واستمتاعه بالحياة ؟ وما هذه الأمراض التى تجعل حياته عذاباً متصلاً ونكبة مستمرة ؟ وما هذا الموت المخيف الغامض المبهم الذى يجعل الإنسان جثة هامدة ويحيله رمة بالية ؟ وما هذه الحياة الإنسانية المستهدفة دائماً للشيخوخة والمرض والموت ؟ إنها مشكلة كبيرة جديرة بأن يتخلى الإنسان عن علاقاته جميعاً حتى تلك العلاقات التى تربطه بأقرب الناس إليه ويتنازل عن آماله الخاصة ومطالبه الفردية ليفرغ لها ، ويحاول تفسيرها ومعالجة لغزها .

وصار يرى الحياة مأساة غاصة بالكوارث والنوازل والآلام والأحزان وعثرات الحظ وعبث الأقدار وظلم الأيام ، وكان كل ما يشاهده حوله يزيد ألماً وحزناً ، وفكراً وهماً ، وخرج مرة فى عربته ليرى العمال الكادحين الذين يحرثون أرض أبيه ، فرآهم يعملون جميعهم فى وهج الشمس اللافحة سواء الصغير السن منهم أو الشيخ المتهدم ، وقد شحبت وجوههم وعلتها قترة . وتفصد عرقهم وبان

عليهم الكلال والإعياء ، ونمت عيونهم على ما يعانون من كرب وبلاء . وأبصر الثيران التى تجر المحاريث وهى تجهد وتلهث ، وقد اندلعت ألسنتها ، وأدمت السياط ظهورها ، فعاد أدراجه إلى قصره وقد تكاثرت عليه الهموم والأحزان ، وآلمه شقاء الإنسان والحيوان ، وقال لنفسه «إنّ هذه الدنيا قوامها الألم ، وليس بها سوى الشقاء ، فإذا كان هناك طريق للخلاص والنجاة فأين هو؟ إنى من اليأس فى سجن» .

وجلس وحيداً ؛ وقد امتلأ قلبه رحمة بالإنسان والحيوان ؛ وأخذ يكد الفكر فى التماس سبيل الخلاص ، ولما طال به التفكير على غير جدوى خرج إلى الطريق ومشى الهوينى فصادف رجلاً يحمل فى يده مزوداً ويرتدى ثوباً خشن النسج أصفر اللون ، وتلاقت عيناهما ، وخيل للأمير أنه لم يشهد من قبل شبيهاً لهذا الرجل المتسول العجيب ، فقال لنفسه «من يا ترى هذا الرجل؟» إنه هادئ المحيا ، وعيناه تدلان على أنه مطمئن النفس ، رخى البال ، وما هذا المزود الذى يحمله فى يده؟» .

وبينما هو يمعن فى تيه هذه الأفكار حياه هذا الرجل الغريب تحية حسنة ، وخاطبه قائلاً «أيها الأمير العظيم إنى متسول متدين ، قد راعتنى مشكلات الحياة وأزعجتنى ، ورأيت الأشياء كلها ليس لها ثبات ولا استقرار ، فصدعت قيودى ، وهجرت دارى لأبحث عن سعادة يمكن الاطمئنان إليها والاعتماد عليها ، سعادة غير متقلبة ولا زائلة تشمل الصديق والعدو ، ولا تعبأ بالثروة والجمال ، ولا شئ يرضينى سوى هذا اللون من ألوان السعادة» .

فأخذت الدهشة من الأمير كل مأخذ ، لأن هذا الرجل الغريب ردد صدى الأفكار الجوالة فى نفسه فسأله قائلاً «وأين تلتمسها أيها الرجل الحكيم؟» .

«ألتمسها أيها السيد العظيم فى العزلة وفى أحشاء الغابات ، فهناك فى الهدوء

الشامل تقيم الاستنارة ، وإنى أحمل هذا المزود لأضع فيه ما يجود على به المحسنون من فضلات الطعام ؛ وهذا كل ما أطلبه من الدنيا ، وسامح أيها الأمير تعجلى السير فإن طريقى يمتد إلى الجبال حيث تنتظرنى الاستنارة » .

ومضى الرجل لطيته ، وعاد الأمير إلى المدينة مستغرقاً فى التفكير ، وبحث عن والده ، وأفضى إليه بأنه قد اعتزم ارتياد الخلوات واللياذ بالعزلة لينصرف بكليته إلى التفكير فى إيجاد طريق الخلاص لنفسه وللأعزاء عليه وللإنسانية جميعها .

ولا حاجة بنا إلى وصف ما ألم بوالده من الحزن لتصميم الأمير الشاب على ذلك ، ولا إلى ذكر الإغراءات التى كانت تراوده لتثنيه عن عزمه ، وكتم سره عن زوجته ، وأخذ يعد العدة للرحيل والخلاص من أصفاد الحواس ، وتروى التقاليد البوذية أنه سمع فى إحدى الليالى هاتفاً ينبئه بأن وقت الرحيل قد حان ، فاستدعى شونا سائق عربته ، وأمره بإسراج جواده الأبيض الكريم ، وأطاع شونا الأمر فى صمت حزين ، وتسلل إلى غرفة زوجته ، وكانت نائمة فى فراشها واضعة راحتها على رأس ابنها راهولا ، ومد ذراعيه مرتين ليعانقهما ، ولكنه أعادهما خشية أن يوقظهما ويحملهما ألم التوديع ، وخرج من الحجرة ، وترك الاثنين غارقين فى الرقاد وهو يعلم العلم كله أنه قد ضحى بسعادته وسعادة زوجته من أجل البحث عن طريق الخلاص للإنسانية ، وكانت سنه حين ذاك لا تتجاوز التاسعة والعشرين .

وامتطى صهوة جواده ، ووقف شانا إلى جانبه حائل الوجه بادى الأسى ، وخاطب الأمير جواده قائلاً « أيها الجواد الجرئ فى حومة النزال ، والذى لم يعرف الخوف ، استجمع قوتك ، فإنى فى هذه الليلة أمتطى متنك لأبحث عن الخلاص ، لا للإنسان وحده وإنما كذلك للحيوان » ولما سار فى الطريق خلف

أبواب المدينة تلفت إلى الوراء ، وقال فى صوت خفيض « لن أعود إلى هذا المكان إلاّ إذا انتصرت على الشيخوخة والمرض والموت والحزن » .

وتبعه شانا ، وسارا طويلاً ، وطويا مسافات بعيدة حتى بلغا حافة غابة فيحاء ، وخطا الجواد ليشرب وتوقف عن السير ، فترجل الأمير ، ونظر إلى عينى الجواد قائلاً « لقد حملتنى فأحسنت الحمل » والتفت إلى شانا وقال له « يا أوفى الناس وأخلصهم ، لقد عرفتك رجلاً صادق العهد قبل هذه الليلة ، ولكننى الآن ازددت بك علماً ، فقد صحبتنى محتقراً المنافع الزائلة ، مقدماً على الخطر ، مستهدفاً للوم والتفنيد ، وسيذكر قلبى ذلك كله ، والآن خذ الجواد وارجع به » .

فأخذ شانا يتوسل إليه ، ويذكره بوشائج القرابة وروابط الأسرة ، فأجابه الأمير « ما هى هذه الوشائج ؟ لوكانت الوفاة قد أدركتنى لكانت هذه الوشائج قد تقطعت ، إن الأقارب فى هذه الدنيا مثل أسراب الطير التى تعشش على الشجرة نفسها فى الليل ، ويتفرق شملها عند تبلج الفجر ، وحينما أجد الطريق إلى السعادة سأعود ، ولن أرجع قبل ذلك » .

وجرد سيفه المرصع بالجواهر ، وحز عقدة الشعر التى كان يلبسها لتدل على أنه من سلالة الآريين الأشراف ، وبينما هو يفعل ذلك مر به صياد يرتدى ثياباً خشنة ، فأعطاه سيدزارتا ثيابه الفخمة ، ولبس ثياب الصياد ، ونظر إلى شانا النظرة الأخيرة ، ومضى فى سبيله إلى الغابة دون أن ينبس بكلمة .

ويروى الرواة أن رغبات القلب ونزوات النفس أخذت تعمل على إغرائه ، وتصورت له فى صورة جمال مارا الحزين ملكة الإغراء ، وهى ليست الشيطان ، وإنما هى جماع ما فى القلب من نوازع ولبانات ، ولكنه قاوم ذلك كله ، وانتقل إلى راجاجريها عاصمة الملك بيسارا صاحب مجاده ، وكان يقيم

هنالك فى كهوف تلال ونديا جماعة من النساك يدرسون فلسفات الهند القديمة آملين أن يستعينوا بها على تفسير مشكلات الحياة ومعالجة ألغازها ، وقصد الغار الذى يقيم به البرهمى آلارا ، فقد كانت شهرة هذا الرجل قد طبقت الآفاق .

وحينما دخل عليه سيد زارتا كان الرجل مستغرقاً فى التفكير ، فجلس فى احترام على مقربة منه وسأل نفسه «أترى فى يد هذا الرجل المفتاح ؟» وانتظر حتى يروق آلارا أن يوجه إليه الحديث .

ووافق البرهمى على أن يدرس الأمير أسفار الفيدا والأوپانيشاد تحت إرشاده ، وعلمه قواعد كثير من المعلمين والمرشدين ، وبسط له آراءهم ، وحدثه عن الثمرات المرجوة من ممارسة أساليبهم فى التقشف والزهادة ، ووصف له ما تعانيه الروح من الآلام والأحزان وهى تنتقل فى نوبات الميلاد والموت ، ثم بلوغها رياض الراحة وجنات النعيم حيث تقضى هناك ملايين السنين ، وكيف يقذف بها بعد ذلك ثانية فى دائرة الميلاد والموت .

واتخذ سيدزارتا له كهفاً يأوى إليه مثل سائر النساك ، وأقبل على الدرس وتوفر على البحث ، وأعجب النساك بهذا الشاب الذى هجر الدنيا فى سبيل التماس الأشياء الروحية ، وأكبروا نبل نفسه ، وهدوء طبعه ، وأرسل إليه والده رجال حاشيته ليعود إليه ، وكان يتلقاهم بالبشر والإيناس ، ولكنه لا يلبى طلبهم .

وكان فى كل يوم يهبط المدينة ، وقد لبس ثوب النساك الأصفر اللون وحمل مزوده ليقدم له المحسنون من الطعام ما يقيم أوده ، وفى إحدى هذه الجولات أبصره الملك بمبيسارا وقال لبطانته «انظروا يا سادة إلى هذا الرجل ، إنه جميل الصورة ويبدو عليه الطهر والنقاء ، وبه سمات تدل على أنه نبيل من أصل

آرى ، تأملوا هدوءه ووداعته وثبات جأشه وتفرده؟ اسألوه أين يقصد هذا المتسول؟ » .

وعرف الملك قصته ، وأسف على نبذه الدنيا ، ورجاه أن يعود إليها ، ووعده بأن يشاطره مملكته لأنه أنس فيه القوة الجلال ، ولكن سيدزارثا أجابه قائلاً « أيها الملك النبيل الذائع الصيت المنحدر من الأصل الآرى ، إنى أصغى إلى قولك فى تقدير وإكبار ، وطريق الملك العظيم طريق العدل واليمن ، ولكن طريقى يمتد إلى الأمام ، وقد تركت خلفى الشهوات الخمس ، أترى الأرنب الذى أفلت من فك الثعبان يعود إليه ثانية ليزدرده؟ فعد أنت أيها الملك الحكيم إلى مدينتك السعيدة ، صحبتك السلامه ، وسار فى ركابك اليمن والخير» .

فأجابه الملك «أيها الأمير العظيم ، أرجو أن تبلغ مرادك ، وتجنى ثمرة ميلادك» وتبعه قليلاً هو وحاشيته تحية له ، واحتراماً لمكانته ، وعاد الملك إلى المدينة تصحبه حاشيته .

وأظهر سيدزارثا جلداً وصبراً فى الدرس والبحث حتى اتخذه النساك أتباع آلارا مرشداً لهم ، ولكنه بعد مرور بضع سنوات ظهر له فى وضوح أن معالجة لغز الحياة لا تكون بالطريقة التى يتبعها البراهمة ، وهى الإسراف فى زيادة الجانب الروحى من النفس والمبالغة فى إنمائه ، ومهما يكن الأمر فإن هذه الدراسة قد أجدت عليه ، وزادت بصيرته علماً واستنارة ، وهذه التجارب الروحية الرفيعة الطبقات العالية المستويات لم تخرج عن كونها علاجاً للداء الكامن ، ولكنها مع ذلك لا تستأصله ولا تقضى عليه ، فإنها تترك بقية منه وبؤرة تنبعث منها جراثيمه ، وهذا الأثر الباقى على قلته وضآلته يكون مدعاة لتكرار حركة الميلاد والموت

وترك أستاذه آلارا وهو موجع القلب حزين النفس ، وطلب العلم عند

الأستاذ أوداكا ، فلم يجد عنده ما يريده ، وخاب فيه أمله ، فعقد العزم على ترك الأساتذة ، والذهاب إلى أوراڤيلا ليمارس أشد ضروب الزهد والتقشف ظناً منه أن الروح قد تتحرر إذا حطمت قوة الجسد ، وتم الانتصار عليه ، وأخذ نفسه بنظام صارم ، وقسا عليها قسوة شديدة ، وأذاقها الجوع المضنى ، والظمأ المل‍وح . ولزم الخلوة والانقطاع للفكر والتأمل ، وكان يجلس طويلاً صامتاً بغير حراك حتى كانت الطيور والوحوش تتحرك من حوله غير خائفة ، فضمر جسده من تقليل الطعام ، ووهنت قوته حتى كاد يعجز عن الحركة ، ولا يقوى على التفكير ، وأدرك فى النهاية أن هذه المبالغة فى تعذيب الجسد غير مجدية ، وأنها ليست الطريق السوى ولا الخطة الحكيمة ، ولحظ أن هذا التعذيب القاهر جعل جسمه لا يقوى على مساندة العقل ، ونوى أن يعود إلى الأكل والشرب ليسترد جسده ما فقده من القوة ، ورأى أن السنوات الست التى أمضاها فى هذه التجارب لم تذهب عبثاً ، وإنما مهدت له السبيل إلى الاستنارة الحقة .

وساء ذلك جماعة النساك فقالوا « لقد أخفق الناسك جوتاما ، وليس عنده ما يعلمنا ، وقد حاد عن الطريق المستقيم » ولكن سيدزارثا وقد استعاد قوته سار بخطوات ثابتة نحو الشجرة التى تنزلت عليه الاستنارة فى ظلالها ، وأبصر رجلا يجز الحشائش لماشيته ، فسأله أن يعطيه ضغثاً من حشائشه ، ورأى سرحة فينانة وارفة الظلال متهدلة الأغصان فافترش الحشائش ، وجلس مضموم اليدين والقدمين ، وآلى على نفسه ألا يبرح هذا المكان إلا بعد أن يظفر بالاستنارة ، وأقبل الليل وأرخى سدوله فحجبه عن الأنظار .

وكانت ليلة رهيبة ، صاول فيها الإغراء مصاولة شديدة ، وحاول العقل والجسد فيها مؤتلفين ومختلفين أن يستدرجاه ويغرياه ويغلباه على أمره ، وتراءت له صور حياته السالفة ، صور الحب والترف والمتعة والقوة والسلطان ، وناوشت

عقله الشكوك ، وهاجمته المشكلات المحيرة ، وتجمعت حوله الأحلام الخادعة ، والأوهام المضلة ، ولكن حب الإنسانية والعطف الشديد عليها مكناه من الثبات فى وسط الزوابع الثائرة ، وجعلاه يستمسك بهدفه الأصيل كالسفينة العظيمة التى تشق طريقها بين هوج العواصف وثوائر الموج إلى فرضة الأمن والسلام .

ولما انجلى الظلام ، وأسفر الصبح ، تلقى الاستنارة كاملة لا يشوبها نقص ، واضحة لا يحيط بها غموض ، ورأى الماضى والحاضر والمستقبل كلا لا يتجزأ ، وعرف العلل والأسباب ، وأسرار الميلاد والموت والانتقال إلى حيوات جديدة ، ورأى فردية الإنسان أو ذاتيته وقد تكشفت له الأجزاء التى تتكون منها جزءاً جزءاً ، وأبصر طريق الخلاص ، وجلس البوذا – أو الذى بلغ غاية الاستنارة – يتأمل الوجود على حقيقته لأنه دخل النرفانة حيث الأمن والسلام ، ومر به النهار والليل دون أن يراهما لأنه كان مستغرقاً فى عالم النرفانة ، عالم الصفاء والنقاء والهدوء والسكينة والأمن والاستقرار ، وأخيراً رفع صوته عالياً مغنياً نشيد الانتصار . وجلس مفكراً يسائل نفسه هل فى استطاعته أن ينقل إلى الدنيا ما حصله من علم .

وجاء اثنان من التجار ، وهما بالليكا وتابوسا ، وقدما له الطعام ، وقد قبل البوذا أولهما تلميذاً له ؛ ونهض البوذا من مجلسه قاصداً مدينة بنارس ، باحثاً عن النساك الخمسة الذين احتقروه واستخفوا به ليبصرهم سبيل الرشد ، وكان أستاذاه آلارا وأوداكا قد ماتا ، ولولا ذلك لقصدهما قبل غيرهما .

وفى طريقه إلى بنارس لقى شاباً برهمياً مزهوًّا بنفسه ، وعنى هذا الشاب مع ذلك بأمر المتسول العظيم الشخصية الذى مر به ، وأراد أن ينصب له شركا ، فقال له « أيها المرشد من هو البرهمى الصالح ؟ فأجابه بوذا على الفور « التغلب

على الشر كله ونقاء الفكر وعفة اللفظ ونظافة الأعمال هذه كلها صفات البرهمى الصالحى » .

فوقع هذا الرد من نفس الشاب البرهمى المتكبر موقع التأثير ، وهز نفسه هزاً . فقال له فى غير تردد « لماذا وجهك جميل مشرق كالقمر فى صفحة الماء الهادئ ؟ من أين جاءك هذا الهدوء الذى يحف بك ؟ ومن عشيرتك الشريفة ومرشدك ؟ وما طريقتك ومذهبك فى هذه البلاد التى يجاهد فيها كل إنسان باحثاً عن الطريق ؟ » .

فأجابه البوذا « سعيد كل من رأى الحق ، وسعيد من خلت نفسه من سوء النية ، وملك زمام أمره ، واهتدى إلى الطريق المستقيم ، وأسمى ضروب الحرية هى الخلاص من أوهاق الذاتية ، وليس لى عشيرة شريفة الأصل ، وليس لى مرشد ، إنى أسير منفرداً قانعاً راضياً » .

فأجابه البرهمى المتكبر « أيها السيد المبجل ، الطريق ممتد أمامك » .

وسار البرهمى فى الطريق المخالف دون أن يعرف أن الفرصة قد عرضت له ولكن لم يغتنمها .

وجاء البوذا إلى بنارس ، وقصد المتنزه الذى يقيم به النساك الخمسة ، فلما أبصروه قادماً تهامسوا فيما بينهم قائلين فى احتقار « هذا الناسك جوتاما الذى يأكل شهى الطعام ، ويعيش عيشة البذخ ، لنضن عليه بالإحترام ، ولنمتنع عن الوقوف تحية له ، ولنكتف بأن نفسح له مكاناً كما نفعل للناس العاديين ، وليجلس إذا شاء » .

ولكن لما دنا منهم البوذا تقدمته مهابته ، وسبقته روعة محضره ، فلم يستطيعوا تنفيذ ما أجمعوا عليه أمرهم ، وهبوا واقفين ، وحمل واحد منهم جبته ، وتناول آخر مزوده ، وحمل إليه ثالث مقعداً ، وجاءه رابع بالماء ،

وجلس البوذا ، وغسل قدميه المتعبتين بالماء ، وألقى على هؤلاء الخمسة أولى محاضراته ، فسر قلوبهم ، ولاح بريق الفرح فى نظراتهم .

وسرعان ما ذاعت أخبار البوذا وعلت شهرته ، وهرع إليه شبان من أبناء الأسر العريقة والطبقات العالية الذين أنهكت أبدانهم الشهوات ، آملين أن يسمعوا منه الأنباء السارة والخلاص من الأحزان .

وقصة أحد هؤلاء الشبان واسمه يا ساس جديرة بالذكر ، فقد كان من الشبان الأثرياء الذين يستطيعون بما أوتوا من بسطة فى المال أن يحققوا كل مطالبهم ، وكانت فى نفسه ناحية من النبل جعلته غير مستريح للإنغماس فى الشهوة والجرى وراء المتعة ، ففى ذات ليلة وهو جالس بين نسائه الحسان وقد نال من نفسه الملل من الحياة قام من مجلسه ، ومشى إلى حديقة داره ، وكانت أشعة القمر متلألئة وقد سجا الليل ، فوقف وقال لنفسه «أيها القلب ما أشد ما تلقاه ! وأيتها الروح ماذا تحملين من المتاعب والأوصاب ! من فى هذه الدنيا يستطيع أن يهدينى سبيل الخير؟» .

واستهواه السرى فى الليل حتى وصل إلى المتنزه ، وكان بوذا قد جلس هناك مفكراً متأملاً فى ضوء القمر ، وصافح سمعه ما قاله يا ساس وردده ، وعرف البوذا ما يعانيه هذا الشاب فقد كان مثله ربيب نعمة وصاحب مال وجاه ، فقال له «ياسيدى أنت متعب ، وعندى لك حياة ليست ضارة ولا متعبة ، وتعاليمها لا تؤلم ولا ترهق» .

فخلع يا ساس نعليه المذهبتين ، وجلس إلى جانب هذا الغريب الذى لم يكن يدرى من أمره شيئاً ، وتحدث إليه البوذا عن ما تجره الشهوة من الشقاء والتعب والضياع ، وعما يغمر النفس من الهدوء حينما تنبذ اللذات ، وتتخلص من الشهوات ، فأخذت أنوار الحكمة تضىء نفس يا ساس ، ودله البوذا على

الطريق ، ونهض يا ساس عند انبثاق الفجر وقال « لا أستطيع الآن أن أعود إلى الحياة التى أراها الآن حياة باطلة زائفة حمقاء مثل قصة يرويها أبله ، وأرجو أن تقبل انضمامى إلى أتباعك ، ودخولى فى مذهبك حتى أستطيع أن أقضى حياتى فى تحصيل المعرفة » .

فأجاب بوذا « إنى أرحب بك فى طائفتنا ، وسنعلمك طريقتنا ، وبذلك تبدأ حياة جديدة » وفى التو واللحظة حضر والده يسأل عنه ، واشترك هو كذلك فى الحديث مع البوذا ، واستماله المذهب الجديد فقال للبوذا « أمر عجيب رائع حقاً مصباح يضىء المكان المظلم ، فهل يقبلنى السيد ضمن أتباعه العلمانيين ؟ » .

فاستجاب البوذا لرغبته ، ونظر الرجل إلى ابنه وقد تجرد من الذهب والفضة وارتدى الحلة الصفراء ، وسأل البوذا أباه قائلاً « أيمكن أن يرتد يا ساس إلى حياة المتعة والشهوة ؟ » فأجابه والده « يا سيدى إن هذا غير ممكن ، وكسب عظيم لياساس أن يصبح حراً » .

وهكذا اجتمع حول بوذا الأغنياء والفقراء ، وكان يقبل الجميع فى مذهبه بغير تفريق ولا تمييز ، ولم يرفض قبول النساء حتى اللواتى عشن منهن عيشة انطلاق واستخفاف .

ويروى الرواة قصة المرأة المومس الحسناء التى جاءته وهى تظن أن جمالها قد يكون شفيعاً لها ، وأنها قد تحول المرشد عن مذهبه ، وتستنزله من عليائه كما حدث لبعض الحكماء فى العصور الخالية ، ولكنها حينما رأته جالساً مضموم اليدين والقدمين ومستغرقاً فى التفكير الهادئ فاضت الدموع من عينيها ، وارتمت على الأرض عند قدميه ، ولصقت وجهها بالتراب ، وسرها ما سمعته من محاضراته ومأثور كلماته ، وتعمقت المذهب البوذى حتى أصبحت من أعرف

الناس به ، وألفت نشيداً فى تمجيد البوذا ما يزال باقياً .

وتكاثرت جموع الناس حوله ، وأوفد ستين رسولاً من تلامذته وأتباعه للتبشير بمذهبه فى النواحى النائية ، واستعد لزيارة والده ، وسار على قدميه يتبعه بعض أتباعه لزيارة والده ، ورؤية داره ومهد نشأته فى مدينة كابيلا فاستى .

وكانت شهرته باعتباره مرشداً عظيماً قد بلغت مسامع والده وأهل بلده ، فاستعدوا لإستقباله ، وأقاموا الأقواس فى الطريق ، وحملوا أكاليل الأزهار والقرابين تكريماً لمواطنهم الذى سيعود إليهم مرشداً عظيماً .

وانتظره والده وحوله الأعيان والوجهاء ليستقبله ، وبينما كان والده ينظر إلى ناحية الطريق المترب رأى ناسكاً شاباً فى حلة صفراء يحمل مزود الصدقات ، وكان يستجدى الطعام من المنازل ، ويتلقى ما يقدم له فى صمت هادئ ، وكان هذا المتسول سيد زارئاً .

فتصارعت فى نفس والده عوامل الخجل والحب والغضب وعصفت بها عصف الريح العاتية بأوراق الأشجار ، وقبض بيده على ثوبه وجذبه إلى صدره وصاح بأعلى صوته قائلاً « يا للعار والشنار ، نجلى يتسول ! لقد نزلت قبيلتنا إلى الحضيض وجللها العار وأورثها الخزى » .

« هذه سنة شعبنا يا أبى » .

فأنكر والده ذلك إنكاراً شديداً وقال له « لم يسأل أحد من أجدادنا الناس الخبز » .

فأجابه البوذا « أيها المهراجا ، أنت وعشيرتك السامية تدعيان الإنحدار من سلالة الملوك ، ولكن أصلى بعيد عن ذلك ، إنى أنتسب إلى المستنيرين فى الأيام الخالية ، وأفعل كما فعلوا ، ولا أستطيع أن أعمل غير ذلك » .

ولما رأى أن والده لا يزال حزيناً قال له « تخلص من قيود الحب الأرضى ، لأن هناك نوعاً أسمى من الحب ، وأرجو أن يتلقى منى والدى غذاء روحياً لم يسبق أن قدمه ولد لوالده » .

ودخل القصر فى صحبة أبيه ، ولقى زوجته ياشوداراً وقد أرتدت الثياب الخشنة الصفراء ، وحلقت شعر رأسها ، وتنازع قلبها فى حضرته الحب والكبرياء ، ونظرت إليه نظرة عطف وإشفاق ، أما هو فقد نظر إليها نظرة لم تستطع تبين مغزاها ، ولم تملك أن جثت أمامه وألقت وجهها على قدميه ، وقبلتهما وهى تبكى بكاء مرا ، ونهضت فى وقار وانتبذت فقد أدركت ما بينهما من مسافات ، وذكر له والده حزنها وصبرها وتعذيبها لنفسها وكيف زهدت فى كل شىء تشبهاً به فى أخذه نفسه بالحياة الصارمة ، وسمع البوذا ذلك كله ، وقال فى تؤدة ونظره متجه إليها « هذا حق ، لقد عهدتها فى الحياة السالفة من أفضل النساء ، وما أزال أذكر ذلك كله فى إرتياح وسرور ، وستذكر هى كذلك هذا فى يوم ما ، فيا أم ولدى إن الطريق الذى فتحته ومهدته لك أن تسلكيه » .

وأخذت بمذهبه هى ووالده ونجله راهولا ، وترك البوذا زوجته وولده ووالده راضين محبورين وعاد إلى شرافستى الواقعة على نهر رابتى ليستأنف جهاده ، ويتمم رسالته فى التغلب على الشر وهزيمة الحزن .

وقد أمتد عطف بوذا على الأحياء حتى شمل الحيوان ، ومن المعروف عنه أنه حينما هم الملك بمبيسارا بتقديم الماعز قرباناً وقف يد الكاهن ودافع عن الماعز ، ومنذ ذلك الوقت أمسك البوذيون عن تقديم الذبائح قرباناً ، وعند بوذا أن حلقة تطور الحياة متصل بعضها بالبعض الآخر ، فليست هناك حياة غريبة عن الحياة فى مظهرها العالى أو مظهرها الوضيع .

وقد قضى البوذا حياته فى الإرشاد متنقلاً من مكان إلى مكان ، وكان فى أثناء سقوط الأمطار يأوى إلى الأديرة ، وكان أينما حل يوصى بصدع قيود الجهل والشهوة ووهم تفرد النفس ، ويقاوم الشك والإعتقاد بالطقوس والشعائر وغلبة الحواس وكراهة الأغيار ، ولكنه كان فى الوقت نفسه لا يرغم إنساناً على قبول تعاليمه ولا يهدد أحداً لأنه لم يعمل بنصائحه وتوجيهاته ، كان يلقى تعاليمه كما ترسل الشمس ضوءها للسائرين دون أن ترغمهم على سلوك طريق معين .

وكان يقاوم الحزن ، ويعلم أتباعه مقاومة الاستسلام للحزن أو قبوله والاستراحة إليه ، لأن الحزن فى رأيه لون من ألوان الجهل ، ولذلك كان ما ينفك يوصى أتباعه بإقتلاع الحزن من قلوبهم ، وقد ظل البوذا محتفظاً بوداعته وهدوء نفسه وركانة حلمه حتى بعد أن تقدمت به السن وأوهنته الشيخوخة ، لقيه مرة شاب فى مقتبل العمر وريعان الشباب وقد بلغ البوذا من الكبر عتيًّا فسأله قائلاً « أيها المرشد ! أيعيش سيدى المبجل عيشة سعيدة ؟» فأجابه بوذا « نعم أيها الشاب ، إنى من عداد السعداء فى الدنيا » .

ولكن الشاب كان مشفقاً على البوذا لما رآه عليه من مظاهر الشيخوخة ، فاسترسل فى الحديث قائلاً له « أيها المرشد ليالى الشتاء قرة ، وقد حان أوان الصقيع ، وثياب الناسك خفيفة ، ورياح الشتاء عاتية حادة قاسية » فابتسم البوذا وأجابه قائلاً « برغم ذلك أيها الشاب إنى من عداد السعداء فى الدنيا » .

وكان حينذاك قد بلغ الثمانين ، وقد تكاثرت المتاعب وأعباء الحياة على الجسد الفانى ، ولكنه إلى اللحظة الأخيرة كان يرسل الضوء الذى يبدد الظلمات ويملأ النفوس بهجة وسلاماً ، وأصابه المرض ، واشتدت به العلة ، ولكنه لم ير من الصواب أن يمضى به الموت دون أن يوجه كلمة إلى تلامذته وأشياعه

ويودعهم ، فقاوم المرض ، وتجلد وتماسك وخطب أتباعه خطبة الوداع قائلاً «لقد تقدمت بى السن ، وعلتنى كبرة . وآذنت رحلتى بالإنتهاء ، وقد شارفت الثمانين ، وضعف الجسم ، ووهن العظم ، فكونوا لأنفسكم مصابيح ، ولا تلتمسوا ملاذاً خارجياً ، واستمسكوا بالحق ، ولا تطلبوا النجاة عند أحد غير أنفسكم . والذين سيصبحون بعد موتى مصابيح لأنفسهم ، ويستمسكون بالحق ، ولا يطلبون النجاة عند غيرهم ، هؤلاء هم الذين يبلغون رفيع الذرى» .

وتابع تنقله وتطوافه ، وقوته تتناقص وصحته تسوء ، ولما وصل إلى فيشالى ومعه حواريوه أمر تلميذه المحبوب أناندا أن يجمع الأتباع من النواحى المجاورة ، فلما التأم شملهم خاطبهم قائلاً «مارسوا الحقائق أيها الرهبان ، تلك الحقائق التى كشفتها لكم ، وأجيلوا فيها الفكر . وأعملوا على إذاعتها حتى تبقى لخير الناس وإسعادهم ، وأعلموا أيها الرهبان أن كل شىء مركب من أجزاء تعتريه الشيخوخة وتتحلل أجزاؤه ، فاعملوا على خلاص أنفسكم فى جد ومثابرة ، والذى يحدثكم سيكون فى خلال ثلاثة أشهر من الموتى ، وسأترككم وأرحل معتمداً على نفسى وحدها ، فجدوا وكونوا طاهرين أتقياء ركينين راجحى الأحلام ، وراقبوا قلوبكم ، والذى يستمسك بالقانون ولا يمسه من ذلك لغوب سيعبر بحر الحياة ، ويطوى عهد الأحزان» .

وغادر مدينة فيشالى مع أناندا تابعه وتلميذه الأثير ، وقصد بنداجاما ، وبعد أن استراح قليلاً خاطب أتباعه بها قائلاً «إن جهلنا بالحقائق هو الذى يجعلنا ننتقل فى هذه الدائرة المتعبة دائرة الميلاد والموت ، ولكن السلوك النبيل والتفكير السامى ، والحكمة العالية ، تنتزع جذور التعلق بالوجود ، وتكسر حلقة الميلاد والموت فلا نعود إلى الأرض مرة أخرى» .

وقصد مدينة كازينارا ، وفى طريقه إلى هذه المدينة أشتدت به العلة ، وبرح به المرض ، ولكنه احتمل آلامه صابراً متجلداً ، وعرف أناندا أن وقت فراق أستاذه قد حان ، فاشتد حزنه ، وابتعد عن البوذا حتى لا يراه باكياً ، ولكن البوذا استدعاه وقال له « لا تبك يا أناندا ، ألم أخبرك أن من طبائع الأشياء أن نفارق أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا ؟ وكيف يمكن أن يظل الشمل مؤتلفاً ولا يطرأ على التجمع التفرق ؟ ولقد صحبتنى طويلاً ، وكنت لى الصديق المعين ، والتابع المخلص الأمين الذى لا يحول عهده ، ولا يتبدل وده ، ولقد أحسنت الصنيع ، فثابر على جهودك ، وستبلغ قريباً رتبة الواصلين » .

ولما دنت الخاتمة قال لأصحابه « قد يظن بعضكم الآن أنكم بعد موتى ستصبحون بغير مرشد ، ولكن الأمر ليس كذلك ، إن قواعد المذهب وتعاليمه وسننه ستكون المرشد لكم حينما أغيب عنكم ، وإذا كنتم فى شك فى أمر من أمور المذهب فاسألونى قبل أن تفتقدونى ، اسألوا فى حرية وطلاقة أيها الرهبان ، وقد يحجم بعضكم عن السؤال والإستفسار إجلالاً للمرشد ، وإذا كان الأمر كذلك فليكن حديثنا حديث الصديق لصديقه » فلزم الجميع الصمت ، وقال أناندا « ليس بيننا من يخالجه شك » .

وإزداد ضعف البوذا ، وعرف أناندا أن الساعة قد دنت فركع ، وعم الصمت وكانت آخر كلمات البوذا « اذكروا أيها الإخوان أن التقلب والتبدل والزوال كامن فى الأشياء المركبة ، فاعملوا على خلاص أنفسكم بجد واهتمام » .

فركعوا جميعهم حوله ، وانتقل البوذا إلى حالة الغيبوبة ، وتنقل فى حالات شتى حتى حالة اللاشيئية ، ووصل إلى توقف الحس والفكر .

وأعلن تلامذته أن مرشدهم قد بلغ أسمى درجات النرفانة ، وهى درجة توقف الحس وامتناع التفكير ، وعزاهم عن فقده أن كل الكائنات محكوم عليها

بأن تفقد فرديتها . وأن هذا القانون لا يستثنى أحداً حتى مرشدهم العظيم ، وكل ما فى الدنيا إلى زوال وفناء ، وكيف يمكن أن يكون غير ذلك ؟

واحتفل أتباعه بحرق جثته ، وختمت بموته حياة رجل كان من أبلغ الناس أثراً فى حياة آسيا الروحية ، وحياة الإنسانية جميعاً ، وقد جمع تلامذته أحاديثه ومحاوراته ومختلف آثاره وأصول مذهبه ومبادئ فلسفته فى ثلاثة أسفار عرفت باسم « السلات الثلاث » وكانت محتويات هذه الأسفار تتناقل بطريق الحفظ والرواية ، ولما خيف عليها من الضياع جمعت فى سنة ٨٠ قبل الميلاد

وفى الوقت الذى ولد فيه البوذا ونشأ كانت الخرافات ذائعة شائعة وغالبة على العقول ، وقد حجبت الأساطير الملفقة والأكاذيب المصنوعة جوهر فلسفة الفيدانتا ، وصارت الشعائر والطقوس كل شىء ، وشغل رجال الدين بمسائل جدلية قليلة الجدوى ، ومناقشات دينية عقيمة ، وملأ الشك الجو ، وعم القلق .

وكانت هذه الأزمة المستحكمة تشير إلى ضرورة قدوم الرجل المخلص العظيم الذى يرد إلى الدنيا التوازن بين الروحيات والماديات ، ويخصص العقل لخدمة الإنسانية ، وحاجة بعض العصور الماسة إلى مثل هذا الرجل لا تلبى فى كل وقت ، وقد كان من حسن حظ الهند أن ظهر مثل هذا الرجل فى إبان الحاجة إليه وقد بلغت الأزمة أشدها .

وكان أول عمل عمله البوذا هو الحملة على الكهانة والطقوس والشعائر الدينية والتقاليد ، فما علاقتها بالحقائق الخالدة ؟ إننا نستطيع أن نلمح المثالى فى كل ما يراه الناس وما يسمعونه وما يصنعونه إذا تتبعنا العلاقة بين السبب والمسبب ، وما حاجتنا إلى ما فوق الطبيعة ؟ فلنعتصم بالتجارب ، وقد جرب البوذا نفسه مقاومة الشك بالممارسة والتجربة ، وكان مصباحاً لنفسه .

وكثيراً ما يقال عن بوذا إنه زعيم المتشائمين ، ولما ظهر الفيلسوف الألمانى الكبير آرثر شوبنهاور وذاعت فلسفته وعرفت نزعته وصفه بعض الباحثين بأنه بوذى عصره ، ومما ساعد على ترويج هذا الرأى أن شوبنها وركان شديد الإعجاب بالديانة البوذية ، وهو يقول فى كتابه المشهور «الدنيا إرادة وتصوراً» «إذا اتخذت نتائج فلسفتى مقياساً للحق فسأكون مضطرًّا إلى التسليم بأن للبوذية المكانة السامية بين الأديان ، ومهما يكن من الأمر فإنه مما يرضينى أن أرى تعاليمى على مثل هذا الوفاق والتجاوب مع ديانة يدين بها أكثر سكان هذه الأرض» ولكن فريقاً من أنصار بوذا يقولون إن بوذا يعلمنا الحزن ويعلمنا كذلك كيف ننتزع جذور الحزن ونظفر بالأمن والطمأنينة ، ولا يستطيع أى مفكر أن ينكر وجود الأحزان والكوارث وخيبة الآمال فى الحياة وقسوة الطبيعة سواء فى عالم الحيوان أو دنيا الإنسان ، وكل فلسفة تشير إلى ذلك وتحاول تفسير لغزه والكشف عن سره ، وبوذا لم يحجم عن وصف العلة ، وبيان الأعراض ، والطبيب الحق لا يتردد فى ذلك لكى يصف الدواء ويوضح طريقة العلاج .

وبوذا غير يائس من الخلاص لمن اتبع مذهبه ، ودان بعقيدته ، وتبدأ فلسفته ببيان ما يسميه الحقائق الأربع النبيلة ، فالحقيقة الأولى تعترف بوجود الشقاء ، والحقيقة الثانية تسلم بوجود سبب هذا الشقاء ، والحقيقة الثالثة تقرر أنه يمكن إزالة هذا السبب ، والحقيقة الرابعة تؤكد لنا أن الطريق إلى تحقيق ذلك ميسور للجميع .

والبوذية تحاول إنقاذنا من حبائل الشر ، ومخالب الحزن والهم ، ومن أجمل نواحيها إشادتها بفضائل التواضع والصبر والإحتمال والعطف والشفقة ورقة الأخلاق وعذوبة النفس وصفاء الطبع والعفة والطهارة وإيثار التضحية ونبذ الأنانية .

على أن الأخلاق الفاضلة الرضية ليست عند البوذيين كافية للوصول إلى النرفانة ، وإنما السبيل المباشر إليها هو الإستغراق فى التأملات وإلتزام الزهد والتقشف ، والحكمة المأثورة تقول « لا كرامة لنبى فى وطنه » فليس من المستغرب أن تهزم البوذية فى الهند موطنها الأصلى لتعيش فى الصين واليابان ، وقد اختلفت الآراء فى تعليل هزيمة البوذية فى الهند وانسحابها منها ، ويقول السير شارلز اليوت « هناك من الأسباب المتوافرة ما يدعو إلى الإعتقاد أن البوذية كانت لا تزال مزدهرة بأقليم بيهار فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وأن عدد قساوستها كان يبلغ الألوف المؤلفة ، وأن تعاليمها كانت موضع الإحترام ، ولكن الضربة القاضية عليها وقعت سنة ١١٩٣ ففى هذه السنة غزا إقليم بيهار القائد محمد بختيار وهو أحد قواد قطب الدين أيبك (أحد ملوك دولة المماليك فى الهند) واستولى على عاصمتها وقتل الرهبان البوذيين جميعهم «وكانت البوذية محصورة فى الأديرة الضخمة ، فلما حطمت هذه الأديرة لم يبق شىء خارجها يستطيع الثبات أمام الإسلام من ناحية والبرهمية من ناحية أخرى» ولكن المستنيرين من الهنود يرفضون الرأى القائل بأن الغزوات التى قام بها الفاتحون فى الهند كانت من أسباب إضعاف البوذية فإن ديانة زارو استر لا تزال فى إيران والديانة الهندوسية لاتزال فى الهند .

وعلل بعض المؤرخين تقلص ظل البوذية فى الهند بما طرأ على آدابها من تدهور وانحطاط لأن الرهبان البوذيين لم يستطيعوا الإرتفاع إلى مستوى المثل الأعلى البوذى ، ومهما تكن الأسباب التى دعت إلى ذلك فإن البوذية وجدت فى الصين مجالاً رحباً .

ويرى المفكر الهندى الأستاذ واديا أن من سوء حظ الهند خروج البوذية منها ، لأن الديانة البوذية بنزعتها الإنسانية تقاوم نزعة التفريق بين الطبقات التى

عاقت نهضة الهند ، وصدعت وحدتها ، وجعلتها هدفاً للغزاة والمستعمرين ، وأضعفت فيها قوة المقاومة .

وهو يرى أن ظروف الهند الراهنة ما تزال فى حاجة إلى رسالة البوذية الموحدة للصفوف الجامعة لشمل مختلف الطبقات ؛ وهو يقول « لقد أشار بوذا إلى الطريق وعلى الهند أن تتبعه » .

جيتى فى أحاديثه مع إكرمان

فى أدب الغرب كتابان جليلان لهما أثر بالغ ومكانة سامية فى نفوس نقاد الأدب ودارسيه ومتذوقيه أحدهما كتاب « حياة جونسن » الذى كتبه « بوزويل » والذى يجمع نقاد الأدب الإنجليزى على أنه أعظم ترجمة لحياة رجل فى الأدب البريطانى قاطبة ، والآخر كتاب « أحاديث جيتى مع إكرمان » وقد قال عنه الفيلسوف الألمانى الأديب النقادة « نيتشه » إنه خير كتاب فى اللغة الألمانية .

وهذان الكتابان كلاهما من ثمرات الإعجاب الصادق ، والولاء العميق . والإخلاص المحض ، وقد كان بوزويل – على مارمى به من الحمق والطيش وسوء الخلق – من أشد الناس إعجاباً بالكاتب النقادة « جونسن » ، وأحرصهم على تتبع أخباره ، واقتفاء آثاره ، وجمع أحاديثه ورسائله ، وأرواهم لشوارد خطراته ولوامع لمحاته ، وأقواهم إحساساً بقوة أجوبته المفحمة ، وردوده الحاسمة .

وكان إكرمان كذلك فى طليعة المعجبين بشخصية جيتى وعبقريته ، وأدبه وحكمته ، وقد وجد جونسن فى شخص بوزويل المترجم المثالى لحياته ، لأنه يكتب عنه فى حب وعطف وتقدير وإعجاب ، ويصور حياته فى مختلف ظلالها ومتباين حالاتها ، كما أصاب جيتى فى إكرمان خير من يروى عنه أحاديثه ومتناثر آرائه وأحكامه فى دقة وأمانة وإخلاص ووفاء .

وقد رفع تحرى الصدق وفائض العطف وبراعة الفن هذين الكتابين إلى أسمى مستويات التأليف الأدبى ، ومن حسن حظ جيتى وتوفيق جونسن أن أتيح

لكل منهما من يترجم لحياته ، وينقل أحاديثه فى حسن تبصر ، وجودة أختيار ، والكثيرون من كبار كتاب الغرب وعظماء المفكرين لم يظفروا بمن يحسن الكتابة عنهم . ويجيد نقل أحاديثهم ، ومن دواعى هذا الحظ الحسن الذى كان من نصيب جونسن وجيتى أن كلا من بوزويل وإكرمان أطال صحبة صاحبة الذى أعجب به وأكبر شأنه حتى نشأت بينهما ألفة وصداقة ومعرفة صميمة .

وفى الحالتين نرى الرجل العظيم محتفظاً بتفوقه وتساميه ، ونرى صاحبه المفتون به أو تلميذه المتواضع معجباً به ، متفانياً فيه ، لا يخالجه أدنى شك فى امتيازه وتفوقه ، ولا يصرفه صارف من الإهتمامات الدنيوية عن موالاة هذا الإعجاب والبقاء على العهد .

ويلحظ قراء كتاب بوزويل ولعه بكشف عيوب نفسه وإظهار نواحى ضعفه ولذلك لم ير بأساً فى أن يسجل بعض ما كان يوجهه إليه صاحبه من قوارص الكلم ولواذع التأنيب ، وكأنه أراد بذلك أن يذكر لنا أن أستاذه العظيم كان فى بعض المواقف لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه ، أو يلطف من حدة لسانه .

وقد ظن بعض النقاد أن نجاح بوزويل فى ترجمته لحياة جونسن هذا النجاح المنقطع النظير فلتة من فلتات الحظ ، ولكن [1] النقد الحديث قدر مواهب بوزويل ، ونوه ببراعة الطريقة التى اتبعها فى كتابة الترجمة ، وأشاد بتجويده الفنى فى رسم تلك الصورة الحية القوية لصاحبه من رسائله وأحاديثه ، ومواقفه وأفعاله ، وأكد بوجه خاص قدرة بوزويل الفائقة على اختيار الحوادث الدالة والأخبار الموحية فى حياة جونسن ، والكلمات المعبرة التى تكشف عن

---

(١) راجع ما كتبه فى هذا الصدد هارولد نيكلسون فى كتابه عن تطور كتابة التراجم فى الأدب الإنجليزى من صفحة ٦٤ إلى صفحة ١٠٨ .

خصائصه الفكرية ، ونزعاته الأخلاقية .

أما إكرمان فقد حفظ لنا طائفة كبيرة من آراء جيتى فى الأدب والحياة والتاريخ والدين والسياسة والإجتماع والفلسفة والعلم والفن ، وتقديره للكثيرين من معاصريه فى ألمانيا وسائر الدول الأوربية من كبار المؤلفين ونوابغ الكتاب والشعراء والعلماء وغيرهم ممن تقدم بهم الزمن فى مختلف الأمم والأقطار .

ويرى بعض النقاد الذين يؤبه بهم ويعنى بآرائهم مثل الناقد الألمعى « ماثيو أرنولد » ومثل المفكر البحاثة « هافلوك إليس » أن كتاب أحاديث جيتى مع إكرمان أدل على أدب جيتى وثقافته وعميق نظراته وسامى حكمته من سائر مؤلفاته ، والجميل فى الأمر أن هذين الأثرين الأدبيين الخالدين كما قدمت من ثمرات الحب والإعجاب ، ونتائج الوفاء والولاء والإخلاص .

* * *

وإكرمان الذى سأنقل عنه بعض الأحاديث التى رواها عن جيتى رجل عصامى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، ويستحق أن يعرف القراء شيئاً عن تاريخ حياته ، وأخبار كفاحه النبيل ، وما بذل من جهد وأتى من أعمال .

ولد فى ألمانيا بإحدى البلاد الصغيرة القريبة من مدينة همبرج لأسرة رقيقة الحال سنة ١٧٩٢ ، وتحمل المشاق ليحصل على نصيب محدود من التعليم ، وأصبح بعد ذلك معلم نفسه ، وكان يقيم أوده ويستعين على تكاليف الحياة بالإشتغال فى وظائف صغيرة الشأن لا تدر عليه سوى القليل من المال الذى لا يكاد يفى بحاجاته المتواضعة القليلة .

وأفضى به التطواف فى طلب الرزق إلى مدينة هانوفر ، وكانت حينذاك مركزاً لحركة أدبية ناشطة ، ونهضة علمية واعية ، وقد أتاح له ذلك الفرصة لإنماء معلوماته وتوسيع ثقافته ، وصقل مواهبه الفنية .

وكان قد تطوع قبيل ذلك فى جيش التحرير الذى حارب نابليون ، وزار مدينة بروكسل وشاهد بها آثار المصور روبنز الفنية ، وأعجب بها غاية الإعجاب وملك عليه الإعجاب نواحى نفسه ، وزين له أن يعالج التصوير ، ولكن حبه للشعر والنقد كان أغلب وأشد تأصلاً فى نفسه ، فقد أظهر فيهما تفوقاً وامتيازاً ولكن ملكاته الأدبية بوجه عام لم تكن تؤهله لتسنم القمة العالية ، وبلوغ الشهرة الواسعة .

وبرغم الظروف المادية التى قاساها فى تلك الأيام كان لا يفتأ يردد قوله «إنى أجاهد من أجل الثقافة لا فى سبيل الحصول على الخبز ، وكل ميسر لما خلق له ، والفن هو غذائى» وقد ظل طوال حياته محتفظاً بحماسته للأدب والفن ، وبرغم ما لقى من شدائد الفقر والمرض وإهمال مواطنيه لأمره وغضهم من شأنه فإنه لم يحد عن خطته ، ولم يغير مثله الأعلى .

وقد قرأ مؤلفات «شلر» وأعجب به ، وتحمس له فى بادئ الأمر ولكن بعد أن اطلع على مؤلفات جيتى مال إليه ، وانجذب نحوه ، وقوى إعجابه به حتى أصبح إعجاباً عاصفاً غلاباً يكتسح فى طريقه كل شىء ، ويستغرق نفسه كل الإستغراق .

وقد كتب فى هذه الفترة يقول «لاأقرأ شيئاً ، ولا أفكر فى شىء سوى جيتى ، وأينما ذهبت وحيثما أقمت أو انتقلت أو اشتغلت بشؤونى اليومية فهو دائماً حاضر فى فكرتى ، وحتى فى المنام يطرق أحلامى» وكان من الأيام المأثورة فى حياته يوم حصوله على صورة لجيتى معبوده بعد عناء طويل ، وجهد كبير !

وفى سنة ١٨٢٣ وهو فى السنة الأولى بعد الثلاثين من عمره وصل إلى ويمار وحظى بالمثول بين يدى جيتى ، وكان جيتى حينذاك فى الرابعة بعد السبعين من عمره ، والظاهر أن إكرمان جاء فى الوقت المناسب ، فما إن رآه جيتى حتى

حسن موقعه عنده ، فأحسن لقاءه ، وقربه واصطفاه ، وقد أدرك جيتى من فوره ببديهته الواعية ، وبصيرته النافذة الصفات البارعة الكامنة فى هذا الشاب الهادئ الوديع المتماسك الرزين .

وأصبح إكرمان من ألزم الناس له ، وألصقهم به ، وأرواهم عنه ، وبعد أيام من اللقاء أشار عليه جيتى بالبقاء فى ويمار ، فسكن إكرمان إلى مشورته واستمع لنصيحته ، وبقى إلى جانبه ينعم بصحبته ، ويأنس بوضاءة تفكيره وثقوب عقله ، وعميق حكمته ، وطويل تجربته ، وجيد خبرته ، حتى لفظ جيتى آخر أنفاسه وانتقل إلى العالم الآخر سنة ١٨٣٢ .

* * *

وقد اتسعت شهرة جيتى فى السنوات الأخيرة من حياته ، وطبق ذكره الآفاق ، وكان الزائرون من مختلف الأقطار يفدون إلى ويمار لمشاهدة حكيمها المشهور وشاعرها العظيم ، وتقديم آيات الولاء والإعجاب بأدبه وشخصيته ، ولكن لم يستطع أحد من الشعراء البارزين والمؤرخين الأعلام ، وسائر العلماء والمفكرين والفلاسفة الذين زاروا ويمار وحظوا برؤية الشاعر الحكيم ، وسمعوا صوته وأصغوا لحديثه ، أن يقدم للأجيال التالية صورة دقيقة صادقة معبرة ناطقة كالصورة التى قدمها لنا هذا الرجل المتواضع البسيط ، المرهف الحس ، الرضى النفس ، الذى ظهر من غمار الشعب ، وقهر الظروف غير المسعفة بقوة إرادته وصدق إخلاصه ، ونادر وفائه .

والجميل فى الصورة التى قدمها لنا أنه لم يسئ فيها إلى الحق مع مراعاته لشرائط الفن ، والكثيرون من الذين يريدون أن يعرفوا جيتى أو فى معرفة لا يكتفون بالرجوع إلى « فاوست » و « ولیم مايستر » وغيرهما من روائعه ، وإنما يلتمسون معرفته فى الأحاديث التى جمعها إكرمان بحسن اختياره ، وقدرته

الفنية التى تساقطت دونها قدرات غيره من الكتاب والدارسين ، وأهلته لأن يذكر اسمه مع اسم جيتى على مدى الدهور.

وقد مات إكرمان فى ديسمبر سنة ١٨٥٤ مهملاً منسياً مخذولاً من مواطنيه ومن الظروف التى اكتنفته ، ولكن اعتباره رد إليه بعد ذلك ، وتولى أحد الأساتذة كتابة تاريخ حياته ، ونقلت الأحاديث التى جمعها إلى أكثر اللغات الحية ، واستفاضت شهرته . ولن يستطع النسيان بعد ذلك أن يتغلب عليه ويعصف بذكراه .

وكان إكرمان يطلع جيتى على الأحاديث بعد كتابتها ، والراجح أنها أعدت تحت إشرافه ، ولو أنه لم يسمح بتقديمها للطبع فى حياته .

وكانت الأحاديث تتناول فى بعض الأحايين مسائل عادية مألوفة ، وفى أحيان أخرى تدور حول مشكلات فكرية دقيقة ، وقضايا أدبية وفنية هامة ، وكان جيتى فى الكثير من تلك الأحاديث يرسل نفسه على سجيتها ، ويفتح مغاليق قلبه ، ويترك تحفظه المعتاد .

ويصف لنا إكرمان علاقته بجيتى فى خلال تلك الأحاديث فيقول «كانت علاقتى به علاقة خاصة ، علاقة جد صميمة ، كانت علاقة التلميذ بأستاذه ، والابن بأبيه ، والفقير الثقافة بالغنى الثقافة ، وقد اجتذبنى إلى حلقة أصدقائه وجعلنى أشارك فى المتع العقلية والجسدية لحياة أسمى مستوى وأعلى ، وفى بعض الأوقات كنت لا أراه سوى مرة فى الأسبوع حينما كنت أزوره فى المساء ، وفى أوقات أخرى كنت أراه كل يوم وأحظى بتناول طعام الغداء معه منفردين أو مع جماعة من عارفيه ، وكما كان يتحرى الإيجاز والدقة فى كتاباته فكذلك كان فى أحاديثه ، وفى لحظات سعيدة كان يفقد سيطرته على نفسه وتنطلق منه الكلمات كالماء المندفع من الشلال ، وكان يصدق عنه ما قاله مارمونتل عن ديدرو وهو

«أن الذى يعرفه من كتاباته يعرفه نصف معرفة ، وأنه كان حينما تشتعل حماسته فى الحديث يصبح لا نظير له ، ولا يستطيع سامعوه مقاومة تأثيره» وأتركه يصف لنا لقاءه الأول لجيتى يوم ١٠ يونيو سنة ١٨٢٣ فى ويمار.

«وصلت هنا منذ أيام قلائل ، ولكنى لم أرجيتى إلا اليوم ، وقد تلقانى بالبشر والإيناس ، وجعلنى أشعر بأن هذا اليوم من أسعد أيام حياتى ، وحينما مررت بالأمس لأسأل عنه حدد لى اليوم الساعة الثانية عشرة ، وقد ذهبت إليه فى تلك الساعة ، ووجدت خادماً ينتظرنى ليوصلنى إليه ، وقد ترك فى نفس مدخل المنزل أثراً ساراً ، فكل شئ عليه طابع البساطة المتناهية والنبل ، وحتى السبائك المأخوذة من التماثيل القديمة الموضوعة على السلالم كانت تدل على تعلق جيتى بالفنون التشكيلية وحبه لليونان القديمة ، ورأيت سيدات كثيرات منهمكات فى العمل بالجزء الأسفل من المنزل ، وأحد ولدى أوتيليا (زوجة ابن جيتى) الجميلين ، وقد اقترب منى وحدق إلى فى ألفة ، وبعد أن ألقيت نظرة على ما حولى أرتقيت السلالم ومعى خادم ثرثار إلى الطابق الأول ، وفتح لى باب حجرة كتب على مدخلها «مرحباً» وكان ذلك فألا حسناً للقاءالودى ، وقادنى من هذه الحجرة وفتح باب حجرة أخرى أرحب منها وطلب إلى الانتظار ، وكان الهواء بها بارداً منعشاً ، وقد فرشت على أرضيتها سجادة ، وكان بالحجرة أريكة قرمزية ومقاعد تجعل منظرها مما يشرح الصدر ، وفى أحد الأركان وضع بيان ، وكانت الحوائط محلاة بصورة كثيرة ورسومات ، وفى الناحية المقابلة كان يوجد باب مفتوح يوصل إلى حجرة أخرى مزدانة كذلك بالصور ، وقد دخل الخادم من هذا الباب ليعلن قدومى.

وبعد قليل حضر جيتى وهو يرتدى قباء أزرق اللون وينتعل حذاء ، وكان وقور الطلعة مهيب المنظر ، وسرعان ما أزال عنى ما غشينى من الاضطراب

بكلماته التى تقطر عطفاً ، وجلسنا معاً على الأريكة ، وأخذتنى حيرة مستعذبة عقدت لسانى وملكت على بيانى فلم أستطع أن أقول شيئاً يذكر.

وبدأ الحديث عن المخطوط الذى أرسلته إليه ، قائلا «لقد جئت توا من عندك ، وقد قضيت فترة الصباح جميعها فى قراءة مخطوطك ، وهو ليس بحاجة إلى المدح ، إنه يثنى على نفسه بنفسه» ، وامتدح وضوح الأسلوب ، وتدفق الفكرة ونوه بخاصة قيامها على أساس متين قد أجيد درسه ، وحسن تقديره ، وقال «وسأرسله قريبا جداً وسأكتب إلى كوتا اليوم بالبريد وأرسل إليه الطرد غدا» .

وتحدثنا عن الرحلة التى كنت أنتوى القيام بها ، وقلت له إن خطتى الذهاب إلى منطقة الراين حيث أعتزم الإقامة فى مكان مناسب وكتابة شىء جديد ، ومهما يكن من الأمر فإنى سأذهب أولا إلى ينا وأنتظر رد الهرفون كوتا» .

وسألنى جيتى «أتعرف أحداً فى ينا ؟» فأجبته إنى آمل أن أتصل بالهرفون كنبل فوعدنى بكتاب يضمن لى لقاء حسناً ، وقال «حينما تكون فى ينا سنكون جارين متقاربين ونستطيع أن نتراسل أو يرى أحدنا الآخر كما نريد» .

وجلسنا طويلا معاً فى هدوء يفيض عطفاً ، ونسيت أن أتحدث لأنى عقدت به ناظرى ، ولم تشبع عيناى من النظر إليه ، ووجهه قوى أسمر ، قد امتلأ بالتجاعيد والغضون ، وكل تجعيدة حافلة بالتعبير ! وكان يتحدث فى تؤدة واتزان كما كان ينتظر من ملك قد تقدمت به السن ، واطمأن إلى مكانته ، وارتفع فوق مستوى المدح والذم ، وشعرت بتلك الراحة التى يستشعرها الذى تتحقق أمنيته بعد الجهود الشاقة والانتظار الطويل .

وتحدث بعد ذلك عن كتابى إليه ، وأبدى ملاحظة مضمونها أن الذى يستطيع أن يتناول موضوعاً بوضوح يصلح لأشياء كثيرة غيره ، ثم ذكر لى

ما على أن أراه فى ويمار ، وقال إنه يريد أن يكون السكرتير كرونر مرشدى ودليلى ، وأن على أن أرى قبل كل شىء المسرح ، وسألنى عن محل إقامتى قائلا إنه يريد أن يرانى مرة أخرى ، وإنه سيرسل لى فى الوقت المناسب ، وودع كل منا الآخر وداعاً حاراً ، وشعرت بأنه أحبنى» .

وفى اليوم التالى أرسل إليه جيتى بطاقة مكتوبة بخطه يطلب فيها حضوره ، ولما لبى الدعوة عهد إليه جيتى فى مراجعة بعض فصول فى النقد كتبها فى ميعة الشباب وسأله أن يبدى رأيه صلاحيتها للنشر بعد الاطلاع عليها وإجالة الفكر فيها ، وقال له إنه قد بعد عهده بها حتى أصبح لا يستطيع تقديرها والحكم عليها ، وإن إكرمان بوصفه شاباً وعارفا باتجاهات الشبان يستطيع أن يقدر مجاراتها لروح العصر أو مخالفتها لها . ، وذكر له أنه مزمع الذهاب إلى مارينباد ، وأنه يسره بقاؤه فى ويمار إلى حين عودته ، ولما عاد جيتى من مارينباد فى شهر سبتمبر أشار على إكرمان بالبقاء فى ويمار وقضاء الشتاء بها ، وأجابه إكرمان بأنه سينزل على رغبته ويبقى إلى جانبه ، وأخذت تتوالى زياراته لجيتى واجتماعه به ، وتطرد الأحاديث والمحاورات .

ففى مساء يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٨٢٣ مثلا دعا جيتى جماعة من أصدقائه إلى حفلة شاى فى منزله ، وحضر الحفلة إكرمان ، وجرى الحديث بين الزائرين ومضيفهم طلقاً عذباً ، وكانت السيدة فون جيتى زوجة نجله حاضرة ، وقد أخبره إكرمان من قبل عن حبه للمسرح ، وشدة حرصه على حضور حفلات التمثيل ، فأقبل عليه جيتى ومعه زوجة نجله ، وقال له «السيدة زوجة نجلى ، فهل يعرف كل منكما الآخر؟» .

فأجابه إكرمان «لقد تم تعارفنا منذ هنيهة» .

فقال جيتى لأوتيلى زوجة نجله «إنه مثلك مغرم بالمسرح» والتفت إليه وقال

« إن ابنتى لا يفوتها حضور المسرح كل مساء » .

فقال إكرمان « هذا حسن ما دامت المسرحية التى تقدم جيدة ، أما إذا كانت رديئة فإن ذلك يمتحن صبرنا » .

فأجابه جيتى « ولكن الشىء الحسن أنك لاتستطيع مبارحة المسرح ، وعليك أن تسمع وترى ما هو ردىء ، وبهذه الوسيلة تنفذ إلى داخل نفسك كراهة الردىء ، وتصير أعرف بمواطن الإجادة فى الشىء الجيد ، وهذا لا يحدث فى القراءة فإنك تلقى بالكتاب بعيداً إذا كان لا يعجبك ، ولكن فى المسرح عليك أن تصبر » .

وفى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٢٣ دون فى يومياته ما يأتى ، وقد رأيت نقله لغرابته ودلالته : —

« منذ بضعة أيام مضت كنت أسير عصراً قاصداً إرفرت وقد صفا الجو ، وطاب الهواء ، وكان يسير فى الطريق نفسه رجل قد تقدمت به السن ، وظننت من مظهره أنه من المواطنين الأثرياء ، وبعد أن سرنا قليلا لم ألبث أن سألته « أتعرف جيتى ؟ » فأجاب فى سرور « أعرف جيتى ؟ لقد كنت خادمه الخصوصى قرابة عشرين عاماً » وأفاض فى الثناء على سيده السابق ، فطلبت إليه أن يسمعنى بعض أخبار جيتى فى شبابه ، فوافق على إجابة طلبى فى ارتياح وقال « أول ما عشت معه ربما كانت سنة لا تتجاوز السابعة بعد العشرين ، وقد كان نحيفاً خفيف الحركة أنيقاً رشيقاً ، وكان فى وسعى أن أحمله فى سهولة بين ذراعى » فسألته هل كان جيتى فى هذا الجزء الباكر من حياته عظيم المرح موفور السرور ؟ فأجابنى « بالتأكيد كان دائماً مسروراً محبوراً مع المسرورين المحبورين ، ولكنه لم يكن يشاركهم فى ذلك حينما يتجاوزون حداً معيناً ، ففى هذه الحالة كان يصير جاداً ، وكان دائم العمل والبحث ، وعقله دائم الاشتغال بالفن

والعلم ، وهكذا كانت حياة سيدى وكان الدوق (دوق ويمار) يزوره عادة فى المساء ، ويتبادلان الحديث فى الموضوعات العلمية حتى ساعة متأخرة ، ولذلك كان يستولى على التعب وأعجب متى ينصرف الدوق ، وحتى فى ذلك الوقت كان معنياً بالعلوم الطبيعية ، وقد دق الجرس مرة فى منتصف الليل ، ولما دخلت حجرته وجدته قد نقل فراشه الحديدى إلى جانب النافذة ، وكان مستلقياً به وهو يجيل طرفه فى السماء ، وسألنى أرأيت شيئاً فى السماء ؟ ولما أجبته إننى لم أر شيئاً أمرنى أن أذهب إلى منزل الحراسة وأسأل القائم بالحراسة هل رأى شيئاً ، فذهبت إليه ، وقال لى الحارس إنه لم ير شيئاً ، وعدت إلى سيدى أحمل هذا الرد ، وكان لا يزال فى مكانه مستلقياً فى فراشه ، مرسلا نظره إلى السماء ، فقال لى « استمع ، إنها لحظة هامة ، فالآن تزلزل الأرض زلزالها ، أو إن الزلزال سيحدث قريباً » ثم جعلنى أجلس على الفراش إلى جانبه ، وأرانى العلامات التى عرف بها ذلك » .

فسألت الرجل الطيب « وكيف كانت حالة الجو ؟ » .

فأجاب « كان الجو ممتلئا بالسحب حاراً هادئاً » .

وسألته « هل صدقت أن هناك زلزالا تبعاً لكلام جيتى ؟ » .

فأجاب « نعم ، صدقت ذلك لأن الأشياء كانت تحدث كما كان يسبق به قوله عن حدوثها ، وفى اليوم التالى روى ملاحظاته لرجال البلاط ، فهمست إحدى السيدات لجارها قائلة « إن جيتى يحلم » ولكن الدوق والحاضرين جميعهم صدقوا جيتى ، وتأكدت ملحوظاته ، لأنه بعد أسابيع قلائل جاءت الأخبار بأن جزءاً من مدينة مسينا خربه الزلزال فى تلك الليلة » .

وفى لقائه لجيتى مساء يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٢٣ يروى لنا إكرمان ضمن إحدى مروياته ما يأتى : —

«فى الساعة الثامنة مساء انصرف المستشار «رهبين» وهممت بالانصراف ولكن جيتى أشار على بأن أبقى قليلا ، فجلست ، ودار الحديث عن المسرح وعن تمثيل مسرحية «ولنستاين» فى الغد ، وهيأ ذلك الفرصة للتحدث عن «شلر» فقلت «عندى شعور خاص نحو شلر ، وقد قرأت بعض مشاهد دراماته العظيمة بحب خالص وإعجاب ، ولكن سرعان ما كان يصادفنى شيء يخالف صدق الطبيعة فأتوقف ولا أستطيع المضى ، وإنى أشعر بذلك حتى فى أثناء قراءتى لمسرحية ولنستاين ، ولا يسعنى إلا الظن بأن اتجاه شلر إلى الفلسفة أضر بشعره ، لأنه جعله ينزل الفكرة منزلة أعلى من منزلة الطبيعة ، وهو فى الحقيقة يقضى بذلك على الطبيعة ، فما يتصوره لابد أن يحدث سواء كان متفقاً مع سننها أو كان مخالفاً لها» .

فأجاب جيتى قائلا «كان من المحزن أن نرى رجلا سامى المواهب مثل «شلر» يضنى نفسه بالبحوث الفلسفية التى لا تفيده بأى حال من الأحوال ، وقد أطلعنى «همبولدت» على رسائل بعث بها إليه شلر فى الأيام غير المباركة التى شغل نفسه فيها بهذه الأفكار . وفى هذه الرسائل نرى كيف كلفت نفسه عناء رغبته فى فصل الشعر العاطفى عن الشعر البسيط الساذج ، ولما لم يجد الثرى المناسب للشعر العاطفى سبب له ذلك حيرة ما بعدها حيرة» .

واسترسل جيتى يقول باسماً «كأن الشعر العاطفى يمكن أن يكون له وجود قائم بذاته على غير أساس البساطة والسذاجة اللتين تنبعث منهما جذوره» واستمر يقول «لم تكن خطة شلر أن يجرى على سجيته فى أعماله الأدبية ، وكان يضطر إلى إجاله الفكر فى كل ما يعمل ، ومن ثم كان لا يفتأ يتحدث عن مشروعاته الشعرية ، وهكذا بحث معى مسرحياته الأخيرة مشهداً بعد مشهد ، ومن ناحية أخرى كان مما ينافر طبيعتى التحدث عن خططى الشعرية مع أى إنسان حتى مع

شلر نفسه ، وكنت أحمل كل شىء داخل نفسى فى صمت ، وفى العادة لم يعرف أحد أى شىء عنه حتى ظهوره مكتملا ، ولما أطلعت شلر على قصة « هرمن ودورثيه » بعد أن تمت عجب لذلك ، لأنى لم أذكر له حرفا واحداً منها فى أثناء تأليفها ، وإنى أترقب ما ستقوله غداً عن مسرحية « ولنستاين » وسترى صوراً نبيلة ، وستترك المسرحية فى نفسك أثراً لا تحلم به » .

* * *

وفى يوم ٢ من شهر يناير سنة ١٨٢٤ تناول إكرمان طعام الغداء مع جيتى ، وجرى الحديث سلساً شائقاً ، وورد خلاله ذكر حسناء غضة السن فى مجتمع ويمار ، وذكر أحد الحاضرين أنه كاد يهيم بحبها ، ولو أنه إذا تحرى الدقة لا يستطيع أن يقول إنها لامعة الذكاء ، فضحك ، جيتى وقال « كأن الحب له علاقة بالذكاء ! إن الأشياء التى نحبها فى الحسناء الشابة تختلف الاختلاف كله عن الذكاء ، إننا نحب فيها الجمال والشباب وأن تكون لعوباً شكلة عطوفاً ونحب فيها أخلاقها وشمائلها وأخطاءها ونزواتها ، وفضلا عن ذلك ما لا يعلم إلا الله من أمرها ، ولكننا لانحبها من أجل ذكائها ، ونحن نحترم ذكاءها إذا كان لامعاً ، والذكاء يعلى قيمتها فى أعيننا ، وهو يجدى فى تثبيت عواطفنا حينما يكون الحب قد تمكن منا ، ولكن الذكاء ليس هو الذى يشعل قلوبنا ويثير أهواءنا » .

ودار الحديث بعد تناول الغداء عن الأدب الإنجليزى وعظمة شكسبير ، والموقف غير الملائم لمؤلفى الدراما الإنجليز الذين ظهروا بعد هذا العملاق الشاعر .

وقال جيتى « إن أى موهبة درامية لها نصيب من الأهمية لا تستطيع أن تغفل مؤلفات شكسبير ، بل لا تستطيع أن تغفل دراستها ، وصاحب هذه الموهبة

لابد أن يدرك بعد هذه الدراسة أن شكسبير قد استوعب الطبيعة البشرية بجميع اتجاهاتها من الأعالى والأعماق ، وأنه لم يغادر شيئاً ليقوم به القادم بعده ، وكيف يتشجع القلم ويجرى على الطرس وهو يدرك ويقدر كل التقدير أن مثل تلك المؤلفات البارعة التى لا يسبر عمقها ولا يدرك مداها قد وجدت !

« ومنذ خمسين سنة كنت أحسن حظاً فى ألمانيا العزيزة ، فقد استطعت أن أفرغ فى سرعة من كل ما كان موجوداً ، ولم يعد يخيفنى أو يشغل التفاتى ، وسرعان ما تركت الأدب الألمانى خلفى ، وتحولت إلى الحياة والإنتاج ، وسرت فى نموى الطبيعى ، ولم يكن معيارى فى كل خطوة من الخطوات أسمى مما كنت أستطيع بلوغه عند تلك الخطوة ، ولكنى لو كنت قد ولدت إنجليزيا ، وكانت كل هذه الطرائف الفنية المتعددة فى قوتها أمامى حين إسفار فجر وعيى وأنا شاب لعرتنى الحيرة ، ولم أعرف ما أستطيع أن أصنع ولغلبتنى على أمرى » .

وعاد إكرمان إلى الحديث عن شكسبير قائلا « حينما نستخلص شكسبير من الأدب الإنجليزى ونعتبره قد نقل إلى الأدب الألمانى تبدو لنا عظمته كأنها معجزة ، ولكن الاقتراب منه يبدو ممكنا إذا درسناه فى ثرى بلاده ، وجو القرن الذى عاش فيه ، وبين معاصريه وخلفائه المباشرين : بن جونسن وماسنجر ومارلو وبومنت وفلتشر ، والكثير يمكن أن نرده إلى جو عصره القوى الإنتاج » .

فعاد جيتى إلى الحديث قائلا « إنك على حق ، إن حالة شكسبير تشبه جبال سويسرة ، وأنت لونقلت « مونت بلانك » إلى سهل « لونبرج هيت » الواسع لما وجدنا ألفاظا نعبر بها عن دهشتنا من ضخامته ، ولكن التمسه فى دياره الهائلة واذهب إليه من فوق جيرانه الشوامخ يونجفراو وفنسترارهورن وإيجر وترهورن وسنت جوتارد ومونت روزا فإنه فى هذه الحالة سيظل مونت بلانك ضخما عملاقا ولكنه لا يحدث فى نفوسنا مثل هذه الدهشة » .

وتطرق الحديث إلى ذكر رواية «أحزان ورتر» فقال جيتى «إن هذه القصة مؤلف غذيته بدم قلبى ، وقد ضمنتها الكثير مما اختلج فى صدرى ، وجال فى أعماق نفسى إلى حد أنه يمكن أن يبسط ما بها فى رواية تبلغ عشرة أضعاف حجمها ، وفضلا عن ذلك فإنى لم أقرأها منذ ظهورها سوى مرة واحدة ، وقد تحريت ألا أعود إلى قراءتها ، لأنها كتلة من الأسهم النارية ، والنظر إليها يثير ثائرى ، وإنى أخشى أن تعاودنى الحالة العقلية الخاصة التى كانت باعث كتابتها» .

وسأله إكرمان «هل يعزى التأثير العظيم الذى أحدثته رواية «ورتر» إلى الوقت الذى ظهرت فيه ؟» واسترسل يقول «إنى لا أستطيع قبول هذا الرأى برغم كثرة شيوعه ، لقد أحدثت رواية ورتر تأثيراً عظيماً لأنها ظهرت ، لا لأنها ظهرت فى وقت معين ، وفى كل عصر من العصور الكثير من الحزن الذى لم يجد معبراً عنه ، والكثير من النقمة الخفية على الحياة والتبرم بها ، وبين الأفراد المنفردين والدنيا الكثير من أسباب الخلاف والشقاق ، وهناك صراع بين طبائعهم والشرائع المدنية إلى حد أن رواية ورتر تحدث التأثير العظيم نفسه لو كانت قد ظهرت اليوم لأول مرة» .

فأجابه جيتى قائلا «لقد أصبت الصواب ، ومن أجل هذا لا يزال الكتاب يؤثر فى قرائه من الشبان فى سن معلومة تأثيره السابق ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى أن أستنتج أن الانقباض الذى استولى على فى الشباب سببه التأثير العام للعصر وقراءتى لبعض المؤلفين الإنجليز ، وإنما كان سببه ظروفاً خاصة مباشرة بلغت من نفسى مبلغاً ، وعركتنى عركاً شديداً حتى أسلمتنى إلى الحالة العقلية التى أنتجت ورتر ، وقد عشت وأحببت وشقيت كثيراً ، وهذا كل ما فى الأمر . وحينما نمعن النظر فى وقت كتابة ورتر الذى كثر عنه الحديث سيتضح لنا

أنه لا يتصل بسير الثقافة العامة ، وإنما يرتبط بسير حياة كل فرد له غريزة حرة كامنة يجد نفسه مضطراً إلى الملاءمة بين نفسه وبين الحدود الضيقة لعالم عتيق ، والحظ العاثر والنشاط المكبوت والرغبات التى لم تتحقق ليست كوارث عصر معين ، وإنما هى كوارث حياة كل إنسان ، ومن الأمور السيئة حقاً ألا يعرف كل إنسان مرة فى حياته فترة يظهر له فيها أن رواية ورتر كتبت له وحده» .

* * *

وفى يوم ٤ من يناير سنة ١٨٢٤ أدار جيتى الحديث عن نفسه فقال «مهما يكن من الأمر فإن ديدنى الرفق والاعتدال ، ولو أنى عبرت عن كل ما يغضبنى ويؤلم نفسى لأصبحت الصفحات القليلة مجلداً ضخماً ، ولم يرض الناس عنى الرضاء التام ، وكانوا دائماً يريدوننى أن أكون على خلاف ما خلقنى الله ، وقليلا ما كانوا يرضون عن مؤلفاتى ، وحينما كنت أبذل أقصى جهدى لأهدى إلى الدنيا مؤلفاً جديداً كانت لا تزال تطلب من أن أشكرها فضلا عن ذلك لاعتبار هذا المؤلف من الأشياء التى كتب لها البقاء ، وإذا أثنى على إنسان لم يكن يسمح لى بأن أتلقى هذا الثناء على أنه تقدير أستحقه ، وكانوا ينتظرون منى تعبيراً متواضعاً يتضمن أنتقاصى لشخصى والزراية بمؤلفى ، ولكننى كنت أكون منافقاً تعسناً إذا حاولت الكذب والرياء ، ولما كنت من القوة بحيث أظهر نفسى على حقيقتها كما أشعر فقد وصفونى بالكبرياء ، ولا أزالا حتى اليوم أعد متكبراً .

وقد استدرجت المتاعب إلى نفسى فى مسائل الدين والعلم والسياسة . لأنى لم أكن منافقاً ، وكانت عندى الشجاعة لأعبر عما أشعر به .

وقد آمنت بالله وبالطبيعة وبانتصار الخير على الشر ، ولكن هذا لم يكف الاتقياء الصالحين ، وطلب منى أن أصدق بأشياء تناقض شعور نفسى بالحق فضلا عن أنى كنت لا أرى فيها أية فائدة لى .

وحقيقة أننى لا يمكن أن أكون صديقاً للثورة الفرنسية ، لقد كانت فظائعها جد قريبة منى وكانت تهز نفسى كل يوم بل كل ساعة . ولم تكن فوائدها قد ظهرت حينذاك ، ولم يكن فى وسعى أن أقف موقف غير المكترث تلقاء جهود الألمان ليوجدوا هنا بطريقة مصطنعة مثل تلك المشاهد التى كانت فى فرنسا نتيجة لضرورة قاهرة . ولم أكن كذلك من أنصار الحكم المطلق ، ولقد كنت مقتنعاً الاقتناع كله بأن الثورة الواسعة النطاق ليست من خطأ الشعب ، وإنما سببها خطأ الحكومة ، والثورات لا يمكن أن تقوم ما دامت الحكومات تلتزم سبيل العدل ، ولا تأخذها سنة من النوم ، وبذلك تستطيع أن تسبق الثورات بعمل الإصلاحات اللازمة فى الوقت المناسب ، ولا تتلكأ فى القيام به حتى تضطرها الظروف إلى الخضوع تحت ضغط الشعب ، ولأننى كنت أكره الثورة الفرنسية قيل عنى إننى من أنصار النظام القائم ، وهو لقب شديد الغموض أرفضه ، ولما كان إلى جانب الكثير من الصالح النافع الكثير من السيئ الضار الظالم الناقص فإن لقب صديق النظام القائم معناه فى الغالب صديق القديم البالى والردئ الضار .

ويسترسل جيتى فى الحديث فيقول : « وفضلا عن ذلك كله فإنه لاشىء يصلح لأمة من الأمم إلا إذا كان نابعاً من صميمها وحاجاتها العامة دون محاكاة فردية لغيرها من الأمم ، وماقد يصلح غذاء لفريق من الناس فى سن خاصة قد يكون سماً لغيرهم ، وجميع المحاولات لاستجلاب نظم جديدة أجنبية لم تنشأ الحاجة إليها فى صميم الأمة تعد من الحماقة ، وجميع الثورات التى يتم إعدادها على هذا النمط تمنى بالإخفاق لأن الله الذى لا يرضيه مثل هذا الاعتساف لايرضى عنها ، وحينما توجد ضرورة حقيقية تستحث الناس على طلب الإصلاح العظيم يكون الله فى جانب هذا الإصلاح ولذلك يتحقق ، وواضح أن الله كان

مع المسيح وأنصاره الأولين لأن ظهور فكرة الحب الجديدة كان لازما للناس ، ولا خفاء أن الله كان مع لوثر لأن تطهير العقيدة التى أفسدها القساوسة كان من الضرورات » .

وفى الحديث الذى جرى يوم ٢٧ يناير سنة ١٨٢٤ قال جيتى متحدثاً عن نفسه « حينما أتلفت إلى الوراء وأعيد النظر فى حياتى الباكرة وأيام الشباب وانتقل إلى عهد الشيخوخة أفكر فى قلة عدد الباقين من الذين كانوا معى فى نضارة الشباب وتبدو لى الحياة كأنها نزل صيفى فى أحد أمكنة الاستحمام ، فحينما نصل نصادق الذين قضوا هناك بعض الوقت والذين سيبرحون بعد أسابيع قلائل ، ويؤلمك ارتحالهم ، وتتحول إلى الجيل التالى الذى تظل معه حيناً من الدهر وتقوى الصلات بينك وبينه ، ولكن هذا الجيل كذلك يذهب ويتركك وحيداً مع الجيل الثالث الذى يجىء ونحن نهم بالرحيل والذى لا يكون بيننا وبينه أية علاقة » .

ويمضى فى الحديث قائلا « ولقد عددت دائماً من هؤلاء الذين حباهم الحظ واختصهم بعطاياه ، ولست أشكو حياتى ، ولا أبحث فى سيرها عن العثرات ، ولكن من الحق أن أقرر أننى لم ألق سوى النصب والهم ، ويمكننى أن أقول إننى فى خلال الخمسة والسبعين عاماً التى عشتها لم ألق الراحة الخالصة شهراً واحداً ، ولقد كانت كلها دحرجة للحجر الذى كان على أن أعاود رفعه ، ويومياتى التى أكتبها ستكشف عما أقول ، ولقد كانت هناك مقتضيات كثيرة من الخارج والداخل تفرض على بذل الجهد ، ولقد كانت سعادتى الحقة فى تأملاتى الشعرية وإنتاجى ، ولكن وضعى الخارجى كان يعترض ذلك ويحصره ويحد منه ، ولو أنى استطعت أن أعفى نفسى من الأعمال العامة معظم وقتى وأن أعيش فى عزلة أكثر أيامى لكنت أسعد ، ولاستطعت – باعتبارى شاعراً – أن أنجز

أكثر مما أنجزت ، ولكن بعد أن أتممت مسرحية جوتز ورواية ورتر صدق على قول الحكيم « إذا صنعت شيئاً من أجل الدنيا فإنها ستعمل على ألا تمكنك من أن تصنعه مرة ثانية » والشهرة الواسعة والمكانة العالمية من الأشياء المقبولة ولكن برغم مكانتى وشهرتى لا أزال مضطرًّا إلى عدم التصريح برأيى فى الآخرين خشية الإساءة إليهم » .

وفى يوم ٢٥ من فبراير سنة ١٨٢٤ تحدث جيتى عن عصره فقال : « لقد كان من عظيم حظى أن عشت فى وقت حدثت فيه أعظم حوادث هزت العالم ، وقد تتابعت هذه الحوادث خلال حياتى الطويلة : وقد شاهدت حر ا السنوات السبع وانفصال أمريكا عن إنجلترا ، والثورة الفرنسية ، وعصر نابليون جميعه ، وحصلت على نتائج وتجارب للأمور ونظرات نفاذة غير ميسور للذين يولدون فى هذه الأيام أن يحصلوا على مثلها ، وعليهم أن يتعلموا أمثالها من الكتب التى سوف لا يفهمونها ، ولست أدرى ما الذى ستجىء به السنوات القادمة ، ولكننى أخشى أننا سوف لا ننعم بالراحة ، والقناعة ليست من حظ الدنيا ، والعظماء ليسوا ممن لا يسيئون استعمال القوة ، والجماعات لا تقنع بالأحوال المتوسطة المعتدلة معلقة أملها على التحسن التدريجى ، ولو أننا استطعنا أن نكمل الطبيعة الإنسانية لتوقعنا أن تسير الأحوال إلى الكمال ، ولكن مادامت الطبيعة الإنسانية على حالها فسيظل هناك تردد من هنا إلى هناك ، ولابد أن يشقى قوم ويسعد آخرون ، وسيظل الحسد والأثرة يعملان عملها مثل الشياطين الأشرار وسيظل الصراع الحزبى بغير نهاية ، وأهدى الطرق أن يقوم كل إنسان بالوظيفة التى ولد لها وتعلمها ، وأن يتحاشى اعتراض طريق الآخرين والحيلولة بينهم وبين أداء وظيفتهم » .

وضمن روايته لأحاديث جيتى يوم ٢٦ فبراير يقول إكرمان « قال لى جيتى

من عهد قريب إن الشاعر المطبوع يعرف الدنيا بفطرته ، وهو ليس فى حاجة إلى تجارب كثيرة أوملاحظات منوعة ليصورها تصويراً صحيحاً ، لقد كتبت مسرحية جوتزفون بر ليخنجن فى الثانية بعد العشرين ، وبعد مرور عشر سنوات أدهشنى ما بها من صدق التصوير ، ولم أكن قد جربت أو رأيت شيئاً من هذا القبيل ، ولذلك لابد أن أكون قد حصلت على معرفة الأحوال الإنسانية المختلفة سلفاً ، وإنى بوجه عام لا أجد متعة إلا فى تصوير عالمى الداخلى قبل أن أعرف شيئاً عن العالم الخارجى ، ولكن حينما كنت أجد فى الحياة الواقعية أن الدنيا كانت فى الحقيقة كما توهمتها كان ذلك يضايقنى ويجعلنى لا أشعر بسرور فى تصويرها ، وحقيقة أنى أستطيع أن أقول إننى لو كنت انتظرت حتى أعرف الدنيا قبل أن أصورها لكان تصويرى لها عبثاً لا طائل فيه » .

ويقول إكرمان إن جيتى عاد إلى تأكيد ذلك مرة أخرى فقال « فى طبيعة كلِ إنسان ضرورة خاصة تبدو فى تتابع أعماله وتنشأ عنها سمات ثانوية إلى جانب هذه السمة الرئيسية أو تلك ، والملاحظة تجعلنا نعرف ذلك ، ولكن بعض الناس يعرفون ذلك بالفطرة ، ولا أريد أن أبحث هل المعرفة اللدنية والخبرة قد اتحدتا فى نفسى ، ولكننى أعرف أننى إذا تحدثت مع أى إنسان مدة ثلث ساعة فإنى أستطيع أن أدعه يتحدث مدة ساعتين » .

واستدرك إكرمان على جيتى قائلا « إذا كنت سعادتك ترى أن الشاعر يولد وفى نفسه صورة للدنيا فإنك تقصد بطبيعة الحال العالم الباطنى لاعالم المظاهر والتقاليد . وإذا كان الشاعر يصور هذا أيضاً فإن معرفة العالم الواقعى لازمة » .

فأجاب جيتى « بالتأكيد ، إن عالم الحب والكراهية والأمل واليأس أو ما تطلق عليه أى اسم من حالات الروح وميولها كامن فى نفس الشاعر . وهو يوفق فى تصويره ، ولكنه لا يعرف بالفطرة كيف تعقد اجتماعات حاشية الملك

أو كيف تسير مجالس النواب أو كيف تقام حفلات التتويج ، وإذا كان لا يريد أن يسىء إلى الحق فى تناوله لأمثال هذه الموضوعات فإن عليه أن يرجع إلى التجربة والتقاليد المرعية » .

وينهى جيتى حديثه فى هذا الصدد قائلا : « لو لم يكن العالم فى نفسى عن طريق الاستشفاف لظللت أعمى له عينان ينظران ولكانت كل تجاربى وملاحظاتى عملا غير مجد ، فالضوء هناك والألوان من حولنا ، ولكن إذا لم يكن هناك ضوء ولا ألوان فى عيوننا لما أبصرنا العالم الخارجى » .

* * *

وفى يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٢٤ دار الحديث حول مسائل أدبية شتى ، وعرض ذكر الكاتب الألمانى لدفيج تيك فقال جيتى « إنى أشعر بالعطف الشديد على تيك ، وأكبر ظنى أنه كذلك يضمر لى الود ، ومع ذلك ففى علاقتى به ما كان يجب ألا يكون ، وليس سبب ذلك خطأ من جانبى أو من ناحيته ، وإنما باعث ذلك أسباب بعيدة عنا كل البعد ، فحينما بدأ الأخوان فردريك شلجل ووليام شلجل فى أن يوجدا لنفسيهما أهمية كنت قوياً عليهما ، ولم يكن فى وسعهما أن يبلغا منى مبلغا ، فاضطرا إلى أن يبحثا عن رجل له مواهب ليصنعا منه معارضاً لى ومناظراً ، فوقعا على تيك . وكان فى مرجوهما أنه متى وضع أمامى ظهرت له أهمية كافية فى عين الجمهور ، وبذلك اضطرا إلى أن يصنعا منه شيئاً أكثر من حقيقته ، وأفسدا بذلك العلاقة بينى وبينه ، لأن تيك وضع فى مركز زائف بالقياس إلى دون أن يدرك ذلك ، وتيك له مواهب عظيمة الأهمية ، وليس هناك أحد أعرف بمزاياه الباهرة منى ، وغاية ما فى الأمر أنهما حينما يرفعانه فوق مكانته ويضعانه فى مستوى واحد معى يتورطان فى الخطأ ، وأنا أقول ذلك صراحة وفى غير جمجمة ، ولا يهمنى شىء ، فإننى لم أخلق

نفسى ، وقياساً على ذلك قد أقرن نفسى بشكسبير ، وهو كذلك لم يصنع نفسه ؛ ولكنه مع ذلك مخلوق من طراز أسمى ، وعلى أن أنظر إليه فى احترام وإكبار » .

وفى يوم ١٤ إبريل سنة ١٨٢٤ زار إكرمان صاحبه جيتى ، وتبادلا الحديث عن أساليب الكتاب المختلفين ، وقال جيتى فى أثناء هذا الحديث « التفكير الفلسفى بوجه عام قد أضر بالألمان ، لأنه جعل أسلوبهم غامضاً صعباً غير واضح ، وكلما قوى اتصالهم ببعض المدارس الفلسفية الخاصة ازداد أسلوبهم رداءة ، ورجال الأعمال من الألمان الذين انصرفوا إلى الحياة العملية أحسن الألمان أسلوباً وأسلوب شلر أنبل وأبلغ ما يكون حين يترك التفلسف ، والإنجليز فى الغالب يجيدون الكتابة لأنهم يولدون خطباء ورجالا عمليين مع ميل إلى الواقع ، والفرنسيون فى أسلوبهم يظلون أوفياء لطبيعتهم ، فطبيعتهم اجتماعية ولذلك لاينسون الجمهور الذى يخاطبونه ، وهم يجاهدون فى سبيل الوضوح لكى يقنعوا القارئ ، ويحرصون على أن يكون أسلوبهم مرضياً لكى يدخلوا السرور عليه ، وأسلوب الكاتب بوجه عام صورة أمينة لعقله ، فإذا أراد إنسان أن يكتب فى أسلوب واضح فعليه أن يكون أولا واضحاً فى أفكاره ، وإذا أراد أن يكتب فى أسلوب نبيل فليكن أولا نبيل النفس » .

وانتقل جيتى إلى الحديث عن خصومه فقال « إن عددهم ضخم ، ولكن يمكن إلى حد ما تقسيمهم إلى طبقات ، فهناك أولا من بينى وبينهم خصومه سببها غباؤهم ، وهؤلاء لا يفهموننى وينسبون إلى عيوباً دون أن يعرفونى ، وقد أتعبتنى كثيراً هذه الطبقة الكبيرة فى سير حياتى ، ولكنى سأصفح عنهم ، لأنهم لايدرون ما يصنعون ، والطبقة الثانية وهى كثيرة العدد كذلك مكونة من هؤلاء الذين يحسدوننى ، وهم ينفسون علىّ حظى والمكانة التى بلغتها مواهبى ، وهم

يعملون على إخماد شهرتى وهدمى ولو كنت فقيراً وبائساً لما هاجمونى .

وكثيرون ناصبونى العداء لأنهم أخفقوا ، وفى هذه الطبقة رجال لهم مواهب طيبة ، ولكنهم لايستطيعون أن يسامحونى لأنى أخملتهم .

والطبقة الرابعة هؤلاء الذين يكرهوننى لأسباب أخرى ، فأنا بشر مثل سائر الناس ، وفى عيوب الإنسانية ومواطن الضعف ، ولا يمكن أن يخلو ما أكتبه من ذلك ، ولكنى كنت دائماً أعمل على إصلاح عيوبى ، واستدراك وجوه النقص ، وأجاهد لأشرف وأسمو ، وكنت فى حالة تقدم مستمر ، وكان كثيراً ما يحدث أن ألام على أخطاء قد أصلحتها وتجاوزتها ، ورجال هذه الطبقة لم يصبنى منهم سوى اليسير من الضرر ، وذلك لأنهم كانوا يسددون إلى الطلقات بعد أن أكون قد صرت على بعد أميال ، وهناك طبقة كبيرة تقف منى موقف الخصومة لأنها تختلف عنى فى نظراتها ووجوه تفكيرها ، ويقال عن أوراق الأشجار أنك قل أن ترى بينها ورقتين متشابهتين تمام الشبه ، وكذلك بين آلاف الرجال يندر أن ترى اثنين تتفق آراؤهما وأساليب تفكيرهما كل الاتفاق ، ولما كان الأمر كذلك فإنه يلزم أن يكون عجبى من كثرة خصومى أقل من عجبى من كثرة الأصدقاء والأنصار ، وقد كانت اتجاهاتى مخالفة لاتجاهات عصرى ، كانت اتجاهات عصرى ذاتية وكنت بجهودى الموضوعية أقف منفرداً ، وكان ذلك يقيم فى طريقى العقبات ، وكان شلر من هذه الناحية يتفوق على تفوقاً كبيراً ، ومن ثم صارحنى أحد القواد الحسنى النية بأن على أن أحذو حذو شلر فى الكتابة ، فأجبته بتحليل مزايا شلر لأنى كنت أعرف بها منه ، وسرت فى طريقى هادئاً مطمئناً دون أن أجشم نفسى العناء فى سبيل النجاح أو أشغل بالى بخصومى » .

ولما حدث الحريق الذى طاح بمسرح ويمار ليلة ٢٢ مارس سنة ١٨٢٥ دار

الحديث عن ذكريات هذا المسرح الذى قام على جهود جيتى وشلر ، وسأله إكرمان قائلا « لابد أنك تستشعر السرور العظيم فى إدارتك للمسرح ونجاحك الباهر » فأجابه جيتى متنهداً « واحتملت غير القليل من التعب والمصاعب » فأجابه إكرمان « لابد أنه كان من الصعب أن تحافظ على النظام فى هذا الكائن ذى الرؤوس المتعددة » .

فأجابه جيتى قائلا « يمكن أن يتم الكثير باصطناع الشدة ، ولكن يمكن أن نعمل أكثر من ذلك بالحب ، ولكن الجزء الأكبر يتم بالتصبر وتحرى العدالة التى لا تحابى أحداً ، وكان على أن أحذر عدوين كان يخشى من خطرهما على : أحدهما حبى الشديد للنبوغ الذى كان ربما يجعلنى أتشيع ، والعدو الآخر لا أذكره لك ولكن يمكنك أن تحزره ، وكان بمسرحنا سيدات كثيرات وكن جميلات وشابات ، وكانت لهن مواهب عقلية ساحرة ، وشعرت بميل شديد نحو الكثيرات منهن ، وحدث فى بعض الأوقات أن بعضهن قابلننى فى منتصف الطريق ، ولكنى كبحت جماح نفسى ، وقلت لها « مكانك ! لا تتقدمى أكثر من ذلك » ، وكنت أعرف مركزى وما على نحوه ، فإن الأمر هناك لم يكن من شؤونى الخاصة وإنما كنت مشرفاً على مؤسسة نجاحها أعظم أهمية من إطفاء غليل شهوة من الشهوات الوقتية ، ولو كنت وقعت فى حبائل مسألة غرامية لكنت أصبحت مثل البوصلة التى لا تتجه الاتجاه الصحيح حينما تكون أحد جوانبها تحت تأثير المغناطيس ، وهكذا باحتفاظى بحريتى وبقائى مسيطراً على نفسى ظللت سيد المسرح ، وكنت على الدوام أتلقى الاحترام الذى بدونه تنتهى كل سلطة » .

ويعلق إكرمان على هذا الحديث قائلا « لقد أثر فى نفسى تأثيراً بالغاً اعتراف

جيتى هذا ، وكنت قد سمعت عنه أشياء من هذا القبيل من آلخرين ، وسرنى أن أسمع الآن تأكيد ذلك من فمه » .

وفى يوم ٢٧ إبريل سنة ١٨٢٥ عاد جيتى إلى التحدث عن علاقته بالشعب وما ابتلى به من سوء الفهم فى هذه الناحية فقال « من المسائل المفروغ منها الآن أننى لست صديقاً للشعب ، ولا أعرف أننى تحالفت يوماً مع أحد ضد الشعب ، وحقيقة أننى لست صديقاً للغوغاء الثائرة التى تقصد السلب والنهب والقتل والتخريب والهدم ، والتى تتظاهر بالحرص على الصالح العام لتخفى أحط الأغراض الأنانية ، وأنى لست صديقاً لمثل هؤلاء القوم كما أنى لست من أنصار لويس الخامس عشر ، وأنى أمقت كل انقلاب عنيف لأنه يقضى على أشياء صالحة نافعة بقدر ما يجىء به من الخير والنفع ، وأكره الذين يقومون به كما أكره الذين كانوا السبب فى وقوعه فهل أعد من أجل ذلك عدواً للشعب ؟

وهل هناك رجل سليم العقل يرى خلاف ذلك ؟ وقد قيل أكثر من ذلك وهو أننى خادم الأمراء وعبدهم . . فإذا كنت عبداً للأمير فعلى الأقل مما يعزينى أنى مازلت عبداً لأمير هو نفسه عبد للمصلحة العامة » .

وقد كان جيتى من كبار شعراء الإنسانية ، ولم يكن مع ذلك مزهواً بقدارته فى الشعر ، وكان يرى أن ملكة الشعر ليست مقصورة على الشعراء . ففى خلال أحاديثه مع إكرمان يوم ٣١ يناير سنة ١٨٢٧ يقول « يزداد اقتناعى أكثر فأكثر بأن الشعر مشاع بين النوع الإنسانى ، وهو يتجلى فى كل مكان وبكل عصر فى مئات المئات من الناس ، وأحد الناس يتفوق على الآخر فى قرض الشعر ويسبح على سطحه إلى مساحة أطول مما يستطيعه غيره ، وعلى الهرفون ماثيسون ألا يظن أنه وحده الرجل وعلى كذلك ألا أعتقد أننى الرجل ؛ وعلى كل منا أن يقول

لنفسه إن موهبته ليست بحال من المواهب الشديدة الندرة ، وإن على الإنسان ألا يبالغ فى حسن الظن بنفسه لأنه نظم قصيدة جديدة » .

وفى يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٨٢٨ تحدث جيتى حديثاً حكيماً عن الطرافة فى الأدب ، قال « يلغط الألمان متحدثين عن بعض الأشعار التى ظهرت مطبوعة فى مؤلفات شلر وفى مؤلفاتى ، ويتوهمون أن مسألة التيقن من أينا نظم هذه الأشعار مسألة ذات بال ، وكأن هناك فائدة وراء هذا البحث ، وصديقان مثل شلر ومثلى عاشا سنوات متلازمين متحابين متحدى الاهتمامات يتبادلان الأفكار والآراء والفوائد لاشك فى أن حياتهما تتداخلان وتتشابكان بحيث يصبح من الصعب أن تميز فكرة أحدهما من فكرة الآخر ، ولقد نظمنا معاً كثيراً من المقطوعات الشعرية ، وفى بعض الأوقات كنت صاحب الفكرة وكان شلر ينظمها شعراً ، وفى أوقات أخرى كان الأمر على عكس ذلك ، وفى بعض الأحيان كان ينظم بيتاً من الشعر وكنت أنظم البيت الثانى ، فماذا يهم فى معرفة مالى وماله ؟ إن السخفاء هم الذين يعلقون على مثل هذه المسألة أدنى أهمية » .

فقال إكرمان « فى بعض الأحيان يحدث فى عالم الأدب شىء متشابه لذلك فمثلا عندما يشك الناس فى طرافة هذا الرجل المشهور أو ذاك ، ويجتهدون لمعرفة المصدر الذى استمد منه ثقافته » .

فأجاب جيتى « شىء مضحك ، ويجوز لنا أن نسأل إذاً الرجل القوى البنية عن الثيران والأغنام والخنازير التى أكلها وأمدته بالقوة ! إننا نولد ولنا مواهب واستعدادات ، ولكننا مدينون بنمونا الخاص لآلاف من مؤثرات العالم العظيم الذى نأخذ منه مانستطيع وما يلائمنا ، وأنا مدين بالكثير لليونان والفرنسيين ، وعلى دين كبير لشكسبير وستيرن وجولدسمث .

ولكنى بهذا القول لا أكشف عن مصادر ثقافتى فإن هذا عمل لاينتهى

ولا حاجة إليه ، والمهم أن يكون للإنسان روح تهوى الحق وتستوعيه أينما وجدته وفضلا عن ذلك فإن الدنيا الآن قديمة .

وقد عاش الكثيرون من الرجال الأعلياء وأعملوا فكرهم آلاف السنين ولم يبق إلا القليل ليكشف ويعبر عنه ، وحتى نظريتى فى الضوء ليست جديدة كل الجدة ، فقد سبقنى أفلاطون وليوناردو دافنشى وكثيرون غيرهما إلى التعبير عنها فى صورة موجزة ، وكل مالى من الفضل هو أننى عثرت عليها كذلك وأعدت الحديث عنها ، وأنى جاهدت لإظهار الحق فى عالم اختلط فيه الحابل بالنابل ، ولابد أن يكرر إظهار الحق مرة بعد أخرى ، لأن أنصار الباطل يعاودون إذاعته ، ولا يقوم بذلك الأفراد وحدهم بل الجماعات كذلك ، ففى المجلات والموسوعات وفى المدارس والجامعات وفى كل مكان يسود الخطأ ويشعر بالطمأنينة لوجود الأغلبية فى جانبه » .

والظاهر أن مسألة الطرافة فى الأدب وغير الأدب كانت تشغل بال جيتى كثيراً فقد تحدث عنها ضمن أحاديثه مرة أخرى فقال « يتحدث الناس كثيراً عن الطرافة ولكن ماذا يعنون بذلك ؟ إننا حالما نولد تبدأ الدنيا تؤثر فينا ويستمر هذا التأثير إلى النهاية ، وماذا غير نشاطنا وقوتنا وإرادتنا نستطيع أن ندعى ملكيته ؟ إننى لو قدمت الحساب عما أدين به لأسلافى العظماء ومعاصرى ما بقى لى سوى رصيد ضئيل » .

وتناول هذا الموضوع فى حديث آخر قال فيه « نحن فى الواقع خلائق مجمعة مشتركة لأنه ما أقل ما نملك ، وما أقل ما نكون ، وما ندعيه لأنفسنا ! وكلنا لامحيص لنا عن أن نتلقى ممن سبقونا وممن هم معنا ونتعلم منهما ، وحتى العبقرى الذى يحاول أن يكون مديناً بكل شىء لنفسه لا يجىء بطائل ، ولكن كثيرين من الناس الطيبين جداً لا يفهمون ذلك ويتحسسون فى الظلام نصف حياتهم

بأحلامهم عن الطرافة ، وقد عرفت فنانين كانوا يفخرون بأنهم لم يتبعوا أستاذاً لهم ، وأنهم مدينون لعبقريتهم بكل شيء فيالسخف !

وكأن هذا ممكن على الإطلاق ، وأستطيع أن أتحدث عن نفسي وأقول فى تواضع ما أشعر به . وحقيقة أننى فى حياتى الطويلة قد أنجزت أشياء كثيرة أستطيع بكل تأكيد أن أفخر بها ، ولكنى لم أكن مديناً بأعمالى لحكمتى الخاصة وحدها وإنما كنت مديناً لآلاف الأشياء والأشخاص حولى . فقد أمدونى بالمادة ، وكان هناك حمقى وحكماء وأصحاب عقول مستنيرة وأصحاب عقول ضيقة محدودة .

وكان هناك أطفال وشبان وناس بلغوا سن النضج . والجميع كاشفونى بأفكارهم وحدثونى كيف عاشوا وعملوا وعن التجارب التى اكتسبوها ، ولم يكن فى وسعى سوى أن أبسط يدى وأحصد مازرعه الأغيار لى » .

ولم يكن جيتى ممن يرتاحون لفكرة انغماس الشعراء فى السياسة والمسائل الحزبية ، ومن أقواله فى هذا الصدد ضمن الأحاديث التى دارت بينه وبين إكرمان خلال سنة ١٨٣٢ قوله « الشاعر الذى يشغل بالساسية يسلم نفسه لأحد الأحزاب ، وحينما يفعل ذلك يصبح غير شاعر إذ عليه أن يودع حريته ويتخلى عن نزاهة التفكير ويأخذ بذناب التعصب والكراهة العمياء . والشاعر باعتباره رجلا ومواطناً يحب وطنه ، ولكن وطن مواهبه الشعرية وأعماله الشعرية هو الطيب والنبيل والجميل ، وهى ليست وقفاً على إقليم أو مصر من الأمصار ، وهى ضالته أينما وجدها ، وهو فى ذلك مثل النسر الذى يحلق حر النظر من فوق مختلف الأقطار ولا يعنيه أكان الأرنب الذى ينقض عليه يجرى فى الأراضى البروسية أو فى أرض سكسونيا ، وما معنى حب الإنسان لبلاده ؟ وما مفهوم الأعمال الوطنية ؟ وإذا كان الشاعر قد قضى حياته فى محاربة الأفكار الضارة

ونبذ الآراء الضيقة وتنوير العقول وصقل الأذواق والسمو بعواطف مواطنيه فماذا يستطيع أن يفعل أحسن من ذلك ؟ وهل فى الوسع أن يقوم بعمل وطنى أكثر من هذا ؟ »

* * *

وأختم هذه الأحاديث المختارة برأى جيتى فى خلود النفس ، وقد ورد فى خلال الأحاديث التى دارت بينه وبين إكرمان يوم ٢ مايو سنة ١٨٢٤ ، وكان جيتى قد دعاه ليصبحبه فى جولة بعربته فى ضواحى ويمار ، وكانت الأشجار قد ازدهرت وتبدت فى حفل زينتها ، وأرسلت الشمس الغاربة أشعتها الذهبية على المراعى الخضر ، وأخذ جيتى يرقب غروبها وقد استغرق فى التفكير . ثم استرسل يقول لإكرمان وقد بدا عليه السرور والارتياح « فى الخامسة بعد السبعين يفكر الإنسان فى الموت بطبيعة الحال بعض الأحيان ، ولكن هذه الفكرة لا تقلق بالى ، لأنى أعتقد اعتقاداً راسخا أن الروح لا تفنى وأن نشاطها يستمر من الأبد إلى الأبد ، وهى مثل الشمس التى تبدو لعيوننا الأرضية غاربة ، ولكنها فى الواقع لا تغرب ولا تغيب وإنما تضىء بغير انقطاع » .

* * *

وبعد فهذه طائفة قليلة من أحاديث جيتى ، وهى غيض من فيض كتاب إكرمان الحافل العامر ، وقد لا تكون خير ما فيه ، ولكنها على أية حال تدل على اتجاهه ، وتكشف عن معدنه ، وتنم على مكانته بين كتب أحاديث العظماء الخالدين وقادة الفكر الممتازين ، وترينا صورة جيتى فى مرآة أمينة صافية وتوضح لنا جوانب شتى من ثقافته وفلسفته وحكمته .

هينى والألم والإيمان

١

هينريك هينى فى طليعه شعراء ألمانيا الغنائيين وكتابها المعدودين المبرزين ، وتمتاز كتابته بعمق العاطفة ، وبلاغة التأثير ، والبساطة المشرقة ، وما يتخللها من الفكاهة المرة والسخرية اللامعة اللاذعة . ولم يكن هينى من هؤلاء الغزاة الفاتحين فى عالم الأدب والفكر الذين يفرضون شخصيتهم على جيلهم ، وينتزعون الإعجاب والتقدير ، ويحملون الناس حملا على الإصغاء إليهم ، والعناية بأمرهم ، والاشتغال بمؤلفاتهم ، وكتاباته اعتراف صريح بالإخفاق ، وتنكر الآمال ، وخيبة الظنون ، ومن ثم اعتصامه بالسخر والمعابثة ، واستعذاب الألم ، والترحيب بالنكبات المترادفة والصدمات المتتابعة .

وعجز هينى عن إقناع العالم برسالته ، ونكوله فى تثبيت مكانته ، وتأكيد شخصيته ، جعل النقاد ينقسمون فى تقديره إلى فريقين ، فريق يسرف فى إعلاء قدره ، وإعطائه أكثر من حقه ، وفريق آخر يبالغ فى الغض من شأنه وتهوين أمره

وقد كان هينى يكثر من التعلق بالأفكار الجديدة ، ويحسن استقبالها ، والتغنى بها ، ولكنه لم يحسن الملاءمة بين هذه الأفكار الجديدة والاتجاهات المتعارضة والتيارات المتناوحة ، ولذا تلمح فى شعره ونثره آثار الفوضى والاختلاط والتناقض والتردد بين المذاهب المختلفة ، وكان يضخم هذا العيب

ويبرزه فى صورة واضحة جلية حماسته المشبوبة وطبيعته المندفعة المتقحمة ، وقد جعله ذلك يهاجم بالهجاء القارص والسخرية الساخرة أخلص أصدقائه وأقرب الناس إليه حتى أصبحت حياته محفوفه بالعداوات الشخصية ، وغبار المجادلات والمشاحنات والمعارك الحامية الوطيس .

وقد ولد هينى فى الفترة الفاصلة بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، أو كما قال هو عن نفسه «تلاقت فوق مهدى آخر أشعة قمر القرن الثامن عشر وأضواء فجر القرن التاسع عشر المتبلجة» وكان يهودياً ألمانيا نشأ فى منطقة الراين التى تتلاقى فيها ألمانيا وفرنسا ، وظل طوال حياته متردداً بين المسيحية واليهودية والأرستقراطية والديمقراطية ، والنزعة الإتباعية والنزعة الإبداعية ، والثورة والمحافظة ، وكان يضاف إلى ذلك الأزمات العسراء التى استهدف لها لعجزه عن تدبير أحواله المعيشية وسياسة أموره الدنيوية .

وقد أخفق هينى محامياً ومدرساً ، وكانت حياته الأدبية كفاحاً مستمراً لمجاهدة الفقر ودفع غوائله ، ولم يوفق فى مجال الحب ، وطعن فى قلبه وأصيبت كبرياؤه ، فملأ ذلك كله حياته حزناً وألماً ، وكان يحاول تهدئة خراطره والتسرية عن نفسه بالرحلات والأسفار والتجوال بين الجبال وعلى شطوط البحار ، وكان يجد فى اصطفاق أمواج البحر وتلاطم غواربه ما يلطف نوائر نفسه ويهون من همومه وأشجانه ، قال عن نفسه «أحب البحر كما أحب روحى ؛ وكثيراً ما يبدو لى أن البحر هو صميم روحى بعواصفه الثائرة ، وهدآتها الخادعة الغرارة» .

ونبا به المقام فى ألمانيا ، فلجأ إلى فرنسا ، وعاش بها أكثر أيامه من سنة ١٨٣١ حتى موته فى سنة ١٨٥٦ وعرف بها ما تيلد كرسنس ميرا التى تزوجها بعد ذلك بالرغم من عدم وجود أية رابطة روحية أو صلة فكرية بينها وبينه .

وبدأت تظهر بوادر العلة التى لازمته ، وقد ظل هينى يحارب الفقر والمرض

فى جلد وصبر عجيبين حتى خر صريعاً فى ميدان الجهاد بعد أن برح به الداء ، وظل طريح الفراش ميئوساً من سلامته زمناً طويلا قاسى فيه الآلام والأهوال .

وفى ليلة من الليالى الساهدة القاسية التى أرخت سدولها عليه بأنواع الهموم والآلام لتبتلى صبره ، وتمتحن احتماله وتجلده ، استولى عليه فجاءه الخوف من الموت وطاح بصبره ، فصاح فى حرقة الألم قائلا « الله » ! .

ولكنه عاد فوبخ نفسه ولامها قائلا لها « ولكنه غير موجود ! » وكأنما عز عليه أن يسلم بوجود الله ، ويلتمس غفرانه ، ويستنزل رحمته ، بعد أن عاش قرابة نصف قرن وثنيا لا يؤمن بغير المحسوس والملموس ، وينكر إله المسيحيين واليهود .

وبداله أنه يخون عقيدته ويتنكر لمذهبه ، وأن فى هذا التراجع ما ينم على الجبن والتخاذل والهزيمة ، فلقد عاش وثنياً ، فهو يؤثر أن يموت كذلك وثنياً .

ولكن عبثاً كان هذا الرجل الشقى الوصب يحاول أن يرغم نفسه على الخضوع لمنطقه الخاص وتفكيرة الجامح ، فقد كان هذا الشاعر الموجع النفس والجسم حينما يقسو عليه الألم ، وتشتد به العلة ، يصيح وقد ضغط على أسنانه وتفصد العرق على جبينه « خذ بيدى يارب ! رحماك يارب ! » .

فهل كان هذا عقيدة ؟ وهل كشف له الألم عن وجود الله الذى لم تستطع روحه أن تدرك وجوده وقدرته التى لا تحد ؟ لقد كان هينى يشعر بأنه مثل الجندى الذى يقتضيه الشرف المحافظة على موقفه ، والثبات فى مكانه ، وألا يستسلم حتى تفنى ذخيرته وتنفد مئونته .

والآن وقد أطلق آخر سهم فى جعبته ، ولم يعد له حول ولا طول فإنه لا يرى بأساً فى أن يعطى الليان ويسلم المقادة وهو مرتاح الضمير ! وقد ظل طوال لياليه المسهدة وهو يضرب فى شعاب هذه الأفكار .

وقد كان هيني يرى أن الإنسانية ربما كانت عظيمة فى مجموعها جليلة الشأن ، ومن حقها أن تفخر بأعمالها الباهرة ، وسجلها الحافل ، ولكن الإنسان الفرد ما شأنه وما قيمته ؟ إنه ضئيل الشأن قليل الحيلة ؟!

ولقد سبق أن أعلن هيني فى كبرياء وتأبه « أن الدين وسيلة من وسائل خداع النفس ، وأنه لا يصلح لغير الأطفال والعجائز والمرضى وضعاف العقول » وكان يعز عليه أن ترغمه الحياة على أن يدخل فى زمرة هؤلاء ، ويسير فى صفوفهم ولقد كان يعتقد قبل ذلك أن ضعف البنية واعتلال الجسد هما اللذان يولدان الأوهام والخزعبلات والتصديق بالغيبيات » ولكنه بدأ يرى أن هذه العقيدة الإنسانية الجاحدة المنكرة ربما كانت وهماً خادعاً ، وسراباً لا معاً ، ولماذا تكون الكبرياء أقرب إلى الإنسان من التواضع ؟ وتبين له أننا نستطيع أن ننتزع السرور والفرح من الاستسلام والشقاء والعزلة ، ولقد هجرته آلهة اليونان التى لاتعرف الرحمة فأصبح فى حاجة إلى الإله الذى يشمله برحمته ويكلؤه بعنايته .

وفى ذات مساء زاره إما نويل هرمان فخت ، ابن الفيلسوف الكبير فخت ، وكان هو كذلك فيلسوفاً وأستاذاً للفلسفة فى جامعة تيبنجن ، وقد جاء ليشكره على حسن تقديره لأبيه وثنائه عليه ، وتجاذبا أطراف الحديث حتى انتقلا إلى الكلام عن النزعة الفلسفية الجديدة ، وكانت مذهب الفيلسوف الألمانى الكبير هجل ، ورفع هيني فجأة نفسه من فراشه مستعيناً بحبل كان معلقاً فوق رأسه ليمكنه من تغيير موضعه ، وقلما كان يفعل لعجزه عن الحركة ، وحرك بأصبعه جفنه المشلول ، وسأل الفيلسوف باهتمام قائلا :—

— قل لى بصراحة ، أيها الأستاذ ، هل تعتقد بالحياة الأخرى ؟ وهل تؤمن بأن الروح خالدة ؟

وكان هذا الأستاذ الشاب يرتدى معطفاً ضافياً أسود اللون ، فلما سمع سؤال

هينى أمر أصابعه على لحيته ، وداعب شعراتها ، وأجاب فى تؤدة ووقار «إنى أعتقد بوجود عالم الأفكار غير المنظور» .

«ولكنك لا تصدق بوجود إله – إله حى قيوم ؟» .

فأجاب الأستاذ فى غير تردد ، وقد هز رأسه «لا أصدق به» .

فأرخى هينى جفنه المشلول ، وارتمى على وسادته ، ولاذ بالصمت .

واسترسل فخت الشاب فى بيان رأيه قائلا «إنى أعتقد بالروح ، وأعتقد أن فينا شيئاً لا يهلك ولا يزول ؛ وقد وجد منذ الأزل ، وهو يبدو ويظهر ثم يختفى ويستتر ويعيد سيرته ، وأعتقد بالأفكار الكامنة فينا ، ولكن تصور شخصية الإله يناقض معتقداتى ، لأن الشخصية تدل على الضيق والانحصار» .

فدمدم هينى قائلا «وأنا لا أستطيع أن أتخيل أنه يمكن أن توجد أفكار قائمة بذاتها لم يتصورها إنسان» .

فحملق إليه الاستاذ مدهوشاً متعجباً ، وقال «أيمكن أن تكون قد صرت تعتقد بوجود إله له شخصية ؟» .

فأجابه هينى «صدقنى ياسيدى أن ارتدادى إلى هذا المذهب لم يكن بإرادتى ، – وذلك إذا كانت كلمة ارتداد تعبر عما هو حادث لى – ولقد كنت وأنا شاب مثلك – بل إلى سنوات قليلة مضت أو حتى أشهر – أعتقد أن الله لم يكن سواى . . . وغاية ما هنا لك أن نفقات تسلية الإله الذى لا يترفق بما فى جيبه ولا بشخصه باهظة ، ولكى يظل الإنسان قائماً بتمثيل هذا الدور عليه أن يكون مالكاً للمال الجم مستمتعاً بالصحة الموفورة ، وقد أدركت فى ذات يوم أننى لا أملك المال ولا الصحة ، فماذا أصنع ياسيدى ؟ وماذا تصنع لو كنت مكانى ؟ لقد استسلمت فهل تفهمنى ؟ لقد تنازلت عن ألوهيتى لله كما تنازل الجمهوريون الفرنسيون للويس نابليون» .

– «إنك هازل» .

– «إنى أهزل فى الظاهر ، ولكنى كعادتى أكون جاداً حينما أهزل ، ويقال إن الإنسانية مريضة وإن الدنيا مستشفى عظيم ، وسيكون الأمر أفظع والخطب أفدح ياسيدى إذا كان هذا النزل الدنيوى ليس له رب» .

– «ألا يستطيع أن يحتمل الأوجاع والآلام بغير عون من الله ؟ ألا تكفى معرفة أن الروح – روح الإنسانية – تبقى بعد الجسد ؟ فكر فى سقراط وتذكر والدى» .

– «إنى أفكر فيهما كثيراً ، ومهما يكن من الأمر فإنه من الغرور والادعاء أن أقيس نفسى بهما ، ولكن ماذا أصنع ؟ فالله – أو ما قد يجوز أن أسميه الموت – قد غلبنى على أمرى ، ولماذا أنكر هزيمتى ؟ لقد أفسدت حياتى ، وسرت سيرة سيئة ، وهو الآن يرمقنى ساخراً ، ويسألنى «ماذا صنعت بنفسك ؟» ولكن لننظر الآن فيما يفعل ، فإذا كان يريد أن يأمر وينهى فليأمر ولينه ، ولم يعد لى مطمع ، لا فى اللاهوت ولا فى السياسة ، وعليكم أنتم أيها الشبان أن تواصلوا الثورة التى بدأتها فإنى أريد أن أموت فى سلام» .

ورفع هينى صوته ، ومضى يقول «لنتأمل قليلا فيما يستطيع أن يفعل ، وليس أحب إلى نفسى ولا أيسر عليها من الخضوع لمشيئته ، فماذا يريدنى أن أعمل ؟ فلو جمعت عزيمتى كلها لما استطعت أن أفعل شيئا ، ألا ترانى مريضا قد شفته تباريح الأسقام ؟ فمنذ عام ونصف عام وأنا لا أستطيع الوقوف ، أتريدنى أن أمشى بغير عكاكيز ؟ وهل أستطيع أن أكون حراً وأنا ذلك المشلول المفلوج» .

ثم خفض صوته وقال «إنى فى حاجة إلى الله ، ففى الليل حينما تأوى زوجتى إلى فراشها أشعر بالوحدة ، وينفر منى النوم ، وأظل أتقلب فى الفراش ،

وأتحول من جنب إلى جنب ، ويغشى جسمى الألم ، ويدب به من الرأس إلى القدم ، وفى كل لحظ أعتقد أن نهايتى قد دنت ، وحانت منيتى ، وفى مثل تلك اللحظات يؤنس وحشتى أن أفكر فى أن هناك فى السماوات – أو فى أى مكان آخر – من أستطيع أن ألجأ إليه فى كربتى وضائقتى ، ومن أتهمه وأدينه وألقى عليه التبعة » .

فضم فخت الشاب يديه وضغط أصابعه وأطرق برأسه وقال « إنى أقدر وأدرك ولكن . . . . » .

– « إنى أريد أن أعترف لك فيما بيننا لكى تحسن فهمى ، فاعلم أن المرض لم يضعف عقلى وأنى لم أتنازل بعد عن حقوق الروح ومطالبها ، ولم أصل إلى هذه الدرجة » .

وتناول هينى بيده اليمنى قطعة من الورق كانت موضوعة على منضدة إلى جانب فراشه وقال للأستاذ الفيلسوف « إذا سمحت لى أسمعتك هذه الأبيات التى نظمتها فى الليلة السالفة » .

وأخذ يلقى الأبيات بصوت خافت ، وهى أبيات تكشف عن حبه للحياة ، وفرط تعلقه بها ، وحرصه على متعها ولذاتها .

وأصغى الفيلسوف إليه بانتباه وهو يلقى الأبيات ، فلما فرغ هينى من إلقائه سأله عن رأيه وقد ألقى بالورقة من يده .

فقال له الفيلسوف « إنها من أجمل ما قلت وأشده إثارة للعاطفة » .

والواقع أن هينى الشاعر الساخر والناقد الفيلسوف آثر أن يقطع علاقته بالأديان واختار لنفسه أن يتصل بالله مباشرة .

بين هينى وجيتى

٢

فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر كانت شهرة جيتى قد تجاوزت ألمانيا وأوروبا إلى سائر نواحى العالم ، وبلغت الذروة ، وكان جيتى نفسه قد نضجت تجاربه ، واكتملت عبقريته ، وأصبح شاعر العصر وأديبه وحكيمه الذى يشار إليه بالبنان ، ويحج إليه القصاد فى ويمار ليشاهدوا هذا المارد الجبار ، ويملأوا عيونهم بالنظر إليه ، وآذانهم من الاستماع إلى أحاديثه الخصبة الموحية قبل أن يطويه الموت ويضاف اسمه إلى سجل الخالدين .

وكان هينريك هينى حينذاك شاباً فى مقتبل العمر ، وعنفوان الشباب ، قوى العاطفة ، مرهف الإحساس ، يلمع فى عينيه بريق الذكاء ، وترف على جبينه لمحات العبقرية ، وقد أخذ يشق طريقه إلى الشهرة والمجد الأدبى .

وقد استرعت مجموعة الأشعار الغنائية التى أذاعها أنظار النقاد والقراء ، ومتذوقى الأدب اللباب ، فأخذوا يرددون أن نجماً قد لاح فى سماء الأدب الألمانى .

وكان شباب الشعب الألمانى فى تلك الفترة قد أخذ يتنكر للشاعر العظيم والمربى الكبير منذ بدأت الحروب النابليونية ، واتهموه بفتور العاطفة القومية وضعف الوطنية ، وتطرف بعضهم فرموه بعدم الاكتراث والخيانة ، وأغراهم ذلك بالشك فى أدبه ، وانتقاص عبقريته ، والنيل من مكانته ، ووجه إليه

بعض النقاد نقدات مسمومة وحملات شعواء ، وأولع فريق آخر من النقاد بالموازنة بينه وبين صديقه وضريبه فى الأدب الألمانى شلر ، وفضلوا عليه شلر ، وأثنوا على مؤلفاته ، وأكبروا آياته الفنية على حساب انتقاص آثار جيتى وطرفه الأدبية .

والجميل أن انقسام الناس إلى معسكرين يتعصب أحدهما لشلر ويسرف فى مدحه ، ويتعصب المعسكر الآخر لجيتى ويبالغ فى الإشادة بأدبه لم يفسد ما كان بين الصديقيين من وثيق العلاقات ، وعميق التقدير ، وحسن التفاهم والتعاون ، وقد كانت صداقتهما من الصداقات النادرة القليلة النظير فى تاريخ الأدب .

وكان هينى الشاب الشاعر الطموح المشتعل حماسة الحاد اللسان اللاذع السخرية يشارك شباب عصره ضيقهم بجيتى ، وثورتهم به ، وتمردهم عليه ، وكان يزيد هذه الكراهة اتقاداً حسد الشبان الطامحين من الشعراء والأدباء لرجال الأدب الشيوخ الذين توطدت مكانتهم ، وعلت شهرتهم .

ويغلب على الشبان الطموحين فى مثل هذه الأحوال الظن بأن هؤلاء الشيوخ قد استأثروا بالشهرة ، وحازوا المجد ، وأقاموا العقبات فى سبيلهم . فلابد من هدمهم وإزالتهم من الطريق ليظهروا ويشتهروا وينالوا حقهم ، ويظفروا بالمكانة الملائمة لنبوغهم وتفوقهم ، وهينى نفسه قد اعترف فى صراحته المحببة بأن الحسد كان من أسباب حملته على جينى وكراهته له !

وهينى رجل ساخر فكه لعوب بأطراف الكلام ، ولكنى مع ذلك لا أرى داعياً لرفض ما ذكره عن نفسه ، فقد قال فى بحثه الانتقادى الممتع عن المدرسة

الرومانسية[1] «من الصعب أن أتعرف الأسباب الخاصة التى بعثت كل فرد على أن يعلن كراهته لجيتى ، ولكنى أعرف الأسباب السرية الخفية لأحد هؤلاء الأشخاص ، ولما كان هذا الشخص هو أنا نفسى فإنى أعترف صراحة أننى كنت أحسد جيتى » .

وفى ذلك الوقت كان يقيم فى برلين ڤارنهاجن فون إنس مع زوجته راحيل ، وكان صالون هذه الأسرة لمدة سنوات ملتقى كبار المفكرين والشعراء والنقاد وكان ممن يغشونه الفيلسوف هجل والمفكر شليرماخر والروائى البارون دى لاموت فوكيه والبحاثة العالم همبولدت وغيرهم ، وقدم هينى أحد أصدقائه لڤارنهاجن ، وفى بادىء الأمر اعتاق الحياء هينى فى حضرة هؤلاء الأعلام الأكبر منه سنًّا ، والأرسخ منه قدماً ، والأبعد منه شهرة ، والأسمى مكانة ، ولكن السيدة راحيل كانت امرأة مستنيرة مثقفة سامية الروح ، جمة العطف ، وقد استطاعت بوداعتها ولباقتها أن تروض جماح الشاب الثائر هينى ، وتؤنس وحشته وتحل عقدة لسانه .

وقد اشتهرت راحيل بإعجابها الشديد بجيتى وإكبارها له ودفاعها الدائم عنه ، وكانت تحاول أن تحمل الناس جميعهم على مشاركتها فى هذا الإعجاب ، وقدرأت جيتى أول مرة فى مدينة فرانكفورت ، وكانت تقلة عربة ، فلما طالعها محياه كادت تفقد صوابها ، واندفعت تجرى خلف العربة وهى تصيح «إنه جيتى ! إنه جيتى ! » فنظر جيتى حوله ، وسره تحمس هذه المرأة الشابة له ، وابتسم لها ابتسامة لطيفة رقيقة ، وبعد هذه الحادثة زارها فى منزلها .

وحدثت هينى عن ذكرى هذه الزيارة ، وقد غلبها الحياء ، فقالت «كان

---

(١) راجع صفحة ١١٢ من كتاب «نثر هينى» .

The Prose Writings of Heinrich Heine.

كل شيء فى ذلك الصباح يعمل على معاكستى ، فقد استيقظت من النوم متأخرة ، وفى الساعة التاسعة كنت لا أزال أمام المرآة أصلح من شأنى ، وجاء الخادم ، وأعلن أن أحد السادة يريد أن يتحدث إلى ، وقلت لنفسى « من عسى أن يكون هذا الزائر ؟ » وأرسلت دوراً لتعرف جلية الأمر ، فعادت إلى فى التو واللحظة حاملة بطاقة جيتى ، وقالت « أخبرنى السيد أنه يستطيع الإنتظار » فقلت لها « أدخليه على الفور ! » .

وأسرعت وتلفعت بمئزر ، وهكذا تقدمت للقاء جيتى ، ولا أزال حتى اليوم أستشعر الخجل لذلك ، ولكنى أثرت الاستهداف لعدم ارتياحه على أن أتركه منتظراً ، فليس من اللائق أن نجعل جيتى ينتظر ! وقد ارتبكت ارتباكاً شديداً ، وغاب عنى أن أعتذر له عن الملبس الذى لقيته به وقلت له إنى أشكر لك حضورك ، وتكلمنا فى أشياء تافهة ، وبطبيعة الحال كانت هناك آلاف الأشياء التى كنت أريد أن أتحدث إليه عنها ، ولكن هكذا حالة الإنسان حينما يلقى الذى يعبده ويقدسه ويحبه ويجله » .

وكان هينى يستمع إلى ثنائها على جيتى وتنويهها بأدبه بشىء من الضيق والغيرة وكان يجد صعوبة فى أن يحنى رأسه إزاء تفوق جيتى وامتيازه ، وغلب على اعتقاده أن راحيل تبالغ فى تمجيده وإطراء مزاياه ، وتعطيه أكثر من حقه .

وقد اجترأ على مخالفتها فى ذلك ، فقالت راحيل لخاصة أصدقائها « إن هينى لم يبلغ بعد السن التى يستطيع فيها تقدير جيتى ، ولابد أن يتضح الإنسان ويهذب ويصقل ويثقف نفسه لكى يستطيع تقدير حكمة شاعر ويمار ، ويقدر اتزانه واتساع آفاق تفكيره الذى يشمل العالم جميعه ، وذلك برغم ما فى هذا الاتزان واتساع الأفاق من متناقضات » .

وكان إعجاب راحيل بجيتى المربى أكثر من إعجابها بجيتى الشاعر ، وكان

هينى يحترم راحيل ويعجب بها ، ويقدر عطفها عليه ، ولكنه مع ذلك يرى أن من حقه أن يثور ويطاوع أهواءه ونوازعه ، ويقتحم عالم الفوضى والقلق والاضطراب قبل أن يصل إلى الاتزان والتجاوب .

وكان هينى يستمتع فى صالونها بالحرية التامة ، ويعارض ويجادل ويناضل عن آرائه فى قوة وعنف ، وكان صالونها من العوامل الهامة فى تكوين أفكاره وإتجاهاته : ففى هذا الصالون استمع إلى هجل وهو يشرح آراءه فى فلسفة التاريخ ، واسترعت راحيل نظره إلى جهود سانت سيمون وأنصاره ، فاقبل على دراسة مشكلات القرن التاسع عشر الاجتماعية ، وعنى بها طوال حياته .

وقد كانت حياة هينى ملأى بسوء التفاهم والمعارك والخلافات والدسائس والعدوان ، ولكن علاقته بأسرة فرنهاجن ظلت الناحية المشرقة فى حياته التى لا تغشاها السحب ولا يخيم عليها الظلام .

وفى مدينة كوتنجن عرف هينى إكرمان الذى أصبح فيما بعد موضع ثقة جيتى ، والذى سجل أحاديث جيتى فى الكتاب القيم المشهور السابق الحديث عنه ، وكان إكرمان قد بدأ يعرف بحبه لجيتى وشدة إعجابه بعبقريته ، وقد نقل[1] «فرانسوا فيتو» مترجم حياة هينى مما زعم أنه مذكرات إكرمان غير المطبوعة ما يستفاد منه أن إكرمان سجل فى هذه المذكرات يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٢٤ ما يأتى : —

«يحاول هينى أن يظهر بمظهر الرجل الغامض الشأن ، فقد قال عرضا إنه زار ويمار ، فأجبته : أفى الحق أنك زرت ويمار ؟ .

فتظاهر بأنه لم يسمع ، وأخذ يتكلم فى موضوعات أخرى ، وبعد نصف ساعة عاد إلى الموضوع نفسه وقال إنه زار ويمار وإن الجعة هناك جيدة .

---

(١) من صفحة ٩٩ إلى صفحة ١٠٩ من كتابه عن هينى .

فسأله سبتا : الجعة وحدها !

فأجاب وقد غشيته غاشية من الذهول «وكذلك اللحم المشوى» .

فقال له إكرمان وقد نفد صبره «أمسك عن هذا السخف ، وحدثنا هل رأيت جيتى ؟» .

ولم يرد هينى على هذا السؤال فى ذلك اليوم ، وترك إكرمان وأصحابه فى حيرة من أمره .

وفى لقاء آخر حدثه هينى عن لقائه لجيتى ، وأطلعه على هذه الرسالة التى وجهها إليه قبل اللقاء ، وهو يقول فيها «يا صاحب السعادة — إنى أسألك أن تتيح لى حظوة لقائك بضع دقائق ، ولا أريد أن أثقل عليك ، وكل ما أوده هو أن أقبل يدك وأنصرف ، وأسمى هينريك هينى ، وقد ولدت فى أرض الراين وقد عشت إلى وقت غير بعيد فى جو تنجن ، وعشت بعد ذلك سنوات عدة فى برلين حيث تشرفت بمعرفة أصدقائك القدماء قلد وأسرة فارنهاجن وغيرهما ، وفى كل يوم كان يزداد حبى لك ، وأنا نفسى شاعر ، وقد اجترأت منذ ثلاث سنوات على أن أرسل إليك مأساة ومعها ديوان شعر ، وفضلا عن ذلك فإننى رجل مريض وقد ذهبت لقضاء ثلاثة أسابيع فى الهارز طلباً للراحة ، وهناك استولت على رغبة شديدة فى أن احج إلى ويمار لأقدم احتراماتى لجيتى ، وقد فعلت فعل الحجيج فجئتك سعيًا على قدمى ، وقد بيض ثيابى غبار الطريق ، والآن أسألك أن تحقق رغبتى وتسمح لى باللقاء» .

واسترسل هينى فى حديثه مع إكرمان وقال إن جيتى كان عذباً رقيقاً لطيفاً فى لقائه ، ولكنه لم يكن إنساناً ، وهكذا كان الرجل الذى حاولت أن أكبره وأجله برغم ما بيننا من الاختلافات وتفاوت المشارب ، ولقد أصبت بخيبة أمل شديدة ، وقد سألنى عما أعمله ، فقلت له إنى مكب على موضوع فاوست ،

فتغير وجهه وتجهم وقال لى فى برود « ماذا يستبقيك يا هر هينى فى ويمار ؟ » فأجبته وقد انحنيت له مودعا ! لا شيء بعد هذه الزيارة » .

والظاهر أن هينى أراد أن يضايق جيتى وينتقم منه لفتوره وتعاليه ، بادعاء أنه سيتناول موضوع فاوست من جديد وينافس جيتى بالكتابة فيه .

وقد كتب هينى ضمن رسالته لأحد أصدقائه المقربين عن لقائه لجيتى[1] « جيتى وأنا طبيعتان مختلفتان متناقضتان ، فهو فى الجوهر رجل حابته الحياة وهو يرى أن الاستمتاع بالحياة هو خير ما فيها ، وبالرغم من أنه فى بعض الأوقات يلمح الحياة المثالية ويشعر بها شعوراً غامضاً ، ويعبر عن ذلك فى أشعاره فإنه برغم ذلك : يفهمها ولم يعشها ، وأنا على نقيضه ، فإنى فى الجوهر متحمس ، ومعنى ذلك أن المثل الأعلى يلهمنى ويستاثر بى إلى حد أننى على استعداد لأن أقدم حياتى له ، بل هو يغرينى بأنه أجعله يستغرقنى ويحتوينى ، ولكنى تعلقت بمتع الحياة ، ووجدت فيها لذة وسروراً ، ومن ثم المعركة الرهيبة الناشبة فى نفسى بين عقلى الواضح الذى يوافق على استمتاعى بلذات الحياة ويرفض التضحية بالنفس ويعدها حمقاً وسخفا ، وحماستى التى تشتد وتقوى وتأخذ بأكظامى وتحاول أن تدفعنى دفعا إلى عالمها القديم المنعزل » .

وعجب هينى من أمر نفسه فى لقائه لجيتى ، فقد ظل أياماً يفكر فيما يقوله لجيتى حين اجتماعه به ، فلما سنحت الفرصة وسمحت الأيام بهذا اللقاء لم يجد ألمع شبان عصره وأصدقهم عبقرية ما يقوله جيتى سوى هذه العبارة التافهة[2] « إن البرقوق الذى ذقته فى الطريق بين بناو ويمار هو ألذ وأشهى ما ذقته من هذا النوع » .

---

(١) راجع صفحة ٧٥ من كتاب وليم شار ا عن «حياة هينى وكتاباته» .
(٢) راجع صفحة ٧٦ من كتاب وليام شار ا عن «حياة هينى وكتاباته» .

وتحدث هيني عن جيتي فى الفصل الطويل والبحث الضافى الذى كتبه عن المدرسة الرومانسية ، ومن أقواله عن جيتي فى هذا المقال «كان جيتي يخشى كل كاتب فيه طرافة وله استقلال ، وكان يمجد ويمدح صغار المؤلفين وضعاف الكتاب ، ولقد أمعن فى ذلك حتى أصبح مدح جيتي لأى كاتب دليلا على أنه من الكتاب العاديين» .

ولكنه مع ذلك حينما عرض للخلاف بين أنصار شلر وأنصار جيتي فى هذا المقال لم يأخذ جانب أنصار شلر وقال «[1] إن المعجبين بشلر يمتدحون فى حماسة طهارة ماكس بيكولوميني وصفاء تكلا وبوزا وغيرهم من أبطال روايات شلر ، ومن ناحية أخرى يعيبون أخلاق فيلين ، وكيتشن وكلارشن وسائر بطلات جيتي وأبطاله ويعدونهم خارجين على الآداب ، ويقابل أنصار جيتي ذلك بالإبتسام ، ويقولون إن أبطال جيتي وبطلاته لا شأن لهم بالأخلاق ، وإن عالم الفن لا يعبأ بالفوارق الأخلاقية ، والفن مثل الكون قد وجد لأجل نفسه لا لأجل الآداب والأخلاق ، وبالرغم من أن آراء الناس عن الكون تتغير وتنسخ فإن الكون نفسه يظل على حاله ، ولا يطرأ عليه أى تغيير ، ولذا يجب أن يظل الفن كذلك بعيداً عن التأثر بآراء الجيل المعاصر من بنى الإنسان ، ويلزم أن يظل الفن مستقلا بوجه خاص عن المذاهب الأخلاقية ، لأن هذه المذاهب تتغير كلما ظهرت ديانة جديدة ، وحلت محل المعتقد القديم» .

ويعلق هيني على وجهة نظر أنصار جيتي التى أطال فى عرضها عرضا نزيها وافيا بقوله «[2] إننى لا أقبل هذا الرأى بدون تحفظ ، ولقد أدى هذا الرأى بأنصار جيتي إلى أن يعلنوا أن الفن هو أسمى ضروب الخير ، وقد أغراهم ذلك

(١) صفحة ١٠٥ من كتاب «نثرهيني» .
(٢) صفحة ١٠٧ من كتاب «نثرهيني» .

بأن ينأوا بأنفسهم عن مطالب عالم الواقع الذى يجب أن تكون له المكانة الأولى » .

ويرى هينى « أن شلر استجاب لعالم الواقع والحقيقة أكثر من جيتى ، وأنه يستحق المدح من أجل ذلك وأن روح العصر هزت كيانه وصارعته وغلبته على أمره وأنه سار فى إثرها إلى المعركة وحمل علمها ، وقد تغنى بأفكار الثورة الفرنسية العظيمة ، وهدم حصن باستيل العقل ، واشترك فى بنيان معبد الحرية ، هذا المعبد الهائل الذى تأوى إلى ظله الشعوب ، وتلوذ بركنه الأمم وقد عنى شلر بالتاريخ وتحمس للتقدم الإجتماعى .

أما جيتى فقد أقبل على دراسة الفرد والطبيعة والفن ، وكان عدم اكتراثه نتيجة من نتائج تأثره بمذهب وحدة الوجود ، ومما يؤسف عليه أن هذا المذهب كثيراً ما يؤدى بمن يأخذ به إلى ترك الأمور تجرى فى أعنتها ، لأنه إذا كان كل ما فى الوجود شيئاً مقدساً فسواء أن يشغل الإنسان بالسحب أو بالجواهر القديمة وبالأغانى الشعبية أو بتشريح القردة !

ولذلك لم يحفل جيتى بمطالب الإنسانية ، وشغل نفسه بالتشريح ونظريات الضوء ودراسة النباتات ومراقبة السحب ! وحقيقة أن جيتى وصف بعض معارك الصراع العنيف لأجل الحرية ، ولكنه وصفها من الناحية الفنية ، فقد كانت الحماسة المسيحية بغيضة إليه ، وكان ينفر منها ويجتويها ، وهو لم ينغمس فى الفلسفة التى سادت فى عصرنا ، إما لأنه لم يستطع فهمها وإما لأنه خشى أن تفقده هدوء النفس ، ولست أنكر قيمة أعمال جيتى الفنية ، وطرائفه الأدبية ، فهى تزين بلادنا المحبوبة كما تزين التماثيل الجميلة الحدائق ، ولكنها بعد كل شىء ليست سوى تماثيل ، وقد يعشقها الإنسان ولكنها ممحلة قحلاء » .

ويصرح هينى بأن ما ساءه وساء شباب ألمانيا فى كتابات جيتى هو عقمها ،

وتفرغ جيتى للفن وتأثيره الذى راخى من عزائم بعض الشبان ، وكان عقبة فى سبيل التجديد السياسى الذى كان لازما لبلادهم .

وقد هاجم المؤرخ الألمانى النقادة منزل جيتى هجوماً عنيفاً ، وأنكر عليه عبقريته ، وفضل عليه شلر ، ويقول هينى عن هذا الهجوم العنيف « [1]كنت فى ذلك الوقت من خصوم جيتى ولكنى مع ذلك لم تسرنى الخشونة التى أبداها منزل فى نقده ، وقد شكوت قلة الأحترام لجيتى التى انطوى عليها النقد ، وقلت إن جيتى برغم كل شىء هو ملك أدبنا ، وفى تناوله بسكين النقد يخلق بنا أن نعامله بالاحترام اللائق ، مثل الجلاد الذى كان عليه أن يطيح رأس شارل الأول ، فإنه قبل أن يقوم بواجبات وظيفته ركع إزاء الملك والتمس منه الصفح » .

ويعتذر هينى عن خصومته لجيتى بقوله « [2]لم أكن مثل هؤلاء النقاد الذين استعملوا مناظيرهم المصقولة وادعوا أنهم رأوا كلفاً فى صفحة القمر ، فإنى لم استطع أن أجد عيباً فى أعمال جيتى الفنية ، وما حسبة هؤلاء القوم ذوو البصر الحاد كلفا فى وجه القمر هو غابات مزدهرة وجداول فضية ، وجبال شم وأودية باسمة ضاحية » .

ويرد هينى على الذين يفضلون شلر على جيتى بقوله « [3]لا شىء أدل على الحماقة من انتقاص جيتى لإعلاء شأن شلر ، وقد جرت العادة أن يمدح شلر من أجل النيل من جيتى ، ألا يعرف هؤلاء النقاد أن هذه الشخصيات التى صورها شلر فى صورة مثالية أسهل فى الخلق وأدنى منالا من هؤلاء الكائنات الضعيفة

---

(١) راجع صفحة ١١٢ مح بتاب « نثر هينى » .

(٢) راجع صفحة ١١٣ من كتاب « نثر هينى » .

(٣) راجع صفحة ١١٣ / ١١٤ من كتاب « نثر هينى » .

الدنيوية التى يرينا جيتى لمحات عنها فى أعماله ؟ ألا يعملون أن المصورين العاديين يختارون فى أغلب الأوقات موضوعات مقدسة ويصورونها بغير إجادة ولا إتقان ؟ ولكن تصور فلاح له سنة منتزعة أو امرأة متقدمة فى السن كريهة المنظر يستلزم أستاذاً بارعاً فى التصوير ، وأعظم مزايا جيتى هى اكتمال أعماله الفنية ، فليست فيها أجزاء قوية وأخرى ضعيفة ، وليس فيها اختلاط وفرضى ، ولا تعصب لبعض الشخصيات ، وكل شيء يظهر فى روايات جيتى وتمثيلياته كأنه الشخصية الرئيسية ، وكذلك فن هومر وفن شكسبير» .

وهكذا لم يستطع هينى أن ينكر على جيتى براعة فنه وعظيم مكانته فى الأدب الألمانى بالرغم من تمرده عليه ، وحسده له ، وضيقه ببعض الجوانب التى عدها جديرة بالنفور فى شخصيته ومسلكه ومواقفه ، ولعل هذا من الأدلة الناطقة على فضل جيتى وعبقريته .

هيني ودون كيشوت

٣

يروى عن ملك فرنسا المتعاظم الفخم لويس الرابع عشر أنه سأل مرة أحد رجال بلاطه قائلاً له «أتعرف اللغة الإسبانية ؟» .

فأجابه الرجل «لا يا مولاى ، ولكنى سأشرع فى تعلمها» .

وأقبل الرجل على دراسة اللغة الإسبانية لأنه ظن أن الملك يريد أختياره سفيراً فى البلاط الإسبانى ، وبعد فترة من الزمن قال الرجل مخاطبا الملك « مولاى لقد تعلمتِ اللغة الإسبانية» .

فأجابه الملك «حسن جدّاً ، إنك تستطيع الآن قراءة دون كيشوت فى لغتها الأصلية» .

ورواية دون كيشوت التى أشار إليها هذا الملك المتأدب ونوه بها طرفة من طرائف الأدب العالمى الخالدة ، وأعظم الآثار الأدبية التى أخرجها الأدب الإسبانى .

وقد ظفر هذا الكتاب بالشهرة الواسعة ، وارتفع إلى المكانة السامية بين الكتب الأدبية المأثورة فى حياة مؤلفة ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وأصبح عنوان الأدب الإسبانى وممثله بين الأمم .

وشخصية دون كيشوت من الشخصيات المحبوبة التى نعطف عليها ونؤثرها لنبل غايته ، وسلامة طويته ، وقد تضحكنا حماقاته وأوهامه ، وتسرنا سخافاته

واندفاعاته ، ولكنه ضحك يتخلله تساقط الدموع ، وسرور يشوبه الحزن والأسى .

وقد جرب مؤلف الكتاب – سرفانتيز – الفقر والحرمان ، وبخشم الصعاب ، وركب الأهوال ، واستهدف للأخطار ، وعرف السجن والتشريد ، وعانى الجوع والجروح ، ومن هذه التجارب الأليمة المرة أفاد هذا الفهم للحياة النفاذ الهادىء الساخر ، وهذا الفهم الساخر هو أساس هذه القصة الممتعة النادرة .

ورواية دون كيشوت من أشجى قصص المخاطرات فى التاريخ العالمى ، وتبرز فيها شخصيتان فاتنتان ، وهما شخصية دون كيشوت ، وشخصية تابعه سانكو يانزا .

وهذان الرجلان يسحر اننا لأن فى كل منا جانباً من دون كيشوت وجانباً من سانكو بانزا ، وكل منا مزيج من الإثنين ، وبطبيعة الحال يتغلب فى أكثرنا جانب سانكو يانزا على جانب دون كيشوت ، ويكاد يخفيه ويمحوه .

وصوت سانكو الذى يدوى فى نفوسنا هو صوت الحذر وطلب السلامة ، والجرى وراء المصلحة واغتنام الفرص العارضة ، وأكثر الناس لا يحبون أن يكسر لهم ضلع من الأضلاع أو أن تنهال عليهم الطعنات والصفعات ، أو أن يسلب مازرت عليه جيوبهم ، وهو النصيب الذى تدخره الدنيا لأهل الشجاعة والإقدام والبطولة والصراحة الذين لا يقبلون أن ينحنوا للعاصفة ، ولا يرتضون أن يقبلوا اليد التى قد يعجزهم قطعها .

وأكثر الناس يخشون السخرية بهم والاستهزاء أكثر مما يخشون الفقر والحرمان وتكسير الضلوع ووقع الصفعات وظلام السجون وقسوة الأغلال ، ولكن كلامنا مع ذلك فى نفسه دون كيشوت المكبوت المعتقل فى طبائعنا ، وهذا الدون كيشوت رهن المحابس والمقيد بالأصفاد والأغلال يعجب من وراء

القضبان بالنبل والشجاعة والإقدام على جلائل الأعمال ، ويكبر مواقف البطولة ومشاهد التضحية .

وقد يسخر الناس بدون كيشوت . ولا يكتفون بتركه يعانى مرارة الإخفاق وآلام الجروح والطعنات ، ولكنهم مع ذلك يحبون أن يلبوا دعوته ويستجيبوا لندائه ، ولكنهم يتبعون سانكو بانزا لأنهم يؤثرون الراحة وتجنب الأخطار ويخشون أن يسخر بهم ، ويضحك منهم ، ويرموا بالجنون والهوس ، وهم برغم ذلك يظلون يضمرون الإعجاب بدون كيشوت ، ويحبونه ويعطفون عليه ، ويؤلمهم مصابه ، ويشجيهم مصرعه .

وقد قرأ هذا الكتاب هينريك هينى فى أول نشأته ، فبلغ منه وأثر فى نفسه ، ويشير الكتاب الذين عنوا بدراسة حياة هينى إلى ثلاثة كتب كان لها فى نفسه أعمق الآثار وأبقاها ، وهذه الكتب الثلاثة هى رواية دون كيشوت والرحلة العاطفية لستيرن ورحلات جلفر لسويفت .

وقد حدثنا هينى نفسه عن الأثر الذى تركته فى نفسه رواية دون كيشوت فقال[1] «أول كتاب قرأته حينما أصبحت غلاماً ناشئاً يقوى على الفهم ويستطيع القراءة هو «حياة الفارس الأريب دون كيشوت دى لامانشا وأعماله» الذى كتبه ميجوبل سرقانتيز دى ساڤدرا . وإن أنس من الأشياء لا أنس ذلك العهد حينما تسللت بكرة من الدار استرق الخطى إلى ساحة الحديقة لأقرأ دون كيشوت دون أن أستهدف للإزعاج ، وكان اليوم من أيام شهر مايو الحسان ، كان الربيع الناضر يستدفىء فى ضوء الصباح الصامت مصغياً لإطراء هذا المتملق العذب ، الهزار ، الذى كان يغنى فى رقة ولطافة وفى حماسة مؤثرة جعلت أشد البراعم خفراً تتفتح وتزدهر ، وجعلت الأشجار والأزهار تهتز من نشوة

(١) صفحة ٢٤٣ / ٢٦٧ من كتاب نثر هينى .

الطرب ، ولكنى جلست على مقعد حجرى قديم قد علاه الطحلب فيما يسمى «طريق التنهدات» القريب من منحدر المياه ، وأخذت أغذو قلبى الصغير بمخاطرات الفارس الجرىء التى تهز النفس وتثير الخاطر . وجعلتنى براءة الطفولة آخذ كل شىء مأخذ الجد ؛ ومهما كانت النكبات التى كانت تصيب هذا البطل البائس مضحكة فإننى كنت أعتقد أنها يلزم أن تكون كذلك ، وكنت أتخيل أن السخرية بالإنسان والضحك منه جزء من البطولة مثل ما يصيب البطل من الجروح والطعنات ، وكانت السخرية تثير غضبى كما كانت الجروح التى تصيبه تحزن قلبى ، كنت طفلا لا يعرف شيئاً عن السخرية التى بثها الله فى الدنيا والتى حاكاها الشاعر الكبير فى عالمه الصغير ، وبكيت بكاءاً مراً حينما وجدت أن الفارس النبيل لم يجن سوى إنكار الجميل والضربات والصفعات ، ولما كنت حينذاك غير متدرب على القراءة لذلك كنت أنطق كل كلمة بصوت مرتفع ، وكانت الأطيار والأشجار والجداول والأزهار تسمع كل ما أقرأ ، ولما كانت هذه الكائنات البريئة مثل صغار الأطفال لا تعرف شيئاً عن سخرية الدنيا فهى كذلك أخذت المسألة مأخذ الجد ، وشاركتنى فى البكاء على أحزان الفارس المنكوب ، وبلغ التأثر بأحدى شجرات البلوط التى طال عليها الزمن إلى حد أنها نشجت وانتحبت ، وهز منحدر المياه لحيته البيضاء هزاً عنيفاً ، وبدا لى أنه ينعى على الدنيا شرورها ، وشعرنا بأن بطولة الفارس ليست أقل استحقاقاً للإعجاب لأنه انسحب من الميدان ، وأنه إذا كان جسمه ضعيفاً هزيلاً وكان سلاحه قد علاه الصدأ وكان فرسه هجيناً حقيراً فإن ذلك يجعل أعماله أخلق بالثناء وأجدر بالتقدير ، وازدرينا الغوغاء الذين أمعنوا فى ضربه وإيذائه بقسوة ووحشية واحتقرنا احتقاراً أشد من ذلك هذا الصنف من الغوغاء الأسمى ، طبقة الذين كانوا يرفلون فى الحرير ويحملون الألقاب الضخمة ويسخرون

بالرجل الذى كان أسمى منهم عقلا وأنبل نفساً ، وكنت كلما مضيت فى قراءة الكتاب ازداد قدر فارس « دلشينا » ارتفاعاً فى نظرى وتزايد حبى له وتعلقى به ، ولبثت مثابراً على ذلك أياماً فى الحديقة نفسها ، فلما أقبل الخريف كنت قد وصلت إلى نهاية الكتاب . . . ولست أنسى يوم قرأت عن المعركة المحزنة التى خرج منها البطل يجرر أذيال الهزيمة الشائنة . . . كان يوماً عبوساً ، وكانت السحب القاتمة تنساب فى سماء غبراء ، وكانت الأوراق الصفراء تتساقط من الأشجار فى حزن وأسى ، وكانت قطرات الدموع المثقلة معلقة على آخر الأزهار التى أمالت رؤوسها الصغيرة الميتة ، وكانت البلابل قد ماتت منذ زمن طويل ، وكانت صور الفناء تطالعنى من كل ركن ؛ وكاد قلبى ينفطر وأنا أقرأ كيف انطرح الفارس النبيل على الأرض مثخناً بالجراح مهشم الأضلاع ، وقد أخذ يقول فى صوت خافت واهن كأنه مقبل من القبر « دلشيناهى أجمل فتاة فى العالم ، وليس من اللائق أن يبطل هذا الحق ضعفى – فاطعن برمحك يا سيدى الفارس » .

« فوا أسفاه ! لقد كان الفارس اللامع فارس القمر الفضى الذى هزم أشجع رجل وأنبل إنسان عرفته الدنيا ؛ كان هذا الفارس حلاقاً متنكراً ! » .

« لقد كان ذلك منذ عهد عهيد . ولقد ازدهرت منذ ذلك العهد[١] أربعة كثيرة جديدة ، ولكن كان ينقصها جميعاً أقوى أسباب فتنتها وجمالها ، لأننى وا أسفاه أصبحت لا أومن بخداع الهزار الذى يتملق الربيع ويطربه ، وإنى لأعلم أنه سرعان ما تذهب بشاشته . وفى كل مكان أرى فناءاً متنكراً مستخفياً » .

« وبرغم ذلك لا يزال قويًّا فى صدرى ذلك الحب المشتعل الذى تسامى

---

(١) أربعة جمع ربيع وهو أحد فصول السنة .

على الأرض فى حرارة وحماسة وبلغ السماء وتنقل فى أنحائها الشاسعة مرحاً طروباً ، ولما رأى النجوم غير حافلة به ارتد إلى الأرض الصغيرة واضطر إلى أن يعترف فى حسرة وانتصار بأن أجمل ما فى الخليقة كلها وأحسنه هو قلب الإنسان ، وهذا الحب هو الإلهام الذى يملأ شعاب نفسى ، وهو مقدس دائماً سواء أحسن الصنيع أو أساءه ؛ ولذا لم تذهب سدى الدموع التى أراقها الغلام الناشىء على أحزان الفارس الأبله ؛ كما لم تذهب سدى الدموع التى أراقها فى شبابه خلال الليالى الكثيرة وهو يقرأ عن مصارع أبطال الحرية المقدسين أجيس ملك إسبارطة وكايوس وتايبرياس جراكاس فى روما ويسوع فى أورشليم وروبسبير وسانت جست فى باريس ؛ والآن قد بلغت مبلغ الرجولة انقضى عهد إراقة الدموع ؛ وأصبح لزاماً على أن أعمل عمل الرجال مقتدياً بقدوة أسلافى العظماء ؛ وإذا شاء الله فى المستقبل فسيريق الأطفال والشبان الدموع من أجلى ؛ وفى هذا العصر الذى فترت حماسته أستطيع الاعتماد على هؤلاء الأطفال والشبان لأن النسمات التى تهب عليهم من الكتب القديمة مازالت تستوقد حماستهم ، ومن ثم يستطيعون أن يفهموا القلوب المشتعلة فى العصر الحاضر ، والشباب يتجرد فى تفكيره ومشاعره من الأثرة ولذلك يشعر بالحق شعوراً عميقاً ؛ ولا يضن بعطفه الجرىء فى المواقف التى تستدعى العطف ، والمتقدمون فى السن يؤثرون أنفسهم ، وآفاقهم الفكرية ضيقة ، وهم يفكرون فيما يعود على رأس مالهم من الأرباح أكثر مما يفكرون فى مصلحة الإنسانية . وهم يتركون زورقهم الصغير ينساب هادئاً فى مجرى الحياة ولا يحفلون فتيلا بالملاح الذى يصارع الأمواج فى البحر المكشوف الواسع ، أو يزحفون فى مثابرة وإصرار إلى أعالى منصب محافظ البلد ، أو رئاسة النادى الذى ينتسبون إليه ، ولا يعبأون بهؤلاء الشجعان الذين تقذف بهم العواصف من فوق أعمدة

الشهرة ، ثم يتحدثون بعد ذلك عن ماضى شبابهم وكيف أنهم كذلك ركبوا فيه رؤوسهم ونطحوا الحائط ، ولكنهم هادنوا الحائط بعد ذلك وصالحوه ، لأنهم عرفوا أن الحائط هو المطلق ، وهذا المطلق قد وجد بنفسه ولنفسه ، وأنه لما كان قد وجد فهو من ثم معقول ، والذى لا يحتمل هذا المطلق المعقول الذى لا مندوحة عنه يعد من غير العقلاء » .

ثم يوجه هينى الكلام إلى عبيد المصلحة ، وأنصار الرجعية ، ودعاة الحكم المطلق فيقول « ربما كنتم بعد كل شىء على حق ، وربما كنت أنا دون كيشوت ، وقد أحالت عقلى قراءة الكتب العجيبة كما أفسدت عقل فارس لا منشا ، والحقيقة أن جنونى والأفكار الغالبة على التى استنبطتها من الكتب تخالف جنون لا منشا والأفكار التى غلبت عليه ، فهو قد أراد أن يعيد عهد الفروسية الذى ذهب وانقضى ، أما أنا فعلى نقيض ذلك أريد أن أقضى على البقية الباقية من ذلك العهد ، ولذا يعمل كل منا بوجهة نظر مخالفة لوجهة نظر الآخر ، وقد كان زميلى يرى طواحين الهواء عمالقة وأنا خلافه أرى عمالقة هذا العصر مجرد طواحين هواء مزهوة متبججة ، وكان يخال الحانات قلاعاً ، وساقة الحمير فرساناً ، وموسسات الزرائب من سيدات البلاط ، وأنا على عكسه أرى قلاعنا حانات ، وفرساننا ساقة حمير ، وسيدات بلاطنا مومسات زرائب عاديات ، ولكنى مثل فارس لا منشا أوجه إليها الضربات والطعنات ؛ ومثل هذه الأفعال وا أسفاه ينوبنى منها مثل ما نابه ، وأنا مثله ألقى ما ألقى فى سبيل الدفاع عن محبوبتى ، وإذا أنكرتها من الخوف أو بباعث حب الربح الوضيع فإنى حينذاك أستطيع أن أعيش عيشة راغدة فى هذا العالم القائم على العقل كما يعيش صغار العبيد ! ولكنى بدلا من ذلك أخوض غمار معارك كل منها تكلفنى دماء القلب ، وقد تحسبون ذلك أوهاماً مثل أوهام دون كيشوت ، ولكن الآلام المتوهمة توجع

كغيرها من الآلام » . .

ولكن هل كان هينى حقًّا مثل دون كيشوت مفتوناً بالمثل الأعلى ، مضحياً له بالراحة والسعادة ، مناضلاً من أجل الحرية ، ومجاهداً فى سبيل تقدم الإنسانية ؟ أما هو فيقول نعم ، ويوصى قائلاً[١] «إننى لا أعلم هل أستحق أن يوضع على كفنى يوماً إكليل الغار ، ولم يكن الشعر عندى – على حبى له – سوى لهو مقدس ، ولم أعلق قط أهمية كبيرة على الشهرة فى الشعر ، ولست أبالى أمدح الناس أشعارى أم عابوها ، ولكن ضعوا على كفنى سيفاً لأننى كنت جندياً جريئاً فى حرب الإنسانية » .

أما الناقد الإنجليزى الكبير ماثيو أرنولد فإنه يرى فى هينى غير هذا الرأى فهو يرى فى هينى غير ما رآه هينى فى نفسه إذ يقول عنه[٢] «لقد كان لهينى حظه الموفور من حب الشهرة ، وقد كان مثل سائر البشر يعنى بمدح الناس لأشعاره أو ذمهم لها ، ولم يكن سوى بطل صغير جداً ، وسيزين الجيل القادم قبره برمز إكليل الغار لا بشارة السيف» .

ثم يتبع هذا الرأى بقوله «لقد كانت له مكانته الملحوظة لأنه إن لم يكن قد تميز بالشجاعة فإنه كان مع ذلك جنديًّا لامعاً قوى الأثر فى حرب تحرير الإنسانية ، ويرى أرنولد أن هينى على اتساع ثقافته ولمعانه وعبقريته كان ينقصه الاتزان الأخلاقى ونبل الروح .

ولست أدرى هل انتقص أرنولد من بطولة هينى وعاب أخلاقه لأن هينى كان شديد الوطأة على الإنجليز أو أنها صراحة النقد وأمانته ودقة الوزن والتقدير

(١) صفحة ١٥٦ من الجزء الأول من كتاب أرنولد «فصول فى النقد» .

(٢) مقال أرنولد عن هينى من صفحة ١٥٦ إلى صفحة ١٩٣ الجزء الأول من كتابه «فصول فى النقد» .

وتحرى الصدق والصدع بالحق !

ومهما يكن من الأمر فإن مواهب هينى الأدبية وآثاره فى الاستنارة والتثقيف من وراء اختلاف الأفكار فى مواقفه السياسية وسلوكه الأخلاقى وفوق الريب والظنون .

بين كارلايل وإمرسن

من مأثور أقوال المتنبي فى شكوى الدهر قوله : —

أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه   فما طلبى منها حبيباً ترده

وخلق الدنيا الذى يأبى دوام الأحبة والمحبة ، يأبى كذلك دوام الأصدقاء وبقاء الصداقة وبخاصة بين رجال الآداب والفنون ، ولذا تعد الصداقات الطويلة المدى القوية الأواصر فى التاريخ الأدبى من الأشياء النادرة ، وفى سنة ١٨٣٣ ، نشأت صداقة أدبية من أمثال هذه الصداقات القليلة بين الكاتب البريطانى الكبير توماس كارلايل والكاتب الأمريكى الجليل الشأن الذائع الصيت رالف والدوإمرسن ، ولو لم يقع فى تلك السنة من الحوادث الهامة الجديرة بالإشارة إليها سوى هذا الحادث لكان وحده جديراً بتخليد ذكرى تلك السنة ! .

وكان كارلايل فى السنة السابقة قد فجع بفقد والده ، وفجع بعد فقد والده بفقد أستاذه جيتى ، وأقام مع زوجته فى ناحية موحشة منعزلة فى أسكتلندة تسمى «كراجينبتك» ، وفى يوم من أيام الخريف ، وقد جلس كارلايل فى داره يجيل فكره فى موضوع «العقد الماسى» الذى جمع مواده ، وأخذ يتأهب للكتابة فيه ولكن برغم محاولته وإحاطته بتفصيلاته لم يتسق له الموضوع ولم يسلس قياده ، وقد ضايقه ذلك ، وساءه أن يتأبى عليه الموضوع ، وتستعصى الكتابة .

وبينما هو يعانى هذه الحيرة التى يعرفها أصحاب الأمزجة الفنية حينما

يتسرعون فى تناول موضوعاتهم قبل أن تحفل بها خواطرهم ، وتمتلىء شعاب نفوسهم ، سمع صليل عربة تقف عند باب داره وينزل منها شاب أمريكى يحمل كتاباً من ستيوارت ميل – وكان فى هذه الفترة من أصدقاء كارلايل المعدودين إذا لم تكن النبوة قد وقعت بينهما بعد – يقدمه فيه لكارلايل .

وكان هذا الشاب الوافد على كارلايل فى هذه الناحية النائبة المهجورة هو إمرسن ، فقد قرأ لكارلايل وهو فى أمريكا الفصول الأدبية التى أذاعها فى بعض المجلات الإنجليزية ، وأعجب بها ، وتركت فى نفسه أثراً بالغاً ، فلما جاء لزيارة أوربا عنى بزيارة إنجلترا ، وحرص بوجه خاص على لقاء كارلايل ، وقد كتب كارلايل عن هذه الزيارة فى يومياته يقول[١] : « لقد غودرت هنا أشد الناس وحشة وأقلهم ناصراً ، مهجوراً من الأصدقاء كما كنت مدة سنوات ، ثم جاء هذا الرجل ليرانى ، ولست أدرى ما الذى بعثه على المجىء ، وقد أبقيناه عندنا ليلة ، ثم غادرنا بعد ذلك ، ولقد رأيته وهو يصعد الجبل ، ولم أذهب معه حتى لا أراه وهو ينحدر من فوق الجبل ، فلقد آثرت أن اراقبه وهو يصعد ويغيب عن ناظرى كما تختفى الملائكة » .

وبعد أن مر على هذا اللقاء سنتان كتب كارلايل إلى إمرسن ضمن رسالة « سنظل طويلاً نذكر يوم الأحد من ذلك الخريف الذى زرتنا فيه فى كراجينبتك النائية الموحشة ، ولقد غادرتنا ولكنك لم تتركنا كما وجدتنا » .

وفى نوفمبر سنة ١٨٣٨ كتبت السيدة جين ولش – زوجة كارلايل – فى حاشية كتاب من زوجها لأمرسن تقول « إذا لم يكن هناك شىء يذكرنا بك فإننا لن ننسى ذلك الزائر الذى نزل علينا وكأنه هبط من السماء ، وكان اليوم الذى قضاه عندنا يوماً ساحراً جعلنى أذرف الدمع لأنه لم يكن سوى يوم واحد » .

(١) صفحة ٢ من الجزء الأول من كتاب مراسلات توماس كارلايل ورالف والدوإمرسن .

وقد تركت هذه الزيارة فى كراجينبتك أثراً لا يزول فى نفس كارلايل ؛ ففى رسالة كتبها إلى إمرسن بعد مرور ثلاث عشرة سنة على هذه الزيارة كتب كارلايل إلى إمرسن يقول «آه يا صديقى أى حقيقة عجيبة خيالية عالمنا هذا الضخم الهائل وحياتنا ! أتذكر كراجينبتك والأمسية الهادئة التى قضيناها بها ؟ إن الدموع لتطفر من عينى إذا كان هذا من عادتى ! ولكن هذا غير مجد» .

وأول كتاب فى سجل هذه الصداقة النبيلة كتبه إمرسن فى ١٤ مايو سنة ١٨٣٤ بمدينة بوستن ، وفيه يقول «بعض الأغراض التى نرمى إلى تحقيقها نرجئها طويلاً لمجرد أنها أسمى مكانة فى نفوسنا من أغراض أخرى ، وقد كنت أريد تحقيق أحد هذه الأغراض منذ أسابيع ، بل منذ أشهر ، وهذا الغرض هو كتابة رسالة إليك ، وقد حملت إلى إسمك بعض رياح الشهرة ، وربما كان ذلك منذ عامين باعتبارك كاتب فصول فى مجموعة من المجلات الدورية الإنجليزية ، وهذه الفصول هى أعمق ما قرأت فى هذا العصر وأكثره طرافة وأصالة ، وهى كتابة رجل له يقين وله عقل . . وقد جذبتنى جواذب الرعاية والاحترام لأحد أساتذتى فذهبت لأرى شخصه . . .

«ولما عدت إلى وطنى أعدت على الكثير من الآذان المصغية ما رأيت وما سمعت وقد تلقوه بسرور وارتياح . . وقد تسلمت أربعة أعداد من كتاب «فلسفة الملابس» وأشكر لك دائماً ما أفاضه علينا من النور . . وإنه لمن الخير أن يكون عندنا عين جديدة تبحث أحوالنا الاجتماعية والسياسية ومدارسنا وديانتنا .

وبعد كتابة هذه الرسالة بزمن قليل كان كارلايل قد انتقل من كراجينبتك إلى لندن ، ومن لندن أرسل فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٣٤ الرد على هذه الرسالة وقد تناول فيه الحديث عن كتابه «فلسفة الملابس» وفيه يقول لإمرسن «من الجانب الإنجليزى لمياه المحيط الأطلسى لم أتلق سوى استجابة واحدة صادقة

واضحة ، ولو أنها متحمسة مثل استجابتك» وفى ختام الرسالة يقول له : «أرجو أن تظل محبا لى أنت وغيرك من أصدقائنا» .

وكان إمرسن يعتقد أن الشبان فى أمريكا وفى إنجلترا قد يرون فى حياتيهما ما يشجعهم ويرفع من مستواهم ، ولذا كتب فى ٧ أكتوبر سنة ١٨٣٥ إلى كارلايل يقول «لتعتقد حينما ينال منك الكلال والاعياء أنك وأنت الذى تبعث القوة فى نفوس أفاضل الشبان ، وتدخل السرور على قلوبهم لا يمكن أن تكتب سطراً واحداً عبثاً ، ومهما يكن ما يصيبنا فى المستقبل فليس هناك أفضل من أن نكون قد أيقظنا حاسة الجمال العذبة فى نفوس الكثيرين ، وأن نكون قد ضاعفنا عندهم شجاعة الفضيلة» .

وكان إمرسن يشعر بتبعته فى الحرب المعلنة على نزعة العصر المادية ، وكان يشجعه على البقاء فى الميدان استجابة الكثيرين لدعوته ، وتقديرهم لجميله ، وكان يرى فى كارلايل أخاله يجاهد فى الميدان نفسه . ويحارب النزعة المادية .

ولكن إمرسن كان قانعاً بالحياة راضياً عنها ، على خلاف كارلايل الذى كان دائم السخط والتشكى ، وفى إحدى رسائل إمرسن إليه نلمح اطمئنان إمرسن إلى حياته المنزلية ، وحبه لأسرته وثناءه على زوجته ، وتعلقه بطفله الصغير «والدو» الذى يقول عنه فى تلك الرسالة «إن ابنى قطعة من الحب والضوء تستحق أن أراقبها من الصباح حتى إقبال الليل» .

وهو يعيد الكلام عن هذه القطعة من الحب والضوء فى رسائل أخرى ، وفى إحدى هذه الرسائل يقول «لقد بلغ طفلى الصغير الخامسة من عمره اليوم ، وهو يرسل إليك تحية الحب» .

ولكن لا ينقضى على كتابة هذه الرسالة أربعة أشهر حتى يصاب هذا الوالد

الحنون العطوف فى ابنه العزيز ، فتعظم فجيعته ، ويشتد حزنه ، فيكتب إلى صديقه وهو فى غمرة الأسى قائلا « لا تستطيع أن تسعدنى وتواسينى ولا تستطيع أن تعرف كم أخذ منى مثل هذا الطفل ، وطالما أملت نفسى مسروراً بأننى فى ذات يوم سأرسل إليك نجم صباحى هذا وأظل فى دارى فرحاً وراء هذا الذى يمثلنى عندك ، وزوجتى البائسة تئن وتتوجع آناء الليل وأطراف النهار ، وأنت كذلك ستحزن من أجلنا على بعد الشقة ونأى المزار » .

وقد أثر فى نفس كارلايل مصاب صديقه فكتب إليه مواسياً « لقد نزع منك ابنك الأبلج الصغير ، وهو أثمن ما تملك ، ولكن فى الحق أنه مع الله فهو حى مثلنا ، ومن المؤكد أنه يعيش على خير ما يراد له ولك ولنا جميعاً ، وإنى أعرف ما تعانى والدته من الحزن ، ولا أستطيع أن أقول لها كلمة عزاء وفى اعتقادى أن مثل هذا الحزن الشديد الصامت لا يزور سوى الأمهات اللواتى أصبن بفقد أبنائهن ، وإن فقد العصفور الصغير فى عشه لصغاره ليثير عطفنا فما أشد فجيعتنا لمصاب أصدقائنا فى أبنائهم ! إننى لا أستطيع أن أنصح والدته بالتسلى والسلوان ، وعسى الله أن يلطف من حزنها ويرزقها العزاء ، وكما قال داود « إننا سنذهب إليه وهو لن يعود إلينا . . . »

وأرسل إمرسن أحد كتبه الجديدة التى تجلت فيها بوادر عبقريته إلى كارلايل فتلقى منه رسالة تشجيع يقول فيها « لقد ذكرت فى كتابك أنه الفصل الأول من شىء أكبر وأوفى . ولكنى أقول إنه الأساس والتصميم الذى تستطيع أن تقيم عليه ما أعطى لك من الأشياء الصادقة العظيمة ، ولقد سرت نفسى نظرتك الهادئة لهذه الدنيا العجيبة التى نعيش فيها معاً » .

وأعجب كارلايل بإحدى المحاضرات التى ألقاها إمرسن وأرسل إلى كارلايل صورة منها ، فكتب إليه يقول « يا صديقى ! إنك لا تعرف ما صنعته من

أجلى ، لقد مضت عشرات السنوات وأنا لا أسمع حولى سوى اللفظ والثرثرة والكلام الغث التافه المملول ، حتى سئمت نفسى ويئست من استماع الكلام المبين . وها قد ترامى إلى سمعى من ناحية الغرب الصوت الواضح الجلى ، صوت رجل عرفت فيه القرابة والأخوة ، فالحمد لله على ذلك ، لقد بلغ حديثك من نفسى مبلغاً ، ورن صداه فى قلبى ، وقلت لزوجتى «إليك أيتها المرأة ، فقرأت المحاضرة وقد كلفتنى أن أقول لك إنها لم تقرأ مثلها منذ وفاة شلر ، فلله درك من رجل ! وإنى لأرجو الله أن يهبك القوة لأنك تروم عظيماً ، وتحاول أن تنهض بعمل خطير ! » .

ولما أتم كارلايل كتابه عن « الماضى والحاضر» كتب إلى إمرسن يقول له « إنه نبذة حارة ملتهبة يصح أن تكون موضع التساؤل ، ولا أدرى هل تصلح لتكون مقدمة للكتاب الذى أنوى كتابته عن أوليفار كروميل» ولكن مهما يكن من الأمر فإن هذا الكتاب قد نما بالتدريج ليكون مقدمة لكل ما أريد عمله» .

ولما اطلع أمرسن على هذا الكتاب كتب إلى كارلايل ضمن رسالة « ولكن هذا الكتاب بما فيه من فكاهة ونفاذ وإشارات جريئة قد ولد ليعمر طويلا ويعيش سنوات لا أستطيع الآن عدها » .

وقد كانت مؤلفات كارلايل التاريخية ثمرة المجهود المضنى والعمل الشاق ، وكانت رسائله إلى إمرسن فى بعض الأحيان تنم على ما يعانى من الألم وما يبذل من الجهد ، أما إمرسن فقل أن نجد فى رسائله نظيراً لهذه الشكوى ، وقد أدهش كارلايل صبره هذا حتى قال فيه : «إننى أعلن أننى فى بعض الأوقات يعرونى الخجل ، وأعجب من أين استحضر إمرسن الطيب كل هذا الصبر» .

وقد كتب إلى إمرسن فى أثناء عكوفه على إنجاز كتابه العظيم عن الثورة الفرنسية يقول : «إنك لا تستطيع أن تتصور الحالة النفسية التى أعانيها ، وفكرة

واحدة قد تملكتنى ، وهى « هذا الكتاب » هذا الكتاب المتعب الذى يشغلنى بغير انقطاع . . . وفى الوقت الراهن إنه فى الواقع مثل قميص نساس الخرافى يكاد يجن لابسه ، وهو لذلك مثل الدرع السابغة يجعلك بمنجاة من الطعنات ، ولا يشعرك بسائر الأضرار الأخرى ، وسأنتهى من هذا الكتاب غير المبارك فى مدى شهرين ، وأصبح رجلا حراً ، ويبدو لى أننى سأجد حينذاك سعادة لم أشعر بمثلها ، ومع ذلك فإنه يجب ألا أقول عن هذا الكتاب إنه غير مبارك ، فلقد تمنطقت به مثل الدرع مدة سنتين أتقى به الطعنات غير مبال بأشياء كثيرة » .

وقد أصيب هذا الكتاب الذى زف كارلايل إلى صديقه إمرسن بشرى قرب الإنتهاء منه بكارثة لم تكن فى الحسبان ، وقد قابل كارلايل هذه الكارثة بصبر عجيب وتجلد غير عادى ؛ وهذا ما كتبه لصديقه إمرسن عن هذه الكارثة غير المنتظرة « استعار أحد الأصدقاء أصول الكتاب – وهو صديق عطوف رفيق ولكنه صديق مهمل – ليكتب ملاحظات عليه ، وفى ذات مساء منذ شهرين جاءنا هذا الصديق مرتبكاً والهاً مستطار اللب ، فقد ترك الأصول بغير عناية فمزقت جميعها على أنها نفاية أوراق لا لزوم لها ، ولم يبق منها سوى ثلاث أو أربع ورقات ولم يكن هناك مجال للشكوى فقد بدا لى الرجل المسكين فى حالة من يهم بقتل نفسه ، وكان من واجبنا أن تجمع إلينا أطرافنا ونلين معه ، ونطيب خاطره ، ولحسن الحظ أننا استطعنا ذلك برغم ما فيه من صعوبة » .

وهذا الصديق العطوف الرفيق الذى كان إهماله سبب وقوع هذه الكارثة هو الفيلسوف الإنجليزى الكبير المعروف والمفكر الممتاز استيوارت مل ، وكان حينذاك من أصدقاء كارلايل المقربين .

وفى خلال الرسائل التى تبادلها كارلايل وإمرسن إشارات كثيرة إلى معاصريهما من مشاهير الكتاب والشعراء والمفكرين والسياسيين البارزين المعروفين ، مثل

برونج ووردزورث وثوذى وجلادستون ولاندور ، ومما يؤسف عليه أن كارلايل كان كثير الوقوع فى معاصريه ، ولم يسلم من سخريته وتهانفه فى هذه الرسائل ويظفر بالتقدير الخالص والثناء المحض من معاصريه سوى الفريد تنيسون وصديقه جون استيرلنج الذى رأى كارلايل أن يفرد كتاباً للحديث عن مناقبه ، وذكر أخباره وحوداث حياته .

وفى بدء معرفته لجون استيرلينج هذا كتب إلى إمرسن يقول : « يوجدهنا رجل اسمه جون استيرلنج أحببته أكثر من حى لأى إنسان منذ هبط إلى رسول خاص من السماء فى كراجينبتك (يشير فى ذلك إلى زيارة إمرسن له) واختفى فى السماء الزرقاء بعد ذلك ، وقد تدله هذا الرجل بحب والدو إمرسن ، وهذا كل ما يمكن أن يقال ، وقد رأى عندى كتيبك عن الطبيعة وأبصر ما فيه ونفذ إلى أعماقه ، وحمله معه إلى ما ديرا التى نصحه الأطباء بالذهاب إليها » .

وفى سنة ١٨٧٣ التقى الصديقان اللقاء الأخير ، وانقطع تبادل الرسائل بينهما بعد ذلك ، وقد شغل كل منهما بمتاعب شيخوخته ، وأصبح يجد صعوبة فى كتابة الرسائل ، وقد مات كارلايل فى يوم ٥ فبراير سنة ١٨٨١ ، وتبعه إلى القبر إمرسن فى يوم ٢٧ إبريل سنة ١٨٨٢ ، وبالرغم مما كان بينهما من اختلاف فى الأمزجة والطبائع والخلائق والشمائل ظل ما بينهما عامراً طوال حياتيهما ، ولم تشب ودهما شائبة ، ولم تغش سماء صداقتهما سحابة حتى ولا سحابة صيف ، وما أندر ذلك فى الصداقات الأدبية ، بل فى الصدقات الإنسانية بوجه عام ، فهل السر فى بقاء هذه الصداقة سليمة نقية خالصة أن المحيط الأطلسى – بحر الظلمات – كان يفرق فى معظم الأوقات بين الصديقين ؟ وهل قلوب الأصدقاء لا تتقارب ونفوسهم لا تتعادى ولا تتحارب إلا إذا شط المزار وتباعدت الديار ؟ قد يكون ذلك ، وقد يكون فى البعد جفاء كما يقول أكثر الناس .

بلزاك أو نابليون الأدب

حينما بدأ الكاتب النمساوى الكبير استيفان زفايج فى مطالع حياته تفسير الأدب الفرنسى فى النمسا وقع اختياره على بعض آثار بلزاك ، وقدم لها بمقدمة وافية ، واتبع ذلك بكتابة فصول ضافية عن بلزاك ، وكان يريد أن يتوج جهوده الأدبية بكتابة تاريخ حياة بلزاك كتابة مفصلة مستوعبة جديرة بمكانته العالية وقدرته الخارقة ، ودأب فى جمع المواد لها والاحتفال بها ، ولم ينفك عن استطلاع الآفاق الجديدة فى مشارفة تلك الشخصية ، والإحاطة بنواحيها المختلفة .

وجمع طبعات عدة من مؤلفات بلزاك وسجل بها ملاحظاته وتعليقاته حتى أصبح منزله متحفاً لآثار بلزاك وما كتب عنه .

ولما سافر فى صيف سنة ١٩٤٥ إلى أمريكا ، وهى تلك السفرة التى لم يعد منها ترك هذه المواد التى كد فى تحصيلها ، وأفنى جهداً فى كتابتها خلفه فى أوربا ، وهناك فى مدينة بترو بوليس أتم كتابه القيم عن حياته المسمى « عالم الأمس » وقصة « اللعبة الملكية » وأراد أن يستأنف الكتابة عن بلزاك قبل موته بقليل ، فطلب إلى أصدقائه فى أوروبا أن يوافوه ببعض مذكراته عنه ، ولكن الظرف الذى أرسل إليه رد إلى أوروبا كما هو دون أن يفض غلافه لوفاة المرسل إليه !

والظاهر أن زفايج حاول العودة إلى تناول موضوع حياة بلزاك ، ولكنه رأى أن فهم تلك الشخصية الضخمة فى شتى مواقفها ومختلف ظلالها من وراء

قدرته وهو بعيد عن مستنداته وأضابيره ومذكراته ووثائقه ، وفضلا عن ذلك فقد كان يشعر بأن قواه قد استنفدت ، وأن خاتمته قد اقتربت ، وأنه قد أصبح فى عالم الأمس الذى صوره فأبدع تصويره .

وبرغم ذلك فإن ترجمته لحياة بلزاك التى أشرف على إخراجها صديقة ريشارد فريدنتال مطبوعة بطابعه ، خليقة بعبقريته ، وإن كانت لم تبلغ ما كان يريده لها من التجويد والإبداع والاستيفاء والشمول .

وقد روى لنا فيها قصة هذه الشخصية العجيبة التى بدأ صاحبها حياته الأدبية بقوله « ما بلغه نابليون بسيفه سأبلغه بقلمى » وقد استطاع بعد جهاد شاق يكاد يكون من وراء طاقة البشر أن يحقق قوله ، وينال منتهى أمله .

والأرجح أن غزواته وفتوحه أبعد أثراً وأبقى ذكراً من غزوات نابليون وفتوحه ، وقد خلق بلزاك عالما من عوالم الخيال حافلاً بشخصيات كثيرة منوعة ، مختلفة المنازع ، متباينة السمات .

وقد صور لنا زفايج طفولة بلزاك ونشأته القاسية الحزينة تصويراً بديعاً ووصفها وصفاً دقيقاً .

وقد ورث بلزاك الحيوية الدافقة والبنية الوثيقة والقوة العارمة عن أبيه ، كما ورث عن أمه دقة الإحساس وقوة الشعور .

ومما يسترعى النظر فى علاقته بأمه أنه لم يلق منها عطفاً ولا حنانا ، بل رأى جفوة وشدة ، ولم يستطع زفايج أن يعلل ذلك تعليلا مقبولا .

وقد قال بلزاك فى رسالة له « لم تكن لى أم » وكانت تحاول على الدوام إبعاده عن منزل أبيه وهو فى مرحلة الطفولة وفى حاجة إلى العطف والتشجيع والتوجيه .

وبرغم سماحة نفسه فإنه لم يستطع أن ينسى المعاملة السيئة التى عاملته بها ،

قال عنها لزوجته «إن أمي سبب كل ما أصابني فى الحياة من سوء».

وقد وصف طفولته الحزينة وآلامه فى روايته «لويس لامبير» وفى حديثه عن شخصية رافائيل فى رواية «جلد الأسى»، وقد وجد صعوبة فى الخضوع للنظم الصارمة التى كانت متبعة فى المدرسة التى ألحقته بها أسرته، ولم يلحظ معلموه ما كان يعتمل فى نفسه ويجول بخواطره، وظنوه كسولا غبياً عنيداً بليداً، وكان نصيبه من الضرب والاضطهاد والعقاب أوفى من نصيب غيره، ولم يستطع أحد فى المدرسة أن يتبين فى هذا التلميذ «الخائب» سمات العبقرية ودلائل التفوق والنبوغ، وآثار القوة الكامنة المدخرة.

وكان متخلفاً فى اللاتيني واللغة بوجه خاص، ولم يخطر ببال أحد من أساتذته أن هذا الطالب كان يشرد بفكره إلى عوالم أخرى، وأنه الوحيد بينهم الذى كان يعيش عيشة مزدوجة.

وكان الذى يعينه وهو فى الثانية عشرة من عمره على احتمال قسوة الحياة هو القراءة والاطلاع، وكان عالم الكتب يلطف همومه، ويهون آلامه وما يلقى من إهانات.

وكان يلتهم الكتب المختلفة سواء كانت كتباً فلسفية أو علمية أو دينية أو أدبية، وهكذا اختزن عقله حقائق ومعلومات وألوانا من المعرفة كثيرة منوعة. وكان سريع القراءة، قوى التحصيل، عجيب الذاكرة، تستوعب ذاكرته كل ما يقرأ وما يسمع وما يفكر فيه، فلا تغيب عنه شاردة ولا واردة، ولا ينسى صغيرة ولا كبيرة، وكانت ذاكرته قوية فى كل ناحية من نواحيها، فهو لا ينسى الأمكنة ولا الأسماء والوجوه، ويتذكر المواقع والمواقف والظلال والألوان.

وترك تلك المدرسة الصارمة النظام فى الرابعة عشرة من عمره، وعاد إلى

بيت أبيه ، وألحق بمدرسة فى بورز ليتم تعليمه ، ولما انتقلت الأسرة إلى باريس فى آخر سنة ١٨١٤ ألحق بمدرسة داخلية ، ولم يظهر فى هذه المدرسة تفوقاً ملحوظا ، بل أظهر تخلفا وإخفاقا وإعراضا عن الدراسة .

وحصل على شهادة البكالوريا بعد لأى ، وأخذ يتدرب على أعمال المحاماة ، ولكنه كان كارهاً لتلك المهنة لأنه أراد أن يكون كاتباً مؤلفاً .

وسمع أهله بذلك فانكروا عليه هذا الاتجاه وعنفوه من أجله ، وكان أشدهم تحاملا عليه وزراية به والدته التى عدتها كبيرة من الكبائر أن يفكر ابنها فى أن يصبح مؤلفاً ! .

كانت أسرته تعتقد أن الأدب والكتابة والتأليف لا يمكن أن تمنح ابنها مرتباً منتظماً ، فالأدب نوع من الترف قد ينغمس فيه أمثال الفيكونت شاتوبريان وهو بقصره الجميل فى بريتانى ، أو المسيو لامارتين أو ابن الجنرال هيجو ، ولكن بلزاك ابن الأسرة المتوسطة الحال ليس من حقه أن يكلف بالأدب ويفرغ للتأليف ! .

ومتى أظهر هذا الشاب المزهو استعداداً للتأليف وقابلية للكتابة ؟ لقد كان بالفصل فى مؤخرة الطلبة ، ولم يقرأ له أحد مقالاً قد دبجته يراعته ، ولم تذع له مجلة من المجلات المعروفة أو المغمورة بحثاً أو قصيدة ، فكيف جاءه النبوغ وتنزل عليه وحى البيان ؟

وقد أعلن بلزاك رغبته هذه فى وقت كانت الأسرة قد أخذت تستهدف فيه لأزمة عسراء ، فقد كان أبوه ممن يفيدون من الحروب النابليونية ، وجاءت عودة البوريون إلى الحكم ، ووقفت المعارك فى أوربا ، وقل دخل والد بلزاك ، واضطرت الأسرة إلى أن تترك باريس وتأوى إلى الريف تحريًا للاقتصاد ، وفى إبان هذه الأزمة يريد ابنها أن يصبح مؤلفاً ! خطب فادح ومصيبة كبيرة !

واتفق رأى الأسرة وأصدقائها على رده عن هذا العزم وكبحه عن مطاوعة هذه النزوة العارضة .

ولكن أو نوريه كان قد عقد العزم على ذلك ، وأصر عليه ، وركب رأسه ، وأبى لاستماع إلى النصح ، وأيدته فى موقفه أخته المحبوبة لورالتى راقها أن يصبح أخوها علما من أعلام الأدب ، وقطباً من أقطاب البيان ! أما والدته فكانت ترى فى ذلك ما يحط من قدر الأسرة ، ويهدم مكانتها ، فكيف ترفع رأسها ويزول خجلها حينما يقال إن ابن مدام بلزاك قد أصبح من هؤلاء الذين يكتبون الكتب ، ويتكففون بالعمل فى المجلات ! يجب وضع حد لهذا ، وألا يمكن هذا الأحمق الطائش من الإمعان فى هذا السلوك الشائن ! .

ولكن فى هذا الموقف تجلت قوة إرادة أنوريه الصلبة الجبارة التى لا تلين ولا تنثنى ، والتى لم يكن لها نظير فى أوروبا بأسرها بعد هزيمة نابليون ، فما يريده أونوريه بلزاك هو الحق الذى لا محيد عنه وغيره هو الباطل الذى يجب تجنبه ! ومتى اعتزم أمراً فإن فى استطاعته التغلب على العقبات مهما كانت ، فلا الدموع أو البسمات ولا الإغراءات أو الشفاعات تستطيع أن تحمله على تغيير خطته والنكول عما أراده .

ولقد انتوى أن يصبح كاتباً كبيراً لا محامياً شهيراً ، وسيشهد العالم أنه قد حقق بغيته وعرف رسالته ، ولقد صمم على أن يجرب حظه فى عالم التأليف ء وليس من حق أحد أن يسأله عن الطريقة التى سيتبعها فى القيام بهذه التجربة لأن هذا كان فى نظره من أخص شؤونه التى يجب أن تترك له حرية التصرف فى تناولها وعلى الأسرة أن تمده بمبلغ يسير من المال يمكنه من ذلك ، وقطع على نفسه عهداً بألا تتجاوز المدة التى يعتمد فيها على مساعدة أسرته عامين ، فإذا لم

يشتهر ويشق طريقه ويصبح من الكتاب البارزين فإنه سيعود إلى مكتب المحاماة .

وقبلت الأسرة هذا الشرط ، وأمدته بالقليل من المال ، وهكذا تغلبت إرادة أو نوريه بلزاك فى أول معركة حاسمة من معارك حياته الحافلة بالمعارك والمغامرات .

وكانت والدته تعتقد أنه سيثوب إلى رشده ، وتنجلى عنه هذه الغيابة ، فصحبته إلى باريس ، واستأجرت له حجرة ضيقة قذرة مظلمة ليضيق بها وينفر منها ويعود إلى عش الأسرة فى الريف الجميل .

وكانت والدته تحاول أن تلين من حدة إرادته وتنال من قوة عزمه ، ولكن خياله القوى كان يخلق من هذا الضيق سعة ، ويخرج من هذا البؤس نعيما ومتعة .

وأعد بلزاك الأقلام والمداد ، ولم يبق سوى شيء واحد لا يخلو من الأهمية وهو ماذا يكتب ؟ وأى موضوع يتناول ؟ .

ولم يكن يدرى بعد هل هو فيلسوف أو شاعر أو عالم أو كاتب مسرحيات أو مؤلف قصص وروايات ! كان يشعر بقوة تدب فى نفسه ، ولكن أين يوجه هذه القوة ؟ كانت هذه هى المشكلة !

وكان يرى أن عليه أن يخرج للعالم شيئا يمكنه من الاعتماد على نفسه والاستقلال عن أسرته ، فأخذ يغوص فى الكتب ليستخرج موضوعاً ، وأمضى شهراً وهو يبحث وينقب ويتحسس طريقه .

وأرجأ الكتابة فى المسائل الفلسفية لأنها تستلزم بحثاً طويلاً شاقاً ولا تدر ربحاً سريعا . وكان يعتقد من ناحية أخرى أن قوته لا تسعفه فى التأليف الروائى وأستقر رأيه فى النهاية على أن يكتب مسرحية على نمط تمثيليات شلر وشينييه

والفيبرى ، وأخذ يبحث عن موضوع لهذه المسرحية ، واجتهد فى أن ينتهى من كتابة هذه المسرحية قبل أن تعود إليه والدته وتسأله هذا السؤال المحرج الخطير وهو « كيف أمضيت وقتك ؟ » .

وأقبل على التأليف بحماسة قليلة النظير ، وأكب على العمل ليلاً ونهاراً ، ولم يكن يملك ما يرفه عن نفسه من عناء العمل ، وكان فقيراً زرى الملابس معذباً محروماً فى المدينة العظيمة الحافلة بألوان المتع والمسرات ، وفى خلال ذلك كان يعرض له ذلك الشك المؤلم الذى يعرفه الكتاب والشعراء فيسائل نفسه « هل أنا من أصحاب المواهب ؟ وهل أوتيت البيان والقدرة على الكتابة والتأليف ؟ » .

وأتم مأساة كرومويل ، وحملها إلى أهله فى الريف ، وأعجبت الأسرة بهذه الباكورة الأدبية ، وأرسلتها إلى أحد الأساتذة المدرسين ليبدى فيها رأيه ويعرضها على محك النقد ، وأصدر الأستاذ حكمه بعد قراءتها ، وكان مضمونه أن المسرحية غير موفقة ، وأن من الخير لكاتبها أن يستغل وقته فى كتابة المآسى أو الملهيات ، وأنه يصح أن يشتغل بالأدب إلى جانب عمل آخر ! .

وكان هذا هو أشد ما يخشاه بلزاك ، لأنه كان يحس أن التوفيق فى التأليف يقتضى الانقطاع له ، وكانت مدة التعاقد بينه وبين أسرته لم تنته بعد ، فليجرب حظه مرة أخرى ، وليحاول من جديد ، واستأنف الجهاد فى سبيل التأليف والاستقلال والحرية والمجد والشهرة .

وأخذ يفكر فى شىء يسوق إليه النجاح السريع . وأدار الطرف فيما حوله فوجد أن القصة هى التى تؤدى إلى هذا النجاح السريع المطلوب ، وقد كانت أوروبا وهى فى غمرة الحروب النابليونية قد أرهفت أعصابها واستثير خيالها فهى ليست فى حاجة إلى التسلى بعالم القصة . ولكن السلام قد استقر ، وهدأت الحياة ، وأصبحت عادية مألوفة ، فعادت الرغبة إلى الاستمتاع بعالم القصة

الخيالى ومتابعة مصاير أبطالها وراجت الروايات التاريخية ، وغزت فرسان السير ولترسكوت أوروبا بسيوفهم العتيقة الطراز ودروعهم اللامعة ، فصمم بلزاك على أن يكتب رواية تاريخية مجاراة لهذه النزعة السائدة ، ورغبة فى الاستفادة من هذه الفرصة السانحة ، وكتب قصة فالترن ، وكان نصيبها من الإخفاق كنصيب مسرحية كرومويل بالرغم من أنه ملأها بالوقعات والمحابس والجنود المأجورة والنبلاء الأسرى وأعمال البطولة وأفاعيل القسوة .

وأتبعها بقصة أخرى خانه كذلك فيها التوفيق ، وأنذره أبوه بأنه قد آن الأوان ليضع حداً لهذا الإخفاق المتوالى والإعراض عن هذا الهراء الذى يسميه تأليفاً ويبدأ بناء مستقبله من جديد ، وقد احتمل بلزاك أقصى ضروب الحرمان ، وبذل أقصى ما يستطيع من جهد ليعتمد على نفسه ، ويصبح فى غير حاجة إلى مساعدة أسرته ، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، فلن ينقذه من هذا المأزق سوى معجزة ، وكان بلزاك ممن يؤمنون بالمعجزات ، وكان مصدر هذا الإيمان بالمعجزات فرط إحساسه بالقوة الهائلة الرهيبة الدفينة فى نفسه .

وقد استطاع بالجهد المتواصل والدؤوب المستمر أن يظفر ببغيته ، ويحقق استقلاله ، وينال المجد الأدبى ، ويظفر بالخلود ، وأخرج فى مدى عشرين عاما أكثر من سبعين قصة كبيرة يكاد ينعقد الإجماع على أنها جميعها من أحسن طرائف الفن وأبقى ذخائر الأدب .

وكان إذا عكف على تأليف قصة لا يترفق بنفسه فى العمل ، فينهض من فراشه فى منتصف الليل والناس نيام ، ويوالى الكتابة حتى الساعة الثامنة مستعينا على استحثاث خواطره باحتساء القهوة السوداء ، ويمضى يومه فى المراجعة والتصويب .

وقد صور لنا زقايج فى كتابه القيم حياة بلزاك فى جميع أدوارها وشتى

مراحلها وأرانا أن طريقه إلى المجد والشهرة لم يكن مفروشا بالورود ممهداً خالياً من العقبات ، وأنه تجرع مرات آلام الخيبة والإخفاق ، وذاق ذل الهزيمة والعجز قبل أن ينتصر ويوفق ، ويمكن أن نستخلص من هذه الحياة الحافلة بروائع الإنتاج أن الإرادة القوية وحدها لا تكفى إلا إذا حدد الإنسان هدفه ، وحصر جهده .

ولقد كانت عظمة بلزاك كامنة فى قوة إرادته الجبارة ، وكانت هذه الإرادة الفذة القادرة تزيد النجاح ، ونيل المجد والنفوذ فى أى ميدان من ميادين النشاط الإنسانى ، ويرى زفايج أن بلزاك إن لم يكن قد أصبح كاتباً عظيماً فإنه كان لابد أن يصير قائداً من طراز نابليون أو سياسيًّا من نوع تاليران أو خطيباً على شاكلة ميرابو ، أى أن وصوله إلى القمة كان حتماً مقضيًّا وقدراً لابد منه .

ولزاك كسائر الكتاب والشعراء العظام والفلاسفة الأعلام مشكلة يتناولها كل جيل من الأجيال ، ويجرب فى فهمها واستيطان دوافعها وتحليل فنها نصيبه من الفهم والدراية والشعور والإحساس ، ومن رأيى أن زفايج قد استطاع بحسه المرهف وبصيرته النافذة وقدرته على الاستقصاء أن يعيننا فى كتابه الممتع على فهم بلزاك وتأمل مسارب نفسه ، وغوامض وعيه ، وظاهر من بين سطور الكتاب وثناياه أن زفايج لم يكن مفتوناً بشخصية بلزاك ولا مغالياً فى الإعجاب بها ، ولكنه مع ذلك قد شملها بعطفه وأسبغ عليها من فنه ما قربها إلى أفهامنا وقلوبنا .

مدام دى ستايل وموقفها من نابليون

من أهم نتائج الثورة الفرنسية وأبقى آثارها أنها أيقظت الوعى القومى ، ونبهت الشعور الوطنى ، وبدأت فى أوربا عهد الحركات القومية والتطلع إلى الحرية والمساواة والحكم النيابى ، ولم تؤثر هذه الاتجاهات الجديدة فى العلاقات السياسية بين الأمم المختلفة فحسب ، بل أثرت كذلك فى الصلات الثقافية ، والروابط الأدبية ، والتبادل الفكرى .

ولقد كانت الصلات الثقافية قبل عهد الثورة الفرنسية مجرد تبادل أفكار بين أفراد من بلاد مختلفة وأرضين نائية ، ولكنهم مع ذلك تجمعهم رابطة واحدة وينظمهم عقد الأدب ، وتؤلف بينهم جمهورية التفكير ، أما بعد الثورة فإن التلاقى الفكرى أصبح مقابلة بين آداب قومية مختلفة اللون متباينة المنزع ، وقوى الاعتقاد بأن الأدب والفلسفة وسائر مقومات الحياة الثقافية ليست من عمل الأفراد فى عزلتهم الفردية ، وإنما هى نتيجة لأحوال البيئة وملابسات العصر والتقاليد القومية ، وقد تأثر بهذه الفكرة كثيرون من مفكرى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان للكاتبة الفرنسية القديرة الموهوبة مدام دى ستايل أثر كبير فى ترويج هذه الفكرة وإذاعتها والدفاع عنها بما أوتيت من بلاغة أداء وقوة بيان واجتراء على إعلان ما تعتقد أنه الحق والإصرار عليه .

واسم مدام دى ستايل هو آن لويزجرمين نكر وقد ولدت فى باريس سنة ١٧٦٦ ، وهى ابنة الوزير الاقتصادى المالى المعروف جاك نكر الذى اشتهر أمره فى أواخر عهد لويس السادس عشر ، وكان هذا الرجل معقد آمال الطبقة

المتوسطة فى فرنسا ، وقد حاول أن يصلح أحوال فرنسا المالية يعد فوات الأوان ، وتمكن الفساد ، وتأبيه على الإصلاح وجهود المصلحين .

وقد تزوجها إريك ما جناس بارون دى ستايل هولستاين لقوتها العقلية البارزة وما كان ينتظر أن ترثه من أبيها الثرى فإنها لم تكن موفورة الحظ من الجمال ، وقد رقى زوجها إلى منصب وزير السويد المفوض ، وقد أرضى ذلك حبها للظهور والاستعلاء ، ونالت المكانة التى كانت تطمح إليها ، وقد كانت مدام دى ستايل على ذكائها المتوقد وعمق تفكيرها وغزارة علمها امرأة مترامية الآمال ، حريصة على الشهرة ، محبة للظهور ، تريد أن تسترعى الأنظار ، وتخلب العقول ، وتشغل الأفكار ، وتحدث حدثاً ، وتترك فى الدنيا دويًّا ، وتود أن تصبح فى طليعة القادة والزعماء ، ولا بأس عندها من المغامرة والمخاطرة فى هذا السبيل ، وتحدى الطغاة والجبابرة المستبدين ، ولو كان على رأسهم نابليون العظيم .

وقد بدأت حياتها الأدبية برسالة عن روسو تناولت فيها كتاباته وأخلاقه ، وقد طوفت فى الآفاق ، وزارت معظم البلاد الأوربية ، وألمت بأحوالها وعرفت نظمها والكثير من دخائلها ، وكانت محبة للاستطلاع باقعة سئولا ، قوية الملاحظة ، سريعة الفهم والإدراك .

وحبها الشديد للحرية ومطامعها السياسية ، وصراحتها فى إبداء آرائها جعلت نابليون يضطهدها ويقاومها ويتابعها بنقمته أينما حلت .

وقد كان نابليون بوجه عام سيئ الرأى فى النساء ، ولعل المرأة الوحيدة التى حازت إعجابه ، وظفرت بتقديره هى والدته ليتيزيا ، ولم يكن من رأيه مساواة المرأة بالرجل ، وكان يؤثر استعباد المرأة وخضوعها للرجل . وقد حاولت المرأة

أن تطالب بحقوقها حينما اجتاحت الثورة فرنسا ، ولكن بعض المؤرخين يرون[١] أن النساء أظهرن حينذاك حماسة واندفاعاً أكثر مما أظهرن من حكمة وتبصر ، وأن هذه الحماسة المسرفة كانت لها آثارها السيئة ؛ وقد أحدث ذلك حركة رجعية ترمى إلى الحد من حرية المرأة ، وكان لنابليون شيء من العذر فى محاولته إيقاف الحركة النسائية إبقاء على النظام وصيانة للأمن ، ومن مأثور أقواله « لن يكون للنساء تأثير فى بلاطى ، وقد يضمرن لى الكراهة ، ولكننى سأظفر بالهدوء والطمأنينة » وقد لوحظ أن هذه المعاملة زادت النساء تعلقاً به وإكباراً له . ولم يشذ عن ذلك سوى بعض النساء القويات الشخصية ومنهن مدام دى ستايل .

وقد لاحظت مدام دى ستايل أن نابليون كان يحترم الخصم الذى يواجهه ويثبت له ويقارعه الحجة بالحجة ، وقد كانت حاضرة أمره فى سنة ١٧٩٨ حينما تراجع وتخاذل تلقاء سيدة سريعة البديهة مفحمة الجواب ، فقد تقدم نابليون من سيدة فى الصالون أثار جمالها وذكاؤها الإعجاب ، وقال لها فى صراحة نادرة « أيتها السيدة إنى لا أحب النساء اللواتى يخضن فى السياسة » فأجابته قائلة « إنك على حق أيها القائد ، ولكن فى البلاد التى تقطع بها رؤوسهن من الطبيعى أن يحاولن تعرف أسباب ذلك ! » فلم يحر نابليون جواباً .

ومن رأى مدام دى ستايل أن نابليون كان رجلا تسكته المقاومة الحقة ، وأن الذين صبروا لطغيانه واحتملوه هم شركاؤه فى الذنب ، وقد كتبت فى مذكراتها تقول »[٢] لا يسعنى إلا أن أفكر دائماً فى أن بونابرت لو كان لقى بين

---

(١) راجع صفحة ٢٤ من كتاب « شخصية نابليون » للكاتب المؤرخ هولاندروز .
The Personality of Napoleon

(٢) راجع صفحة ١٦ من مذكرات مدام دى ستايل .
Memoirs of Madame de Stael

خصومه رجلا مستقيماً على خلق الأوقفه ذلك عند حده ، وسر براعته قدرته على إرهاب الضعفاء والاستفادة ممن لا خلاق لهم ، وقد كان حينما يلقى الشرف وجهاً لوجه تبطل حيله كما تقصى الأرواح الشريرة علامة الصليب » وهى تذكرنى فى ذلك بقول الشاعر خليل مطران فى قصيدته « مقتل بزرجمهر » منددا بكسرى :

هم حكموه فاستبد تحكماً وهم أرادوا أن يصول فصالاً

والواقع أن رأى مدام دى ستايل ينطوى على حكمة بالغة وحق عميق ، فإن المقاومة الثابتة الصابرة تكشف أحسن صفات الرجل القوى الممتاز ، أما الاستسلام والخضوع فإنهما يغريانه بالجموح والإمعان فى الطغيان .

وقد حاولت مدام دى ستايل فى بادئ الأمر أن تستميل نابليون وتستولى عليه بعد انتصاراته فى إيطاليا ولكنها لم توفق فى ذلك ، لأن نابليون بطبيعته كان لا يعبأ بالنساء المفكرات ، وبالرغم من ذلك ظلت معجبة به حتى بعد عودته من مصر ، ولكنها وجدت أنها كانت مخدوعة فيه ، ولاحظت أن طبعه الأصيل قد أخذ يتكشف ويظهر ، فحالما توطد مركزه ، وامتد ظله ، وسالمته الليالى ، طغى وتجبر ، وتعالى وتكبر ، وأصبح لا يطيق المناقشة ، ولا يحتمل أدنى مخالفة أو معارضة ، فحز ذلك فى نفسها ، وأثارها ، فبسطت فيه لسانها ، وشنعت عليه ، وسمعت به ، فخاصمها نابليون ، ونصب لحربها ولم تكف هى عن مقاومته بلسانها الطويل ، وقلمها البليغ ، وحجتها الناهضة ، وكانت معروفة المكانة ذائعة الصيت قبل مخاصمتها لنابليون ، ولكن المعركة التى نشبت بينها وبين نابليون جعلتها من الشخصيات الأوربية العظيمة البارزة التى يشار إليها بالبنان ، ويتردد ذكرها على كل لسان .

وقد حاولت فى كتابها عن إيطاليا المعروف باسم كورين وفى كتابها عن

ألمانيا أن تنقل رسالة فرنسا الحرة إلى إيطاليا وألمانيا ، وأن تستنهض همم الإيطاليين ، وتثير عزائم الألمان ، وحاولت أن تسترعى نظر هاتين الأمتين إلى الحياة السياسية ، وطلب الحرية الفردية ، والوحدة القومية ، وحاولت من جانب آخر أن تعرف الفرنسيين بالأدب الألمانى وفلسفة كانت وفخت وشعر شلر وجيتى ، وقد قدمت للفرنسيين صورة حية مشرقة للأدب الألمانى ، قربته إلى نفوسهم ، وأغرتهم بالاطلاع عليه ، والإعجاب به ، وإكباره وإجلاله ، والتأثر به وقد ظل لهذه الصورة البديعة سحرها الأخاذ حتى كشفت حرب السبعين عما بها من خطأ ومجافاة للواقع ، فألمانيا الحالمة الوادعة المثالية الشاعرة التى شاهدتها مدام دى ستايل عن قرب كانت – منذ بدأت مدام دى ستايل تصويرها – قد أخذت تتحول رويداً رويداً إلى ألمانيا الموغلة فى المادية المعتزة بقوتها النزاعة إلى الكفاح والعدوان .

ولم تتعرض مدام دى ستايل فى كتابها لمشكلات ألمانيا السياسية ، ولكن غرضها كان واضحا ، فقد كانت ترمى إلى إيقاظ الشعور القومى الألمانى ، وتحبذ توحيد الجهود ، وتوحيد الجهود لابد أن يتجه إلى مقاومة فرنسا وتحدى مطامع نابليون ، ولذا لا نعجب إذا علمنا أن الرقابة التى فرضها نانليون على الآثار الأدبية لم تسمح بظهور الكتاب فى فرنسا سنة ١٨١٠ ، فقد كتب لها الوزير المشرف على الرقابة رسالة مؤدبة رقيقة يقول لها فى خلالها «إن الفرنسيين لم يصل بهم الحال إلى حد أن يلتمسوا المثل والنماذج بين الأقوام الذين تعجب بهم » وصارحها بأن كتابها الأخير – عن ألمانيا – ليس كتاباً فرنسياً .

ولما تم طبع الكتاب فى سنة ١٨١٣ قبل معركة ليبزج بأيام قلائل نشرت الخطاب فى مقدمة الكتاب ، ودافعت عن نظريتها فى القومية ، وأبانت أن اختلاف اللغات والحدود الطبيعية وذكريات التاريخ المشتركة وما إلى ذلك من

العوامل تساعد على أن توجد الفرديات العظيمة التى تسمى «أمما» وذهبت إلى أن إخضاع أمة لأمة أخرى من الأمم أمر ضد الطبيعة ، ودافعت عن ألمانيا قائلة «من يفكر اليوم فى إمكان إخضاع إسبانيا أو إنجلترا أو فرنسا ؟ ولماذا تكون الحال مختلفة فى ألمانيا ؟» .

وقد ظلت مدام دى ستايل وفية لفكرة القوميات الحرة ، مؤمنة بإمكان تعاون الأمم الحرة فى سبيل الحرية النيابية الدستورية على النمط الإنجليزى ، فهى كانت تؤمن بالاستقلال الثقافى والأدبى ، وتؤمن فى الوقت نفسه بالتعاون الأممى .

وكانت لا تستريح لهذه الوحدة المتكلفة المصطنعة التى حاول نابليون أن يفرضها فرضاً على الدول الأوربية .

ولما زارت روسيا فى سنة ١٨١٢ أعجبت بالملابس القومية الروسية ولم تر أن يتركها الروسيون ويلبسوا الزى الأوربى ، ولم ترض أن يعم القانون النابليونى الأمم المختلفة ، لأنها كانت ترى أن حرية الأمم تستلزم أن تحكم كل أمة نفسها بالأسلوب الذى يلائمها ، ويطابق أحوالها الخاصة وعاداتها وتقاليدها ، وعندها أن الأمم الحرة يجب عليها أن تجنح للسلم وإلا فقدت حريتها واستقلالها ، والحرية تقوى الأمم وتشد بنيانها ، ولكن الحرية التى تسند الأمم وتشد منها هى الحرية المقترنة بالعدالة والإنصاف .

وقد استطاع الفرنسيون فى أول عهد الثورة أن يثبتوا لأوربا بأجمعها فى حرب الاستقلال ، وكانوا أقوى من أوربا جميعها بقوة الرأى العام ، ومع حضها فرنسا على الاستمساك بأهداب السلم وتحذيرها لها من الانتشار بخمر النصر والغلبة فإنها كانت تقر الحرب الدفاعية ، وأشادت فى كتابها عن ألمانيا بفضل الحماسة وقدرتها على أن تسمو بالناس فوق المصالح الخاصة ، واسترعت النظر

إلى عظمة التضحية فى سبيل الأغراض النبيلة ، وذكرت للإيطاليين والألمان المغلوبين على أمرهم أن المستقبل لهم إذا صدقت وطنيتهم وصحت عزيمتهم.

ولكن الاستقلال لم يكن له قيمة فى رأى مدام دى ستايل إلا إذا كان استقلال أفراد أحرار قد احتاطوا لأنفسهم من خطر الطغيان الداخلى ومحاولة سحق الحرية الشخصية والاستقلال الفردى.

وأغرت الانتصارت المتوالية نابليون باحتقار ثقافات الأمم المختلفة ، ووسعت شقة الخلاف بينه وبين أنجلترا ، وكانت مدام دى استايل لا ترى تغليب ثقافة على ثقافة أخرى ، وكان إعجابها بنظام الحكم فى إنجلترا إعجاباً شديداً ، وقد زاد ذلك ما بينها وبين نابليون فساداً ، وعمق الهاوية التى تفصلها.

وقد ظلت إلى النهاية وهى تحمل علم المعارضة لنابليون برغم الصواعق التى كان يرسلها عليها ، وقد زارت فى سنة ١٨١٣ الكثيرين من الوزراء والساسة الأعلياء ، وحرضتهم على مقاومة نابليون ، وكانت تجتهد فى أن تفرق بين نابليون وبين فرنسا ، فمحاولة إسقاط نابليون كانت فى نظرها مسألة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن محاربة فرنسا ، بل إن مصلحة فرنسا الحقة تقتضى إبعاد نابليون وإقصاءه عن عرش فرنسا ، وكانت أكثر إخلاصا لمبادئ الثورة من أن تميل إلى ناحية البوربون ، كما فعل الكاتب الفرنسى الكبير شاتوبريان ، وأخطر جريمة اقترفها نابليون فى نظرها هى القضاء على الحرية الجمهورية فى فرنسا ، وظل مثلها الأعلى هو الحرية المستنيرة المعتدلة المعقولة أو الحرية التى يتمثلها الكتاب والفلاسفة والحكماء.

وفى ضوء هذه الأفكار كتبت عن الثورة الفرنسية ، وذكرت فيه فكرتها عن نابليون وعهده مفصلة معززة بذكرياتها المرة وتجاربها القاسية ونقداتها اللاذعة النفاذة القوية ، وملخص رأيها فى نابليون أنه كان جنديا قبل كل

شيء ، فهو لا يحفل بمبادئ الحرب السياسية ، وقد بدأ بالقضاء على المثالية الجمهورية فى الجيش ، ثم استعان بالجيش للقضاء على هذه المثالية فى الدولة ، وهو أنموذج مستوفى الشرائط للأنانى المجرد من العطف الإنسانى والذى يرى الناس آلات محتقرة وقطعا فى رقعة الشطرنج ، وهو غريب أجنبى بين الفرنسين ، لا وطن له ولا إيمان ، وهو لا يسعى إلا لمجده الشخصى وعظمته الفردية ، وهو المكيافلى الذى يعد بالسلم ويعمل سراً على إثارة الحرب ، وتهيئة أسبابها ، وإعداد معداتها ، ومادامت مقاليد السلطان فى يديه فهو لا يكف عن الاعتداء وإثارة الحروب ، وليس للدين ولا للأدب من قيمة فى رأيه إلا بمقدار ما يساعدانه على إعلاء سلطانه وبسط نفوذه ، فهو الطاغية بمعنى الكلمة .

ويرى المؤرخ البلجيكى المعاصر بيتر جيل أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة اترخت فى كتابه عن «نابليون ما له وما عليه»[1] أن الكثيرين من المؤرخين الذين نقدوا أعمال نابليون رددوا ما قالته مدام دى ستايل وأعادوه بتفصيلات أوفى وملاحظات أدق واشمل .

وقليل من النساء أو الرجال من استطاع الثبات للطغاة والجبابرة مثل مدام دى ستايل ، ولا نزاع فى أنها قد ضربت للإنسانية مثلاً عالياً فى الدفاع عن الحرية والثبات على المبدأ فى مراجعة الطغيان والاستبداد ومواجهتهما .

(١) راجع ماكتبه عن مدام دى ستايل من صفحة ١٩ إلى صفحة ٢٢ فى كتابه «نابليون ما له وما عليه . Napoleon For And Against.

حياة عاصفة

من الناس من ينظر إلى الدنيا فى ضوء مثل أعلى يتمثله أو فى ظل فكرة سامية يحلم بها ، وتلهمه الرؤى الرائعة والصور البديعة ، فيصبح لا يطيق ما يرى فى الواقع من نقص وعيب ، ويسوؤه ما فى الحياة من إثم ومنكر وظلم فادح وتجبر وطغيان وفساد وفوضى وضعة ومهانة ، ويحز ذلك فى نفسه ويؤرق ليله ، ويقض مضجعه ، ويأخذ عليه مسالك تفكيره ، فإذا كان من تجول بنفسه أمثال هذه الأفكار وتضطرب فيها أمثال هذه المشاعر رجلاً عالى الهمة بعيد الشأو صارم الإرادة استولت عليه رغبة حافزة فى مقاومة الضلالات الفاشية ومحاربتها والقضاء عليها ، وتحقيق ما يتراءى له من وجوه الخير والإصلاح .

ومثل هذه الرغبة النبيلة كانت هى الدافع فى الماضى إلى تصور الجمهوريات الصالحة العادلة ، والمدن السامية الفاضلة ، وكانت باعث الثورات والانقلابات والحركات والاضطرابات التى كثيراً ما باءت بالإخفاق . وابتلى القائمون بها بأشد ضروب البلاء ، ومثل هذه الرغبة فى العصر الحديث كانت هى التى تثير رواد المذاهب الاشتراكية ودعاة الفوضوية والسنديكالية وما إلى ذلك من المذاهب السياسية والاجتماعية التى تهدف إلى إبراء المجتمع من أسقامة ، وتصحيح أخطائه ، وإزالة عيوبه ، وترميمه وسد ثغراته .

والكثرة الغالبة من الناس يقبلون اليسير ، ويرضون بالدون ، وتشغلهم صغائر الحياة وهمومها الحقيرة عن تأمل الأحوال التى يعيشون فيها ، ومراقبة الاتجاهات السائدة فى المجتمع الذى يحتويهم ، ولا تترامى آمالهم إلى أبعد مما

يتطلبه حاضرهم الضيق المحدود ، والواقع أننا لا نعدو الحق إذا قلنا إن حياتهم تشبه حياة السوائم من وجوه عدة ، وبعض هؤلاء الناس قد يحدوهم الطموح الشخصى إلى شق الصفوف ومقارعة الأقران ، واكتساح العقبات القائمة فى سبيلهم حتى يصلوا إلى صفوف العلية ، ولكن القليلين من أمثال هؤلاء من يعمل على إشراك الجماعات فى المزايا أو المنافع التى يريدها لنفسه ، ويحاول أن يقصرها عليها ، وقلة قليلة نادرة من الناس هم الذين يسعون للخير العام والإصلاح الشامل دون أن يفكروا فى علاقة ذلك بمصلحتهم الخاصة أو سعادتهم الفردية .

وفى العهود الغابرة كثيراً ما أخفق أمثال هؤلاء الأفراد النوادر فى إثارة الاهتمام بقضيتهم ، لأن الجهل والفقر كانا أكبر عقبة فى سبيلهم ، وإيقاظ الأمل فى نفوس الجهلة والفقراء كان من المسائل الشاقة التى تكاد تبعث على اليأس .

أما فى العصر الحديث فإن انتشار التعليم على مدى واسع جعل مهمة هؤلاء الأفراد الأفذاذ أجدى وأبعد أثراً ونسبياً أقل خطراً .

وتتشابه الاشتراكية والفوضوية فى أنهما يليحان للعالم الذى نعيش فيه بمثل أعلى وصورة مثلى ، وأمثال هذه الصورة السامية كانت من وحى مفكرين مثاليين قضوا حياتهم فى عزلة وتفكير وتأمل ، ولكن جماعات العمال الكادحين قبلوا هذه الصور الجميلة ، وتعلقوا بها ، وعملوا على تحقيقها ، وقد رزقت الاشتراكية الذيوع والانتشار واكتسبت الكثير من الأنصار والأعوان ، أما الفوضوية فلم تلق انتشاراً واسعاً إلا حينما أخذت صورة السنديكالية النقابية . والاشتراكية والفوضوية فى صورتهما الحديثة قد تأثرتا بمجهود رجلين بارزين ممتازين ، وهما كارل ماركس وباكونين ، وقد عاش هذان الرجلان فى جهاد

متواصل وكفاح مرير ، فماركس من بعض الوجوه يمكن أن يعتبر موجد الاشتراكية الحديثة ، لأنه أفرغها فى القالب الذى عرفت به ، وأعطاها الصورة العلمية ، وأيدها بالشواهد المستمدة من التاريخ والفلسفة والاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع .

وباكونين هو بحق إمام الفوضوية الحديثة الذى قاد حركتها وأوقد شعلتها ، ولكن باكونين لم يكن ندا لماركس فى سعة الاطلاع ، وغزارة المعلومات ، والقدرة على تنظيم الأفكار وتحديدها ، وإجادة التأليف واستيفاء بحث النظريات والتعاليم ، وربما كان أقدر زعماء الفوضوية على ذلك هو الأمير كروبتكين المفكر المعروف .

وقد ولد ميشيل باكونين فى سنة ١٨١٤ من أسرة روسية أرستقراطية ، وكان والده من رجال السلك السياسى ، وكان أبوه حين مولده قد اعتزل الخدمة وأقام فى ضيعة له فى ناحية تيفر ، وقد أراد أن يهيىء لابنه حياة وطنية محترمة فى الجيش القيصرى ، ولكن الفتى الناشىء باكونين كان ثائراً مطبوعاً ، وقد حمل علم الثورة أول ما حمل فى داخل منزل أسرته ، وتحدى سلطة أبيه ، وكانت حياته العائلية الباكرة حافلة بالأحداث الثورية ، وكان يحرض إخوته على الثورة وشق عصا الطاعة ، ولم يكن أبوه من الآباء الطغاة المستبدين ، وإنما كان رجلا ذكى الفؤاد مستنيراً سهلا متسامحاً مع أولاده ، وقد استهدف مع ذلك كله لحملات هذا الابن المتمرد .

ولم يكن باكونين مع ذلك يجهل الجوانب الصالحة فى أخلاق أبيه ، فقد كتب إليه من رسالة « لقد كنت معلمنا ، وقد أيقظت فى نفوسنا الشعور بالخير والجمال وحب الطبيعة ، ونبهت فى أفئدتنا هذا الحب الذى ما يزال يربط بين قلوبنا إخوة وأخوات برباط وثيق ، ولولاك لكنا قد اصبحنا قوماً عاديين

تافهين ، وقد أشعلت فى نفوسنا شرارة حب الحق المقدسة وأنميت فينا الشعور بالاستقلال المترفع والحرية الشامخة ؛ وقد فعلت ذلك لأنك تحبنا ولأننا متعلقون بك مؤثرون لك » .

وقد أحسن أبوه تنشئة أولاده بوجه عام ، وكانت طفولتهم سعيدة هانئة ، وألحق باكونين بمدرسة المدفعية ببطرسبرج ، وأقبل على دروسه الحربية بحماسة وجلد ، وشاهد إخماد الثورة البولندية فى سنة ١٨٣٠ ، فأثر فى نفسه منظر بولندة الثائرة المرعوبة تأثيراً شديداً قوى فى نفسه كراهة الظلم والطغيان ، وضاق بعد ذلك بحياة الجندية ، وترك خدمة الحكومة القيصرية ، وأقبل على دراسة الفلسفة وأعجب بفلسفة هجل ، وكانت حينذاك هى الفلسفة السائدة فى الأندية الفكرية والبيئات المثقفة ، ثم غادر روسيا وذهب إلى ألمانيا ليدرس فلسفة هجل فى منبتها القومى ، وقد ترك روسيا وهو من رعايا القيصر المخلصين ، ولكن سرعان ما وقع تحت تأثير الهيجليين ، ومال إلى آرائهم الثائرة لأنها صادفت هوى فى نفسه ، ثم ساوره الشك فى بعض آراء هجل ونظراته ، ولم يستطيع قبول قول هجل إن الواقع هو المعقول والمعقول هو الواقع ، ثم ترك برلين إلى درسدن واتصل بأرنولد ريج وكان ريج حينذاك يحاول أن يفسر فلسفة هجل تفسيراً يلائم الاتجاهات الحرة ، وكان من المؤمنين بقوة تأثير الأفكار فى عالم السياسة والاجتماع ، وفى ذلك الوقت أصبح باكونين من الذين يدينون بالمبادىء الثورية ، ونشر مقالا فى المجلة التى كان يصدرها ريج وردت فيه إحدى كلماته المأثورة وهى قوله « إن الرغبة فى الهدم هى فى الوقت نفسه رغبة خالقة » وقد اتخذ خصومه الناقمون عليه هذه الكلمة وسيلة لتصويره فى صورة الرجل الثائر الهدام الذى يريد العنف للعنف ، وهو فى الواقع لم يكن كذلك ، وإنما كان يرى أن بناء الجديد يستلزم قبل ذلك هدم القديم .

ولم يكن باكونين ميالا إلى الشدةوالعنف بطبيعته ، والثورات العنيفة فى رأيه ضرورة غير سارة . ومن أقواله فى ذلك « الثورات الدامية فى الأغلب ضرورة لازمة ، وذلك بفضل الغباء البشرى ، ولكنها دائماً شر ، بل هى شر منكر وكارثة كبيرة ، وهى ليست كذلك بالقياس إلى ضحاياها ، وإنما بالقياس إلى سلامة الغرض الذى قامت من أجله الثورة واستيفائه » .

واستهدف بعد ذلك لعداوة حكومة سكسونيا ، فارتحل إلى سويسرة ، ولقى بها جماعة من الاشتراكيين الألمان ، وثقلت عليه وطأة الحكومة السويسرية ، وطالبت الحكومة الروسية بعودته ، فانتقل إلى باريس ، وظل هناك من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٤٧ ، وكانت هذه السنوات من السنوات الهامة فى تكوين أفكاره وبناء فلسفته .

وقد عرف فى هذه الفترة الزعيم برودون ، وقد أثر فى نفسه تأثيراً بالغاً ، ولقى الزعيمين الاشتراكيين الكبيرين ماركس وإنجلز ، وقد نشبت بينه وبينهما معركة حامية ظلت معقودة الغبار إلى حين وفاته . وقد ذكر لنا باكونين ملخص علاقته بماركس فقال :

«كان ماركس يسبقنى كثيراً فى طريق التقدم ، كما ظل حتى اليوم ليس أسبق منى فى سبيل التقدم فحسب وإنما كذلك أغزر منى علماً إلى درجة تبطل معها الموازنة ، كنت حينذاك لا أعرف شيئاً فى الاقتصاد السياسى ، ولم أكن قد تخلصت بعد من التجريدات الميتافيزيقية ، ولم تكن اشتراكيتى سوى اشتراكية غريزية ، وكان هو بالرغم من أنه أصغر منى سنًّا قد سبقنى إلى الإلحاد وأصبح مادياً متمكناً واشتراكياً له وزنه وخطره . وفى ذلك الوقت وضع هو أساس مذهبه الحالى ، وكنا نتلاقى من الحين إلى الحين ، لأنى كنت أحترمه كثيراً لعلمه وإخلاصه الشديد لمذهبه (بالرغم من أن هذا الإخلاص كان مشوباً بالغرور

الشخصى) ، وكنت أسعى باهتمام لاستماع حديثه ، وكان حديثه دائماً نافعاً بارعاً حينما كان لا توحيه الكراهية الحقيرة ، ومما يستوجب الأسف أن ذلك كان كثيراً ما يحدث ولكن لم تكن هناك علاقة وديه صريحة بيننا ، وكان مزاجانا لا يطيقان ذلك ، وكان هو يصفنى بأنى مثالى عاطفى ، وقد كان محقا فى ذلك ، وكنت أنا أصفه بأنه رجل مغرور ماكر خائن ، وكنت كذلك محقا فى ذلك» .

ولم يستطع باكونين أن يقيم فى أى مكان كان حيناً من الزمن دون أن يتعرض لعداوة السلطات الحاكمة ، ففى نوفمبر سنة ١٨٤٧ نفى من فرنسا استجابة لطلب المفوضية الروسية ، وكان ذلك لأنه ألقى خطبة مدح فيها ثورة البولنديين فى سنة ١٨٣٠ ، وأرادت المفوضية أن تكيد له وتبالغ فى تشوية سمعته ؛ وهدم مكانته ، وتزود خصومه بسلاح حاد فى محاربيه ، فأذاعت تلك الإشاعة التى لم يكن لها نصيب من الصحة ، وهى أن باكونين كان عينا للحكومة الروسية ولكنه أصبح غير مرغوب فيه لأنه تجاوز حدوده ، والتجأ باكونين إلى بروكسل ولقى هناك ماركس ، وازداد ما بينهما تباعداً .

وحدثت بعد ذلك ثورة سنة ١٨٤٨ فعاد باكونين إلى باريس ، ومنها ذهب إلى ألمانيا ، وأصبح عضواً فى المؤتمر السلافى الذى عقد فى براغ ، وحاول هناك أن يحدث ثورة سلافية ؛ وفى آخر سنة ١٨٤٨ أذاع بياناً دعا فيه السلافيين إلى الانضمام إلى غيرهم من الثائرين للقضاء على الحكومات الملكية الثلاث المستبدات وهى حكومة روسيا وحكومة النمسا وحكومة بروسيا ، واغتنم كارل ماركس الفرصة فهاجم باكونين قائلاً إن حركة الاستقلال فى بوهيميا غير مجدية لأن السلافيين لا مستقبل لهم ؛ وبخاصة فى الجهات التى يخضعون فيها لحكم الألمان أو لحكم النمساويين .

وقد اتهم باكونين ماركس بأنه متأثر فى ذلك بنزعة القومية الألمانية ، واتهمه

ماركس بتشيعه للنزعة السلافية ، والاتهام من الطرفين كان له ما يسوغه ، وقبل قيام هذا الخلاف بين هذين الزعيمين نشبت بينهما معركة أخطر شأنا ، فقد نشرت الجريدة التى كان يصدرها ماركس أن فى حيازة الكاتبة القديرة جورج ساند أوراقا ومستندات تثبت أن باكونين يعمل جاسوسا للحكومة الروسية ، وأنه أحد المسئولين عما وقع قريبا فى بولندة من الاعتقالات .

وقد أنكر باكونين هذه التهمة ، وأرسلت جورج ساند إلى الجريدة تنفى المسألة وتؤكد أنها باطلة من أساسها ، ونشر ماركس ردها ، وهدأت حدة الخلاف بعض الهدوء ، ولكن منذ إثارة هذه التهمة لم يصف الجو بين الزعيمين اللذين لم يتلاقيا بعد ذلك إلا فى سنة ١٨٦٤ .

وفى أثناء ذلك كانت الاتجاهات الرجعية تستعيد مكانتها وتسترد قوتها ، وفى سنة ١٨٤٩ قامت ثورة فى درسدن ، وأصبح الثائرون مسيطرين على المدينة ، وكان باكونين هو المشرف على الدفاع ومقاومة الجيوش البروسية المهاجمة للمدينة ، وغلبت المدينة على أمرها ، وقبض على باكونين وهو يحاول الفرار ، وبدأ يعرف السجون والمعتقلات فى بلاد كثيرة ومواطن شتى ، وقد حكم عليه بالإعدام فى ١٤ يناير سنة ١٨٥٠ ، وبعد خمسة أشهر استبدل بحكم الإعدام الأشغال الشاقة . وسلم للحكومة النمساوية التى أرادت أن يكون لها فخر معاقبته وتأديبه ، وحكم عليه النمسويون فى دورهم بالإعدام فى شهر مايو سنة ١٨٥١ واستبدل كذلك بحكم الإعدام الأشغال الشاقة للمرة الثانية ، ولقى فى السجون النمساوية معاملة قاسية ، فقد وضعت الأغلال فى يديه ورجليه . وكانت الحكومات كما يظهر تستشعر المتعة فى تعذيب هذا الرجل والتنكيل به . فبعد أن شفت الحكومة النمساوية غليلها منه طلبته الحكومة الروسية من حكومة النمسا . ووافقت على ذلك حكومة النمسا . وأسلمته لها ، فأرسل إلى حصن بطرس

وبولس . ثم أرسل بعد ذلك إلى شليسبرج . وهناك اصطلحت عليه العلل والأمراض فتساقطت أسنانه وهزل جسمه . ولكن هذه الآلام المبرحة لم تلن من عزمه ، ولم تقدح فى عقيدته ، ولم تغير من آرائه . وقد خرج من هذه المحنة وهو أقوى ما يكون إيماناً بمذهبه . وقد صدر أمر بالعفو عن الكثيرين من المسجونين عقب موت القيصر نقولا الأول ، ولكن القيصر الجديد – وهو القيصر الإسكندر الثانى – أبى أن يشمل العفو هذا الثائر العنيد . ولما مثلت والدته بين يدى القيصر تلتمس العفو عن ولدها قال لها القيصر « إعلمى أيتها السيدة أن ابنك لن ينال حريته ما دام حياً » ومهما يكن من الأمر فإنه أرسل فى سنة ١٨٥٧ – بعد أن ظل معتقلا ثمانية أعوام – إلى سيبريا ، وهناك استطاع الهرب فى سنة ١٨٦١ إلى بلاد اليابان وانتقل من بلاد اليابان إلى أمريكا ومنها إلى لندن .

وقد تجرع باكونين مرارة السجن والاعتقال لكراهته الشديدة للحكومات . ولم تنجح الحكومات المختلفة التى عاقبته وأذاقته العذاب فى حمله على حب فكرة الحكومة والإشادة بها . ومنذ عودته إلى لندن وقف حياته على إذاعة روح العصيان والتمرد على الحكومات .

وعاش حيناً فى إيطاليا حيث أوجد جماعة « الأخوة الدولية » أو « اتحاد الثائرين الاشتراكيين » وقد قاومت هذه الجماعة نزعة القومية التى كان يؤيدها الزعيم الإيطالى العظيم متزينى . وانتقل باكونين من إيطاليا إلى سويسرة . وهناك كان من الساعين فى إيجاد « اتحاد « الاشتراكية الديموقراطية الدولى » وكان هذا الاتحاد يرى إلى إلغاء نظام الطبقات . ويقول بالمساواة بين الأفراد من الرجال والنساء وإبطال الملكية الخاصة .

وفى سنة ١٨٦٤ نشأ فى لندن اتحاد العمال الدولى . ووضع كارل ماركس

برنامجه . وأبى باكونين الانضمام إليه لاعتقاده أنه سيلقى الإخفاق . ولكنه – على خلاف ما قدر – انتشر بسرعة تسترعى النظر . وأصبح قوة هائلة فى إذاعة الأفكار الاشتراكية . وقد استطاع ماركس أن يضمه إلى صفه . وأدرك باكونين فى أثناء ذلك أهمية هذا الاتحاد . فصمم على الانضمام إليه . ودخل معه فى هذا الاتحاد عدد كبير من أتباعه فى فرنسا وسويسرة وإسبانيا وإيطاليا .

وفى سنة ١٨٦٩ عقد الاتحاد مؤتمره الرابع ، وظهر فى هذا المؤتمر تياران متعارضان ، فالأعضاء الألمان والإنجليز أيدوا كارل ماركس فى رأيه عن الدولة بعد إلغاء الملكية الخاصة ، وناصروا فكرته فى إيجاد أحزاب للعمال فى الأقطار المختلفة واستعمال النظام الديمقراطى لانتخاب أعضاء يمثلون العمال فى المجالس النيابية ، أما الأمم اللاتينية فقد أيد أعضاؤها باكونين فى مقاومته لفكرة الحكومة ، وكذلك فى الاستعانة بأداة الحكم النيابى ، واشتدت الخصومة بين الطرفين واستمرت الحرب بينهما ، وتبادل الفريقان التهم والشتائم ، وعاود الماركسيون اتهام باكونين بالتجسس للحكومة الروسية بعد أن لقى الرجل منها مالقى ، وشغل باكونين بإثارة ثورة فى روسيا خاصة بتوزيع الأرض ، وصرفه ذلك عن الالتفات إلى الصراع القائم فى المؤتمر الدولى .

ولما نشبت الحرب البروسية الفرنسية انضم باكونين إلى جانب فرنسا ، وبخاصة بعد سقوط نابليون الثالث ، وحاول أن يستنهض عزيمة الناس ويحرضهم على الثورة ، ولكنه لم ينجح ، واتهمته الحكومة الفرنسية بأنه جاسوس لبروسيا ولم يستطع الفرار إلى سويسرة إلا بصعوبة ، وازداد الخلاف بينه وبين الماركسيين حدة ، وقد كان باكونين يعتقد أن تزايد قوة ألمانيا خطر على الحرية لا يستهان به ، وكان يكره الألمان كراهة شديدة ، وكانت كراهته لبسمارك وكارل ماركس من الأسباب الباعثة على إشعال هذه الكراهة ، وقد تأثر

المذهب الفوضوى بهذه الكراهة فإلى اليوم يكاد يكون مقصورا على الأمم اللاتينية ، وقد اقترن على الدوام بكراهة المانيا .

وعقد المؤتمر الدولى العام فى لاهاى سنة ١٨٧٢ ، ويزعم أنصار باكونين أن اللجنة العامة اختارت عقد المؤتمر فى هذا المكان لعدم تمكين باكونين من حضوره لما بينه وبين الحكومتين الفرنسية والألمانية من خلاف ، وهزم أنصاره فى هذا المؤتمر ، وقضى المؤتمر بطرده موجها إليه طائفة من التهم بينها تهمة السرقة بالإكراه ، وقد زود ماركس المؤتمر بالمستندات المؤيدة لذلك تشفياً من خصمه باكونين ، وحرصاً على إبعاده من المؤتمر ليخلو له الجو .

وكانت صحة باكونين حينذاك قد اعتلت اعتلالا شديداً ، وتمكن منه المرض فعاش فى عزلة حتى وفاته فى سنة ١٨٧٦ ، وهكذا عاش باكونين حياة عاصفة ثائرة متحديا كل سلطة دون أن يفكر فى سلامته الشخصية ، وبالرغم من التهم الوضيعة التى وجهت إليه فإن تأثيره فى نفوس أنصاره كان قوياً ، وتختلف مؤلفاته ورسائله عن مؤلفات ماركس اختلافاً جوهرياً ، فكانت يغلب عليها النزعة الفلسفية والاتجاه التجريدى ، ولم يكن يملك مقدرة ماركس على التبسط فى الشرح والاستقصاء وتنسيق المعلومات وتدعيم النظريات ، وتبدو فى كتاباته آثار فوضى حياته واضطرابها ، ولذا لم يستطع أن يستوفى فيها بيان مذهبه وتصوير أهدافه وقد قام بهذه المهمة بعده الزعيم الفوضوى الروسى الأمير كروبتكين .

الزعيم كروبتكين

فى سنة ١٩٢١ وبأحدى القرى الروسية الصغيرة المنعزلة الغامضة الشأن المغمورة الذكر مات الزعيم الفوضوى الخطير الأمير كروبتكين ، بعد حياة عاصفة عامرة حافلة بالأعمال والأفكار والآثار .

وكروبتكين من أصحاب الشخصيات الممتازة التى قد لا نستطيع أن نقرها على كل أفكارها ، ولا أن ننطلق معها إلى آخر أشواطها الفكرية ونهاياتها المنطقية ، ولكننا ننطوى لها مع ذلك على الاحترام والتقدير ، وهو رجل كان يستطيع أن يعيش فى رغد العيش آمن السرب مستمتعاً بالجاه العريض والمكانة المرموقة ، ولكنه آثر طريق الشوك وسبيل الجهاد ، وتنازل عن لقبه وامتيازاته لينضم إلى صفوف العمال ويستنهض هممهم ، ويبصرهم بحقوقهم .

وكروبتكين هو العالم البحاثة المطبوع الذى لم يدع هواتيه العلمية تستأثر به كل الاستئثار وتصرفه عن محاولة الإصلاح بالطريقة التى اقتنع بصحتها بعد التفكير العميق والحساب الدقيق . وهو الفوضوى الذائع الصيت والحجة الثبت الذى بشر بالتعاون المتبادل ، والتساند المشترك ، وأقام على أساسه نظرياته الأخلاقية ، وهو نصير الحرية الذى أدرك ما يكمن من الطغيان والاستبداد فى الماركسية ، وحاول أن يغرس فى نفوس العمال حب الحرية ، وهو المجاهد الدؤوب الذى انكر على البلشفيك اعتداءهم على الحريات وسنه تقارب الثمانين وقد هدم السقم بنيانه ونال الحرمان من كيانه .

وقد ولد كروبتكين فى سنة ١٨٤٢ من أسرة روسية عريقة ، ونشئ تنشئة

عسكرية ليشغل منصباً فى الجيش القيصرى ؛ وفى أوائل سنة ١٨٦٠ ألحق ضابطاً بإحدى فرق القوزاق المقيمة على مقربة من نهر آمور فى سيبريا ، وقام بعد ذلك برحلات علمية كشفية فى نواحى سيبريا المجهولة وفى شمال منشوريا ، وكان يدرس فى أثناء ذلك التاريخ الطبيعى لهذه الأنحاء ، ويلاحظ حياة المجتمعات البدائية بها ، وقد تركت هذه الدراسة أثراً بعيداً فى تكوين آرائه الاجتماعية ونظراته السياسية ، وعاد إلى بطرسبرج فى سنة ١٨٦٧ وقضى أربع سنوات فى دراسة الرياضة والجغرافية ، وذاعت شهرته بين المتوفرين على الدراسات الجغرافية ، وعرضت عليه جمعية بطرسبرج الجغرافية أن يكون سكرتيراً لها ولكنه لم يقبل هذا العرض .

وفى خلال رحلاته الجغرافية المختلفة إلى الأنحاء القاصية فى روسيا رأى بعينه ما يعانيه أفراد الشعب من الفقر والإهمال وسوء الحال ، فمضى يكتب التقارير الفضفاضة الوافية ، ويقدم الاقتراحات المترعة بالغيرة على الإصلاح ومناصرة الفقراء إلى إدارات الدولة ومختلف الهيئات الحكومية ، ولكن عمله كان بدون جدوى . فقد كان القوم فى غفلة عن الإصلاح . ولم يكن لهم فيه أرب ، ولا لهم إليه نزوع ، لأن الإصلاح لا يحقق لهم غرضاً ، ولا ينيلهم نفعاً ، وينبه راقد الفتنة ، ويهيج كامن الشر ، وقد أثر هذا التراخى والجمود فى تفكير كروبتكين وجعله يعتقد أن الأمور لا يمكن أن تظل على هذه الوتيرة . وأنه لا علاج لهذه الأحوال السيئة المتخلفة إلاّ بالخروج عليها والثورة بها .

وفى سنة ١٨٧٢ أصبح من العاملين فى صفوف الثائرين ، ورحل إلى غرب أوربا . وقضى حينا من الزمن فى بلجيكا وسويسرة ، وهناك اتصل بالحركة التى كانت تدبر الثورات وترسم خططها ، وخالط أتباع باكونين الزعيم الفوضوى الشهير ، وراقته مبادئهم وقد أوضح لنا فى كتابه مذكرات «ثائر» سبب تركه

بحوثه العلمية الجغرافية فقال «بأى حق أستمتع بهذه المسرات العليا والشقاء حولى ضارب بجرانه ، وكل من أرى يجاهدون فى سبيل الحصول على كسرة من الخبز العفن ، وعلى حين أن كل ما أنفقه ليمكننى من أن أعيش فى عالم هذه العواطف السامية لابد أن يكون منتزعاً من أفواه هؤلاء الذين يزرعون الغلال ولا يجدون من الخبز ما يكفى لإطعام أطفالهم ؟ لابد أن يؤخذ ذلك من أفواه بعض الناس لأن مجموع إنتاج البشرية لا يزال جد منخفض» .

ويقول فى ناحية أُخرى من هذه المذكرات «إن المعرفة قوة هائلة ، ويجب أن يتعلم الناس ، ولكننا نعرف الآن الكثير ! فماذا يكون لو صارت هذه المعرفة – هذه المعرفة ليس غير – ملكاً للجميع ! ألا يتقدم العلم حينذاك فى وثبات ، ويجعل الناس يتقدمون بخطوات واسعة فى سبيل الإنتاج والاختراع والخلق الاجتماعى ؟» .

وقد نفر كروبتكين من الاشتراكية الماركسية ، ومال بكليته إلى الاشتراكية الحرة التى بشربها باكونين وأطلق عليها هذا الاسم البغيض وهو «الفوضوية» .

وعاد كروبتكين بعد ذلك إلى روسيا ، وأخذ يحاول تعليم المزارعين والعمال ، وكان يعلم ما فى هذه المحاولة من خطر ، ولكنه لم يحجم عن ذلك ، وأقبل على المحاولة غير هياب ولا وجل حتى قبض عليه سنة ١٨٧٤ واعتقل فى حصن بطرس وبولس الرهيب ، وقضى فى هذا السجن عامين تابع فيها دراساته الجغرافية .

وفى سنة ١٨٧٦ تمكن من الهرب ووصل إلى بريطانيا ، وشغل حيناً بكتابة فصول انتقادية وعرض للكتب بمجلة الطبيعة ، وكتب بعض تعليقات فى الموسوعة البريطانية ، ثم ذهب إلى سويسرة ، وقضى هناك سنوات قلائل ، وأخرج منها سنة ١٨٨١ بسبب الرعب الذى أثاره مصرع القيصر الإسكندر

الثانى ، وذلك بالرغم من أن كروبتكين لم يشترك فى مؤامرة قتل القيصر ، وفى سنة ١٨٨٢ اعتقل بفرنسا وأرسل إلى سجن كليرفو بتهمة زائفة مصطنعة ، وأثار حبسه احتجاج العلماء والكتاب ، وكان من الذين دافعوا عنه الفيلسوف البريطانى هربرت سبنسر والشاعران سوينبرن وفيكتور هيجو ، واضطرت الحكومة الفرنسية إلى الإفراج عنه فى سنة ١٨٨٦ فعاد إلى بلاد الإنجليز وأقام هناك إقامة دائمة .

وفرغ لا ستيفاء تعاليم مذهبه السياسى ، وطاف بأنحاء بريطانيا ، وألقى محاضرات للدعوة إلى مذهبة وبسط بها آراءه ونظرياته ، وكان من مؤسسى مطبعة الحرية التى ما زالت تتابع جهودها حتى الوقت الحاضر ، وشارك فى تحرير مجلة الحرية وهى كذلك لاتزال تتابع صدورها .

وعاد إلى بحوثه العلمية ، ورأى أن الحاجة ماسة إلى إقامة علم الاجتماع على أسس علمية بدلا من مناصرة المذاهب الأخرى التى ينقصها الاستناد إلى البحث العلمى الموضوعى ،

وقد ألف كروبتكين فى خلال المدة التى قضاها فى بلاد الإنجليز ثلاثة كتب تعد من أهم مؤلفاته وهى «كتاب غزو الخبز» وكتاب «الحقول والمصانع والمعامل» وكتاب «التعاون المتبادل» والكتاب الأول دفاع عن مذهبه السياسى ، والكتابان الآخران دراسات علمية للمظهر الاجتماعى ، وهما من المراجع الهامة للباحثين فى علم الاجتماع .

وكتاب «غزو الخبز» بالرغم من أنه قائم على الدعوة إلى أفكاره السياسية ونزعته الثورية فإنه مع ذلك مشبع بالروح العلمية ، وهو من المراجع التى يجدر بالباحثين فى تطور الأفكار الاجتماعية الحديثة الاطلاع عليها واستشارتها ، والفكرة التى يرمى إلى تأكيدها وبسطها هى أنه لا المذهب الفردى ولا مذهب

الاشتراكية الحكومية يستطيع أن يصل بنا إلى المجتمع الصالح الذى يرضى نوازعنا وتستريح عنده ركابنا ، ويلزم أن نقيم أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية على أساس التعاون والتساند والمشاركة الحرة ، لا على التنافس المر من ناحية أو الإجراءات المقيدة من ناحية أخرى ؛ وقد رأى كروبتكين أن مذهب ترك الأمور تجرى فى مجاريها الذى أولعت به الرأسمالية فى القرن التاسع عشر يسفر عن مظالم جائرة ، وأنه قد أخفق الإخفاق كله فى حل مشكلة توزيع السلع ، ولكنه رأى من ناحية أخرى أن أفكار ماركس فى الاشتراكية الحكومية لا تعين كذلك على حل هذه المشكلة ، وأن زيادة سيطرة الدولة تنتقص الحرية ولا تزيد الرخاء المادى ، وأن التعاون الحر هو المبدأ السليم والهدف الأسمى والغرض المروم ، وكان يتطلع إلى اليوم السعيد الذى فيه يرى الحياة الإنسانية قائمة على مبدأ التعاون الحر والتضامن الاختيارى .

وفى الجزء الأخير من كتابه «غزو الخبز» يهاجم كروبتكين آراء معاصرية من الاقتصاديين فى مسألة الإنتاج والاستهلاك ، ويدفع عن رأيه فى عدم تركيز الصناعة ، ويهاجم نظام توزيع العمل ، ويؤكد أهمية الانتفاع بالأساليب العلمية فى الزراعة ، ومن أهم أسباب الخلاف بينه وبين الاقتصاديين أنهم يوجهون معظم عنايتهم إلى الإنتاج بدلا من العنايه بأمكانيات الاستهلاك ، وهو يرى أن آدم سمث وماركس نهجا هذا السبيل ، وأنهما لم يتناولا مسألة الاستهلاك إلا فى الأجزاء الأخيرة من كتبهما ، وهو يقول فى الرد عليهما «أما يلزم قبل إنتاج أى شىء أن نشعر بالحاجة إليه ؟ أليست الضرورة هى التى دفعت الإنسان إلى الصيد وتربية الماشية وزراعة الأرض وصنع الآلات وإخيرا إلى اختراع العدد الميكانيكية ؟ أليست دراسة الحاجات هى التى يجب أن تسيطر على الإنتاج ؟ فمن المعقول والمنطقى أن نبدأ باعتبار الحاجات ثم نبحث بعد ذلك الإنتاج

وما يجب أن يكون عليه لكى يفى بالحاجات » والاقتصاد السياسى فى رأى كروبتكين هو « دراسة حاجات الإنسان ووسائل تلبيتها بأقل ما يمكن من المجهود الإنسانى » .

وينتقد كذلك كروبتكين فكرة الإنتاج الزائد عن الحاجة ، ويرى أنها أكذوبة من الأكاذيب ، وهو يذهب إلى أن إنجلترا مثلا كانت تصدر ما تزعم أنه يزيد عن حاجتها من الفحم ، والواقع أن الملايين من سكان الجزر البريطانية كانوا محرومين من النيران فى الشتاء ، والذى يصدر ليس هو الزائد عن الحاجة ، ويشير كروبتكين إلى أسطورة صانع الأحذية الذى كان يسير حافى القدمين ! وإنما السبب الحقيقى للتصدير هو عجز الصانع عن الشراء لقلة الأجر الذى يعطى له ، فليس هناك زائد عن الحاجة كما يزعم الاقتصاديون ، وفى كتابه عن الحقول والمعامل والمصانع عاد إلى بسط فكرته فى عدم تركيز الصناعة ، وعارض فكرة التخصص فى الأعمال ، وكروبتكين يعتقد أن العمل اليدوى والعمل العقلى يلزم أن يتحدا ، فالكاتب المؤلف يلزم أن يكون صفاف حرف ومجلد كتب ، والمؤلفون بطبيعة الحال لا يقرون كروبتكين على هذه الآراء ، ويخيل إلى أنه من إضاعة الوقت الثمين أن نحمل المؤلفين على ترك التأليف ليقوموا بأعمال قد لا يحسنونها ، وقد يكون غيرهم أقدر منهم على إتقانها وإنجاز عملها فى وقت أسرع ، ولكن كروبتكين كان يرمى من وراء ذلك إلى القضاء على فكره تركيز الصناعة ، فالعامل فى رأيه يجب أن يعمل فى الحقل وفى المصنع معا ، وكل أمة من الأمم يجب أن تستهلك ما تنتجه من الصناعة أو الزراعة ، وهو يرى أن الأمم يجب أن تعلم الأطفال فى باكورة حياتهم العلم والأعمال اليدوية معا ، وقد التفت المربون أخيرا إلى هذه الناحية ، وأدخلوا فى برامج الدراسة الأعمال اليدوية ، والأمم الصناعية التى لا تكفيها حاصلات

أرضها وتضطر إلى استيراد الأطعمة والمواد الغذائية من الخارج تستطيع أن تعالج هذه المسألة بتحسين أساليب الزراعة ومضاعفة إنتاجها الزراعى باتباع الأساليب العلمية الحديثة ، ونلمح من خلال ذلك أن كروبتكين كان من القائلين بفكرة الاكتفاء الذاتى للأمم .

ورأى كروبتكين أن آراءه فى المجتمع القائم على التعاون مهددة بالحجج التى يسوقها فى الرد عليها ونقدها أنصار فكرة أن الإنسان غير أهل للتعاون ، معتمدين فى ذلك على آراء مفسرى مذهب دارون فى النشوء والارتقاء وتأكيدها فكرة تنازع البقاء ، فكان لابد من أن يعمل كروبتكين على مناقشة هذه الآراء والرد عليها وتفنيدها ، وقد مكنته دراسته القديمة للتاريخ الطبيعى من أن يكون قادراً على ذلك ، وقد أعد من أجل ذلك سلسلة من الفصول نشرت فى مجلة القرن التاسع عشر ثم جمعت بعد ذلك فى كتابه المشهور المسمى « التعاون المتبادل » وقد ظهر فى سنة ١٩٠٢ .

ويدلل كروبتكين فى هذا الكتاب على أن تنازع البقاء ليس هو القاعدة العامة فى عالم الحيوان ، ويستشهد فى تأييد رأيه بملاحظاته الخاصة ومشاهدات غيره من العلماء ومعظم الحيوانات وبخاصة هذه الحيوانات التى تعيش جماعات تجرى علاقاتها بعضها ببعض على سنة التعاون ، وفى أوقات الخطر يتجلى تضامنها وتضحياتها بذاتها ، والتفصيلات والحقائق التى جمعها كروبتكين لتدعيم مذهبه تعادل فى كثرتها ما جمعه دارون لإثبات رأيه فى أصل الأنواع ، ولا تترك مجالا للشك فى قيمة التعاون المشترك من الناحية العلمية .

وهو يعزو إلى التضامن المشترك وجود الأجناس الأضعف من الناحية الجسدية ، والأنواع الاجتماعية بالرغم من أن أفرادها قد يكونون ضعاف البنية إلا أن تضامنهم قد يمكنهم من التغلب على الوحوش الضارية التى تعيش منفردة

فى عزلة ، والإنسان مدين ببقائه رغم ضعفه لقدرته على التعاون ، ولا ينكر كروبتكين أن هناك تناحراً على البقاء ، بل هو يذهب إلى أن المنافسة كانت من العوامل الهامة فى التقدم ، وأنه لولا وجودها لتعطل رقى الإنسان ، ولكنه يرى كذلك أن المنافسة يعادلها فى كل مكان مبدأ التعاون المتبادل ، وأن التعاون المتبادل عامل أهم وأبعد أثراً فى تقدم الإنسانية ، وهذا التعاون المتبادل هو أساس المجتمعات الإنسانية ، ويعرض كروبتكين لحياة الإنسان فى مجتمعات الهمج المتخلفين ، ثم فى مدن العصور الوسطى ثم للمجتمعات الحديثة ، ويبين أهمية التعاون فى حياتها .

وقد كان كتابه عن التضامن المتبادل أشبه بمقدمة لكتابه الأخير الذى شغله فى السنوات الأخيرة من حياته واستأثر بجهوده ، وهو كتابه عن الأخلاق ، وعنده أن مصدر تصوراتنا الأخلاقية هو ممارسة التعاون المتبادل ، وقد لعب التعاون المتبادل الدور الرئيسى فى تقدم الإنسانية الأخلاقى .

وبالرغم من أنه كان دائم التفكير فى موضوع هذا الكتاب فإنه لم يكن قد بدأ كتابته حينما قامت الثورة الروسية فى سنة ١٩١٧ ، وكان حينذاك فى الخامسة بعد السبعين من عمره ، فسارع فى العودة إلى روسيا ليقوم بنصيبه فى تجديد بلاده برغم شيخوخته ومرضه وضعف بنيته .

وقد ساءه وأثر فى نفسه وأحزنه أن يرى الحزب القوى فى روسيا والذى أصبح فى يده زمام الأمور وقد انحرف عن الجادة ، وأمعن فى الطغيان والعبث بالحريات ، واضطهد كل من يدافع عن الحرية ، وقتل الكثيرين من الأحرار والثائرين المخلصين ، وملأ السجون والمعتقلات بالباقين منهم ، ولم تجترئ الحكومة الروسية على تهديد كروبتكين والتعرض له لمكانته الفكرية وشهرته

العالمية فى خارج روسيا ، ولكنها منعته من أن يقوم بجولة استعراض للمواد الصناعية فى روسيا .

وقد اقتنع فى آخر الأمر بأنه ليس أمامه سبيل لعمل أى شىء لتحسين أحوال بلاده ، فانسحب إلى قرية ديمتروف النائية المنعزلة ليتم كتابه عن الأخلاق ، وكان الطعام والوقود قليلين ، وربما كان أصعب ما تجشمه من عناء هو أنه كان يعمل بعد أن يرخى الليل سدولة على ضوء مصباح زيتى ضئيل ، وكان المشفقون عليه من أصدقائه يرسلون إليه فى بعض الأحيان الشموع ليستعين بها ، ولم يكن تحت يده سوى عدد قليل من الكتب والمراجع ، ولذا كان يجد صعوبة فى تحقيق ما يريد تحقيقه من المذاهب الأخلاقية والآراء الفلسفية ، وكان يرفه عن نفسه الفينة بعد الفينة بالعزف على البيان ، وبالرغم من ذلك كله فإن الذى كان يؤلمه أشد إيلام وينغص عليه صفوه هو حالة روسيا العامة وما بها من المظالم والاضطهادات ، وقد حاول فى مناسبتين أن يرد حكام روسيا إلى الصواب وينهاهم عن أتباع الأساليب الوحشية مع خصومهم ومخالفيهم فى الرأى ، ولكنه وجد أخيراً أنه من العبث النصح لحكومة قد أسكرها حب القوة وأفقدها العقل والاتزان .

ويقول النقادة المعروف هربرت ريد عن كتابه عن الأخلاق « إنه لم يكتب فى تاريخ الأخلاق أحسن منه » وقد حاول فيه أن يعنى بالغرض الأساسى للأخلاق ، وهو تنظيم علاقة الإنسان بالإنسان ، ومن دواعى الأسف أنه لم تتح له الفرصة لإتمامه ، ولكن الموجود منه يدل على اتجاهاته ويبين جوهر مذهبه وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية ترجمة دقيقة أمينة .

وقراءة هذا الكتاب الحافل بالمعلومات الغريزة والنظرات السديدة مع الوضوح وصفاء التفكير ونصاعة الحجة من المتع المجدية الشائقة ، والتعاون

عنده أساس الأخلاق ، يضاف إلى ذلك عامل العطف والشعور بآلام الغير وإدراك حاجاته ومطالبه ، وعامل العدالة التى تسوى بين الناس فى الحقوق والالتزامات ، وكروبتكين يعد عالم الفوضويين وأقدر شراح مذهبهم والمفسرين له ، فهو بحق خليفة باكونين ومتمم رسالته .

أمير النقاد الروسيين

تاريخ الأمم يفسر لنا الكثير مما يستتر علينا أمره فى حاضرها ، ويمتاز تاريخ روسيا فى العصر الحديث بترددها بين نزعتين متناكرتين ، نزعة العزلة ومجافاة الغرب والتنكر له ، والتمرد على نظمه ، ونبذ مظاهر حضارته ، ونزعة الاعتماد على الغرب ، والإقبال عليه ، وإيثار حضارته ، والأخذ بها والعمل على محاكاة مظاهرها .

والنزعة الأولى تعتز بالعبقرية القومية ، وتستمسك بتقاليد الحياة الروسية ، والنزعة الثانية ليست أقل إخلاصاً للوطن وحرصاً على النهوض به وتحسين أحواله من النزعة الأولى ولكنها مع ذلك ترى الإفادة جهد الطاقة من حضارة الغرب » وتحاول التفوق عليه وسبقه عن طريق استعمال أساليبه واستغلال حضارته .

وقد اشتد فى القرن التاسع عشر النزاع بين أنصار هذين المذهبين فى الروسيا وهذا النزاع بين المذهبين المتناقضين يفسر لنا ما نلمحه من التناقض العجيب فى السياسة الروسية بين الإقبال على الغرب والإعراض عنه ، والاقتراب منه ثم الابتعاد عنه .

وكان من أشد المتحمسين للأخذ عن الغرب الناقد الروسى الكبير فيساريان جريجور قتش بلنسكى ، وكان يلقب « بفيساريان الحرد » لأنه كان حمى الأنف سريع الغضب جوالا فى المعارك الأدبية ، ومجادلا لاتلين قناته ، وقد توفى بلنسكى فى ٢٦ مايو سنة ١٨٤٨ وهو فى السابعة بعد الثلاثين من عمره ، وبالرغم من مضى أكثر من مائة سنة على وفاته فإن اسمه لم ينس ، وتأثيره لم

يذهب ومكانته الرفيعة فى الأدب الروسى تشبه مكانة الناقد الكبير لسنج فى الأدب الألمانى ، والناقد العظيم سانت بيف فى الأدب الفرنسى ، وقد تأثر الأدب الروسى بآرائه وتوجيهاته إلى حد بعيد .

وقد ولد بلنسكى فى يونيو سنة ١٨١١ فى سقيابورج ، وكان أبوه طبيباً رقيق الحال يعمل فى الأسطول الروسى ، وقضى أيام طفولته بمدينة صغيرة فى مقاطعة بنزا ، وبعد أن تلقى مبادئ الدراسة فى المدارس المحلية التحق بجامعة مسكو فى سنة ١٨٢٩ وتركها بعد ثلاث سنوات دون أن يحصل منها على إجازة ، ولكنه اطلع فى أثناء ذلك على الفلسفة الألمانية مترجمة إلى الروسية ، وقرأ الكثير من الشعر والدراما ، ويظهر أن سوء حالته الصحية وضعف بنيته منعاه من الحصول على وظيفة فى الحكومة ، فكان يتبلغ بإعطاء بعض الدروس الخصوصية والفقر لا ينفك ينوشه ويقرع مروته ، ولكن الفقر وسوء الصحة لم يستطيعا أن يقهراه ويفلا من عزمه ويكسفا عبقريته ، فلم يمض زمن طويل حتى أصبح هذا الشاب الهزيل السقيم طريد الجامعات وطلبة الفقر قطباً من أقطاب الحركة الفكرية فى مسكو ، وناقداً مسموع الكلمة ، مرهوب السطوة ، يأتم به المؤلفون ويعنى بآرائه الشعراء والفنانون .

ويعد بلنسكى المنشئ الحقيقى للنقد الأدبى الروسى بالرغم من أنه لم يكن من أساتذة الجامعات ولا من الأرستقراطية المولعة بالأدب . وإنما كان من أبناء الشعب ، وقد توفر على المطالعة والدرس والبحث والكتابة ، معتمداً على نفسه لا يستعظم غيرها ولا يقبل حكماً لسواها ، ورغم اعتلال صحته المتزايد وشدة الرقابة على الصحف والمجلات فى روسيا أمكن بلنسكى أن يؤثر فى سير الأدب الروسى تأثيراً بعيد المدى ، وقد نشأ كبار الروائيين الروسيين فى كنف رعايته وفى ظلال تأثيره .

وقد بدأ بلنسكى حياته الأدبية بكتابة فصول شديدة اللهجة نعى فيها على الروسيين فقرهم الأدبى ، وكان فى هذه المرحلة من مراحل حياته الأدبية متأثراً بأفكار الفيلسوف الألمانى شلنج ، ومن أقواله فى أحد تلك الفصول «إن هذا العالم الجميل غير المحدود بقضه وقضيضه ليس سوى نسمة لفكرة خالدة فذة ، وهى فكرة الإله الحى الدائم التى تنكشف فى مظاهر لا يأخذها العد كرؤيا رائعة باهرة للوحدة المطلقة فى التنوع الذى لا نهاية له ، والمظهر الأخلاقى لهذه الفكرة الخالدة هو المعركة الناشبة بين الخير والشر ، والحب والأثرة ، وبدون هذه المعركة لا تظهر الصفات المحمودة ، وبدون ظهور تلك الصفات المحمودة لا سبيل للجزاء والمثوبة ، ولا حياة بغير عمل ، فما هو مصير الفن وغايته ؟ إن تصوير حياة الطبيعة وإعادة إنشائها هو غرض الفن الأبدى ، والإلهام الشعرى هو انعكاس قوة الطبيعة الخالقة ، وما دام الشاعر يتبع فى حرية وطلاقة ومضات خياله فهو ملتزم شريعة الأخلاق غير خارج على عمود الشعر ، ولكنه حينما يعمد إلى غرض خاص ويفرض على نفسه شيئا فإنه يصبح فيلسوفاً ويغدو أخلاقيًّا ، ولكنه يفقد قوته الساحرة الآسرة وسيطرته على نفسى ، وإذا كانت له مواهب صادقة ، وكانت له كذلك أهداف معينة فإنه يفسد على متعتى ، وإذا حاول أن يجعلنى أتعثر فى طائفة من الأفكار الضارة فإنه يرغمنى على احتقاره وإهمال شأنه» .

وفى نفس هذا المقال عرض بلنسكى لمسألة الفن والقومية فقال «كل أمة من الأمم لا مناص لها من أن تظهر فى حياتها جانباً خاصًّا من جوانب حياة الإنسانية جمعاء ، وهى مدفوعة إلى ذلك دفعاً بقانون من قوانين الطبيعة لا مرد لحكمه ، والأمة التى لا تضطلع بهذه المهمة لا تحيا حياة حقيقية وإنما تعيش عيشة بلادة وخمول ولا فائدة على الإطلاق من وجودها» .

وهذه هى آراء بلنسكى فى المرحلة الأولى من مراحل حياته الأدبية ، وكانت معظم الفصول التى يكتبها تدور حول فكرتين ، الفكرة الأولى هى أن غاية الشعر هى تجسيم الأفكار الخالدة فى رموز الفن ، وأن الإنتاج الفنى صادق الشاعرية ما دام الشاعر يخلق فى حرية وطلاقة ، فلا يتكلف شيئا ولا يعتاقه شىء . والفكرة الثانية هى أن الأفكار التى يعبر عنا الشاعر هى أفكار الأمة التى نبغ فيها والعصر الذى عاش به ، وكان يعارض فى أى ضغط يوجه إلى حرية الفنان ويمقت أى لون من ألوان التكلف يلمح أثره فى الشعر ، وقد زعم أن الشاعر الروسى پوشكن كان أصدق قومية وأصح شاعرية حينما كان يخلص فى الاستجابة لوحى نفسه ونجوى عواطفه وتاثراته ، وأنه كان ينزل عن مستواه ويضل الطريق حينما كان يعمد إلى محاكاة القصص الشعبية ، لأن التقليد يرهق نضارة الفن ، ويذهب بحريته ، والفن الخالص هو الفن القومى .

وما اقترب حلول سنة ١٨٣٧ حتى كانت آراء بلنسكى قد طرأ عليها شىء من التغيير ، وقل تأثره بفلسفة شلنج ، وأخذ يحل محلها من نفسه تيار جديد وجد سبيله إلى الحياة الفكرية الروسية بالتدريج ، فقد تأثر بلنسكى وأصدقاؤه بفلسفة هجل ، وأصبح بلنسكى هيجليًّا لفظاً ومعنى ، وبدأ يكتب فى مجلة « ممتحن مسكو » ودافع فى تلك المجلة عن مبدأ هجل المعرف وهو أن كل شىء موجود معقول ، واستخلص من هذه الفكرة أن من واجبات الإنسان ألا يتسخط الحاضر بل يعمل على التوفيق بين نفسه وبين عصره .

وصار يميل إلى ناحية المحافظين ، ويرى عبث المعارضة ، ويكره الجوانب السلبية فى الحياة البشرية ، ويكبر فى الفن تأمل الحياة الهادئ الموضوعى ويعده أعظم واجبات الشاعر ، وكان يعد الإنتاج الأدبى فنًّا حينما يظهر الفنان تصوراً للحياة موضوعيًّا نزيهاً يمثل صلة وثيقة بين الفكرة المراد تصويرها والصورة التى

تتخذها تلك الفكرة ، ويجب أن تستوعب الصورة الفكرة .

وفى نقده لأحد الكتب فى سنة ١٨٣٨ كتب يقول : «إن الشرط الرئيسى للإنتاج الشعرى هو أن يكون وصفاً لشىء معين ، وهو لا يكون كذلك إلا إذا نفذت الفكرة خلال الصورة وشفت الصورة عن الفكرة ، فإذا انهدمت الفكرة تقوضت معها معالم الصورة ، وإذا تطرق الفساد إلى الفكرة تسلل منها إلى الصورة ، ومعنى ذلك أن الشىء المعين هو الرباط العجيب الذى لا تفصم عروته بين الفكرة والصورة ، ومنه تتكون الحياة العامة ، ولا حياة لأحدهما بدونه ، ويصدق هذا بخاصة فى الطرف الفنية ، فالقطعة الموسيقية لها فكرة وحياة ، وهذا هو سر تأثيرها فى الروح الإنسانية ، ولها كذلك أصوات تتكون منها صورتها ، فإذا ذهبت الأصوات أصبحت القطعة الموسيقية ليس لها وجود ، وكل عمل من أعمال الفن يكون فنيًّا حينما يقوم على قانون الضرورة والحتمية ، وحينما لا يكون هناك أى أثر للتعمد والقصد فى إنجازه ، وحينما لا يكون هناك مجال لوضع كلمة مفردة أو صوت واحد بدل لفظ أو صوت ، والإنتاجات الفنية الصادقة لا يجىء فيها شىء من قبيل المصادفة والاتفاق ، ولا يكون بها شىء لا لزوم له ويمكن الاستغناء عنه ، وكل ما فيها لازم محتوم وموضوع فى مكانه المناسب وموقعه الصحيح المقدور» .

وليس المهم فى الفن الفكرة وإنما المهم هو الصورة ، ويجب أن ينفذ خلالها شعاع الجمال اللين الهادئ ، وعظمة الفكرة لا تدل بحال على جمالها الفنى ، بل على النقيض من ذلك قد تجعله موضع شبهة .

وتشدد بلنسكى فى الدفاع عن رأية القائل بأن الفن الصحيح هو الفن الذى تمتزج فيه الفكرة بالصورة حتى تصبحا شيئاً واحداً جعله فى بعض الأحيان شديد التزمت فى تقديراته الفنية ، وقد انتقص بعض أشعار شلر الجديدة لأن

الفكرة التى عبرت عنها تجاوزت حدود الصورة ، واعتقاده بأن الفن هو إعادة نزيهة هادئة للانسجام فى الطبيعة بدون أى عنف فى الصورة جعله يمدح كل ضروب الفن الموضوعى ، ويرفض كل الألوان الأدبية الأخرى مثل الهجاء ، فهو لا يعتبرها فنًا لأنها تظهر مشاعر الألم والغضب والتفجع ، وهى مظاهرتنا فى الهدوء الأولمبى الذى يجب أن يحتفظ به الفنان .

وقد انصف بلنسكى شلر الإنصاف كله ، ولكنه كان يضع جيتى فى مكان أسمى منه ، ومن أقواله فى ذلك «الموضوعية من حيث هى شرط لازم للفن لا تحتمل وجود أى هدف أدبى ، ولا ترتضى أى حكم للفنان على عمله ، والشاعر الحق حينما يصور نقائص البشر لا ينظم الأهاجى لأنها بعيدة عن منطقة الفن ، وحينما يصف مرتكبى الكبائر الأخلاقية لا يفعل ذلك وهو ملتهب الغضب كما يظن بعض الناس ، فمن غير الميسور أن يكون الإنسان محتدم الغضب ويخلق فى الوقت نفسه ، فالغضب يفسد المزاج ويسمم الابتهاج على حين أن وقت الوحى الشعرى – على نقيض ذلك – هو وقت أسمى حالات الطرب ، والشاعر لا يستطيع أن يمقت صورة مهما كانت قبيحة شوهاء ، بل هو – على خلاف ذلك – يحبها لأنه يتصورها أفكاراً خالصة نقية» .

وفى سنة ١٨٣٩ انتقل بلنسكى من مسكو إلى بطرسبرج ، واشترك فى تحرير مجلة «سنوات أرض الوطن» فأثر هذا الانتقال فى تطور تفكيره ، وأخذت أفكاره عن الفن تتغير وتهبط من سماوات التجريد إلى أرض الحقيقة والواقع ، وهجر المثالية التى استمدها من فلسفة هجل ، وأصبح يدخل فى حسابه وتقديراته حاجات الحياة الواقعية ؛ ومن بعد ما كان فى طليعة أنصار فكرة الفن للفن أصبح من أكبر رسل فكرة الفن للأغراض الواقعية ؛ وكانت هذه هى

المرحلة الثالثة فى حياته الأدبية ، وهى فى رأى نقاد بلنسكى أخصب مراحل حياته .

وقد بدأ يكتب فصولا انتقادية عن الكتاب الروسيين ، وقد أعلن فى أحد تلك الفصول انتهاء عصر الرومانسية » وأكدأنه امتياز تستمتع به الأمم فى مقتبل شبابها ، حينما يتراءى الشعر فى بخور الصلاة وأنات الحب المنتصر أو فى مواقف الوداع ، وأن الشعر الجديد هو شعر عهد اكتمال الرجولة ، فهو يحقق جمال الصورة ، ويفتح أبواب معبد الروح المقدس فى الواقع لا فى الرؤيا الحالمة . وموجز القول أن الشعر الرومانسى هو شعر الحلم والتطلع الغامض فى حدود المثالية ، أما الشعر الجديد فهو شعر الواقع والحياة » .

وفى مقال آخر أخذ يؤكد مسألة الحق والطبيعة والواقع فى الفن ، ويقول « البساطة شرط لازم للعمل الفنى ، وهى بطبيعتها ترفض كل حلية خارجية ، وتبرأ من التكلف ، وكل شىء فى الفن لا يعكس الحقيقة فهو زور وكذب ويدل على نقص فى ملكة الفنان ، وإنما الفن هو التعبير عن الحق ، والواقع وحده هو أسمى أنواع الحق ، وكل شىء خارج عنه – أى كل ما يخترعه المؤلف ويضيفه – هو أكذوبة وافتئات على الحق » .

وبعض الآراء التى دافع عنها بلنسكى أصبحت الآن من المسلمات والحقائق التى لا يختلف فيها اثنان ، ولكنها كانت فى عصره لا تزال فى معترك الجدل .

وهكذا استطاع بلنسكى أن ينقذ عصره من مبالغات المذهب الرومانتيكى ، الذى يغلب الفكرة الرومانتيكية على الصورة ، وبذلك أصبح موجد المبدأ الذى أخذ به الكتاب الروسيون فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهو المذهب الذى يحتم الواقعية ودراسة الحياة مع العناية بجمال الصورة ، وكثير من الآراء

التى ذكرها عن الفن لا تزال مرجعًا للنقاد ومقياساً يعتمد عليه فى التقدير الفنى والتقويم الأدبى .

ولا نزاع فى أن فكرة بلنسكى فى إخضاع الفن للحياة ووقفه على خدمتها فكرة نفعية تناقض ما ذهب إليه فى أول حياته الأدبية ، إذ حاول أن يسمو بالفن فوق الغايات والأهداف النفعية ، ومنطقة الفن عنده هى الجمال ، ومهما اختلف الفلاسفة فى تعريف الجمال ، وهل هو فى نفس الفنان أو هو فى خارج نفسه فإنه لا يتفق مع النظرية النفعية التى ذهب إليها بلنسكى فى المرحلة الأخيرة من مراحل تطوره الفكرى .

والظاهر أنه هو نفسه لم يفطن إلى التناقض بين تصوره للجمال وعده غرض الفن الوحيد وبين حاجات المدرسة الواقعية الجديدة فى الأدب الروسى المعاصر له وربما كان موته الباكر وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره قد أعجله عن مراجعة الفكرة ومحاولة استيفائها .

ومهما يكن من الأمر فإنه ترك للنقاد بعده محاولة التوفيق بين المبدأ النفعى فى الفن والتصور الجمالى الخالص للفن .

إيفان بونين فى ذكرياته وصوره

إيفان بونين أحد الكتاب الروائيين الروسيين البارزين فى الأدب العالمى الحديث ، وهو إن لم تبلغ مكانته فى الأدب الروسى مرتبة الأعلام الأفذاذ أمثال تولستوى ودوستوفسكى وترجنيف فإنه يعد من أضراب ليون أندريف وكوبرن وسولوجب وجوركى وغيرهم من الكتاب الروسيين الذين لمعت أسماؤهم وذاعت آثارهم الادبية قبل وقوع الثورة الروسية الأخيرة .

وبونين قصصى واقعى تمتاز قصصه بخير الصفات المعهودة فى الأدب الروسى ، وهى صدق الوصف والإخلاص للحياة والنزعة الإنسانية الغالبة ، وهو أقرب إلى ترجنيف وأشبه به فى شاعرية أسلوبه واعتماده على الوصف والاستغراق فى التأمل أكثر من الاعتماد على تشريح العواطف وتحليل الأهواء والميول .

وقد بدأ حياته الأدبية شاعراً ، ولما اتجه إلى التأليف الروائى ظل الشاعر يبدو فى كتاباته خلال الروائى ، ويتجلى ذلك بوجه خاص فى نثره حينما يتحدث عن أسفاره ورحلاته وسوالف ذكرياته ووصفه لأصدقائه أو من لقيهم من الناس فى أثناء تنقلاته فى مختلف الأقطار .

وقد لحظ بعض النقاد الروسيين فى أسلوبه نوعاً من تحرى الاحتياط والدقة يصل أحياناً إلى حد الجفاء والجمود ، وقد علّلوا ذلك بأنه كان حريصاً على أن يكبح جماح الشاعر الكامن فى نفسه ، وقد ظهر ذلك بوجه خاص فى قصة له ذائعة الشهرة وهى قصة «الجنتلمان من سان فرنشيسكو» وهى من طرائف

القصص القصيرة فى الأدب العالمى ، وقد وصف فيها حياة رجل من رجال الأعمال الأمريكيين قضى حياته فى كد وتعب ، ولما بلغ الثامنة بعد الخمسين من عمره وأصبح ثريًا ووصل إلى مستوى هؤلاء الذين اتخذهم له مثالا عقد العزم على أن يمنح نفسه هدنة ويهيئ لها بعض أسباب الراحة ودواعى المتعة ، وقد جرت عادة أمثاله من رجال الأعمال أن يبدأوا هذا اللون من ألوان الاستمتاع برحلة إلى أوربا والهند ومصر ، ولذلك انتوى أن يسير سيرتهم ويصنع صنيعهم ، وكان يريد قبل كل شىء أن يكافئ نفسه لقاء ما تجشم من عناء طوال السنوات الخالية من حياته ، ولكنه رأى أن يصحب معه زوجته وابنته ليشاركاه متعة السفر ، وبدأت الرحلة جميلة شائقة ، وكان هذا الجنتلمان من سان فرانشيسكو ينفق عن سعة مثل أكثر السائحين الأمريكيين ، ولذلك كان خدم السفينة يتبارون فى الاستجابة لطلباته ، والنزول على أوامره ، وكان أينما حل يتسخى ويغدق فيلقى الرعاية والإكرام والتبجيل والاحترام حتى اطمأن به المقام فى جزيرة كابرى الجميلة ، وقد بالغ صاحب الفندق الذى نزل به هذا الجنتلمان فى الحفاوة به وبأسرته وتوفير سبل الراحة والترفيه لأفراد الأسرة جميعاً ، وشاءت الأقدار أن يصاب الرجل بمرض مفاجئ لا تحتمله بنيته التى أضناها الإجهاد فقضى نحبه ، ويضيق صاحب الفندق بالأسرة بعد هذا الحادث ويتنكر لها ، وتتعرض الزوجة والإبنة لضروب شتى من الإذلال والإهانات بعد هذا الحادث الفاجع .

ويصف لنا بونين عودتهما حزينتين مهيضتى الجناح إلى أمريكا فى إحدى البواخر التى تعبر المحيط ، ومعهما الجثة وقد وضعت فى تابوت ، وأنزل التابوت إلى قعر الباخرة ، وتشق الباخرة طريقها إلى الدنيا الجديدة وركابها يستمتعون ويلهون غير شاعرين بمأساة وافدسان فرانشيسكو ، وهو يروى حوادث القصة

فى أسلوب موضوعى شديد الإيجاز مما زاد فى قيمتها من الوجهة الفنية .

وقد بدأت شهرة بونين فى الأدب الروسى بقصة « القرية » وهى تصف حياة القرية فى روسيا ما قبل الثورة وما بها من قسوة ومرارة وفقر مدقع وحيوانية بغيضة ، وقد أثنى عليها جوركى وغيره من الكتاب والنقاد وأعجبهم منها جرأة بونين فى وصف الفلاح الروسى وصفاً صادقاً لم يحاول فيه إخفاء عيوبه وستر نقائصه .

وقد قدرته بلاده بعد ذلك فاختير عضو شرف فى أكاديمية العلوم الروسية ، ومنح جائزة بوشكين للأدب ، ولما حدثت الثورة الروسية لم يرتض المقام فى روسيا وهجرها إلى غير عودة ، وقضى بقية حياته فى فرنسا ، ونال جائزة نوبل للأدب فى سنة ١٩٣٣ وأدركته الوفاة سنة ١٩٥٢ بعد أن جاوز الثمانين من عمره .

وقد تأثر بونين فى أدبه بشيكوف وترجنيف ، وهو يثير عواطف قرائه عن طريق كبت عواطفه الخاصة وتحرى الموضوعية فى كتابته ، وكان يستطيع أن يكتب قصة من لاشىء على وجه التقريب ، كان تكفيه حالة نفسية عارضة أو ملاحظة عابرة أو وصف تأملات يثيرها حادث بسيط أو مشهد عادى ليخلق منها قصة قد تنقصها الحبكة المحكمة ولكنها مع ذلك تترك فى نفس القارئ أثرها ، ويطالعك من وراء كتابات بونين الباحث الحائر والرجل الذى يرى الكثير مما لا يترك مجالا للتفاؤل اليسير .

وكتابه « صور وذكريات » من الكتب التى كتبها فى أصيل حياته معتمداً فيه على مذكراته وما حوته ذاكرته من ذكريات نشأته وتاريخ أسرته ، وعلاقته بطائفة من الكتاب الروسيين البارزين ورجال الفنون الروسيين بوجه عام ، وهو يحدثنا فى هذه الذكريات عن تولستوى وشيكوف وجوركى والمغنى الروسى

الشهير شاليا بين والروائى كوبرن والمصور ربن والزعيم الفوضوى كروبتكين وغير ذلك من اخبار حياته الأدبية وتجاربه الفنية .

وقد استهل الكتاب بتقديم نفسه لقرائه وتعريفهم بأسرته ونشأته فقال «الأسرة العريقة النبيلة التى انحدرت منها قدمت لروسيا طائفة من الرجال الممتازين ، لا فى خدمة الدولة والجيش فحسب وإنما كذلك فى عالم الفن ، فاثنان من الشعراء اللذين عاشوا فى أوائل القرن الماضى وبلغوا مبلغاً من الشهرة كانا ينتسبان إليها وهما أننا بونين وفاسيلى زوكوفسكى ابن أثناز بونين وسلمى التركية ، وقضى جميع أسلافى حياتهم متصلين بالمزارعين قريبين من الثرى ، وكانوا من أعيان الريف ، وكذلك كان والداى ، فقد كانت لهما أملاك فى وسط روسيا فى إقليم البطاح الخصبة الذى أقام فيها قياصرة مسكو مستعمرات لحماية أنفسهم من غزوات التتار ، وفى تلك النواحى نشأت أغنى اللغات الروسية ، ومن هذا الإقليم نبغ معظم كتابنا العظماء ابتداء من ترجنيف وليو تولستوى .

وقد ولدت فى سنة ١٨٧٠ فى فورونيز ، وقضيت أيام طفولتى وعهد الشباب فى الأغلب بالريف فى ضياع والدى ، وفى خلال طفولتى نشأ فى نفسى ميل إلى التصوير ، وهذا الميل ظاهر فى أعمالى الأدبية ، وبدأت أقرض الشعر وأكتب النثر فى سن مبكرة ، وظهرت لى مؤلفات وأنا ما أزال يافعاً ، وقد بدأت حياتى كاتباً بداية عجيبة ، وأسطيع أن أقول إنها بدأت فى اليوم الذى رأيت فيه وأنا فى الثامنة من عمرى صورة أذهلتنى ، وقد رأيت تلك الصورة فى كتاب فاستولى على دافع مباغت لا مرد له يدعونى إلى كتابة شىء يشبه الشعر او قصة من قصص الجان ، وكان فى هذه الصورة جبال متأبدة ومنحدر مياه قد وقف فى أسفله مزارع بدين مكتنز اللحم يحمل فى يده عصاً طويلة ، وكان قزماً له وجه امرأة وعنق منتفخ (أى أنه كان مصاباً بتضخم الغدة الدرقية) وعلى

رأسه قبعة صغيرة أقرب إلى قبعات النساء وقد برزت من أحد جانبيها ريشة وقد كتب تحت الصورة كلمة لم أكن أعرفها من قبل لحسن الحظ وهكذا كانت تقرأ «لقاء فدم فى الجبال» فدم ! لو لم تكن هناك هذه الكلمة الغريبة لبدا لى فى القزم المتورم العنق مجرد إنسان قبيح الصورة مشوه المنظر ، ولكن لفظة «فدم» فما هو هذا الفدم ؟ كان للكلمة فى نفسى وقع غامض رهيب كاد يكون سحراً ، وتملكتنى حينذاك نشوة شعرية ، وقد ذهبت النشوة فى ذلك اليوم هدراً لأننى لم أنظم بيتاً واحداً من الشعر برغم شدة محاولتى ، ولكن ماذا فى هذا ؟ أليس من حق هذا اليوم أن يعد من الأيام التى بدأت فيها الكتابة ؟» .

ويستطرد بونين فى التحدث عن نفسه قائلا «ولم يبطئ النقاد فى التنويه بمؤلفاتى ، وأحرزت جوائز فى مناسبات عدة منها أسمى جائزة تمنحها الأكاديمية الروسية وهى جائزة بوشكين ، وفى سنة ١٩٠١ اختارتنى هذه الأكاديمية نفسها عضو شرف ضمن أعضائها الاثنى عشر الذين يعادلون الخالدين فى الأكاديمية الفرنسية وكان من هؤلاء الأعضاء ليو تولستوى .

ولكنى مع ذلك انتظرت طويلا قبل أن أظفر بشهرة خاصة ، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة ، فقد ابتعدت عن السياسة ولم أعرض فى كتاباتى لشىء متصل بها ولم أنتسب إلى أى مدرسة أدبية ، ولم أزعم أنى من الرمزيين أو الواقعيين أو الإبداعيين ، ولم أتخذ قناعاً زائفاً ولم ألوح بعلم زاهى الألوان ، وقد كان مصير الكاتب فى العهد الذى سبق الثورة متوقفاً على الاتجاه الذى يتخذه فهل حشر نفسه فى زمرة المناهضين للنظام السائد ؟ وهل خرج من صفوف الشعب ؟ وهل سجن أو نفى ؟ وهل اشترك فى المعركة الأدبية التى احتدمت فى روسيا إلى جانب نقادها العاجزين عن الحكم فى مسائل الفن والمتلهفين على تجديدات متوهمة وأحاسيس محيرة ؟ وعلاوة على ذلك فإننى لم أغش الدوائر الأدبية لأنى

كنت أقضى معظم الوقت فى الريف أو فى الأسفار فى داخل روسيا وفى الخارج وقد زرت سوريا وفلسطين ومصر والجزائر وتونس والمنطقة الحارة ، وكانت اهتماماتى موجهة إلى مشكلات فلسفية ودينية وأخلاقية وتاريخية ، وفى سنة ١٩١٠ ظهرت روايتى « القرية » وكانت الحلقة الأولى فى سلسلة من المؤلفات تصور الخلق الروسى تصويراً خالياً من الزخرف ، وتصف الروح الروسية فى تعقدها المحير وظلالها المختلفة ، والتزامى الصدق فى هذه المؤلفات جعلها تثير مناقشات حادة وساقت إلىَّ على طول المدى ما يسمى بالشهرة ، وقد عززت هذا النجاح الكتب التى ألفتها بعد ذلك ، وشعرت خلال تلك السنوات أن يدى تزداد كل يوم قوة ، وأخذت القوى القلقة الواثقة من نفسها التى كانت تتجمع وتنضج فى داخل نفسى تطالب بالتعبير عنها ، ونشبت الحرب الكبرى الأولى فى تلك الفترة وأعقبتها الثورة ، ولم أكن من الذين أخذتهم هذه الأحداث على غرة ورنحهم اتساع مداها وفظاعتها ، ولكن الواقع مع ذلك جاوز كل ما كان منتظراً ، ولا يستطيع من لم ير بعينيه أن يفهم ما انحدرت إليه الثورة الروسية ، ولذلك فر من روسيا كل من استطاع أن يجد إلى الفرار سبيلا ، وكان من بين المهاجرين أشهر كتاب روسيا ؛ وقد غادرت موسكو فى مايو سنة ١٩١٨ إلى جنوب روسيا وكان قد استولى عليه البيض ثم الحمر ، وأخيراً رحلت إلى الخارج فى فبراير سنة ١٩٢٠ ، وقد شربت كأس الشقاء الذى يتجاوز الوصف والأمل الخائب حتى الثمالة » .

وبعد فهذه خلاصة ما كتبه بونين فى مستهل ذكرياته للتعريف بأسرته والإشارة إلى ماضيه ، وقد بدأ ذكرياته بالحديث عن ذلك العبقرى المنقطع النظير ليوتولستوى فقال « بدأ إعجابى به وأنا لا أكاد أتجاوز مرحلة الطفولة ، وكونت عنه فكرة خاصة وأنا غلام ناشئ ، ولم يكن ذلك بعد قراءة كتبه ،

وإنما من المحادثات ، وإنى أذكر فيما أذكر والدى وهو يحدثنا ضاحكا عن بعض جيراننا الذين كانوا يقرأون روايته الحرب والسلام ، ففريق منهم كان يقرؤها على أنها رواية الحرب ، وفريق آخر كان يقرؤها على أنها رواية السلام . وكان الفريق الأول يغفل فيها قراءة ما ورد عن السلم والفريق الآخر يغفل قراءة كل ما ورد فيها عن الحرب . وكان والدى يقول « إنى أعرفه بعض المعرفة فقد تلاقينا مرات عدة فى أثناء حرب القرم » وأذكر أنى نظرت إلى والدى وهو يقول ذلك نظرة خوف ودهشة فقد رأى تولستوى رأى العين ! .

ولكن لماذا كان يخالجنى نحوه هذا الشعور وأنا لم أقرأ سطراً واحداً من كتبه ؟ ولكن كونه من الكتاب كان يكفى لذلك ، فقد كان الكاتب يبدو لى نوعاً خاصًا من الناس ، وكان يثير فى نفسى شعوراً عجيباً لا يمكن التعبير عنه ، ولا أستطيع تحديده حتى اليوم ، كما أنى لا أستطيع أن أفسر كيف ومتى ولماذا أصبحت أنا نفسى كاتباً ، وإنى أجد أن مثل هذه المسائل لا يمكن الإجابة عنها ، كما أنه من غير الممكن الإجابة عن سؤال متى وكيف أصبحت الرجل الذى أكونه ؟ ولما وضح لى بعد ذلك أننى سأكون من الكتاب أصبحت الحياة فى الكتب وفى عالم الشعراء والكتاب حياة ثانية لى ، ولكننى مع ذلك لا أذكر متى بدأت قراءة تولستوى ، وكيف صرت أضعه فى مكانة مختلفة عن مكانة غيره من الكتاب وقد يحدث أن يكتشف الإنسان فجأة شيئاً جميلا وثميناً ، ولكن هذا لم يحدث لى مع تولستوى ، فلست أذكر لحظة مثل هذه الدهشة ، والأشياء الجميلة التى صادفتها فى طفولتى وشبابى بوجه عام لم تدهشنى ، فقد كنت دائماً أشعر بأننى عرفتها منذ زمن طويل ، ولم يبق لى إلا أن أسر لأنى لقيتها ، وقد ظللت سنوات كثيرة مولعا بتولستوى ، محبا للصورة التى خلقها خيالى . وتاقت نفسى إلى رؤية شخصه ، ولم يزايلنى هذا التوق ، ولكن ماذا

أستطيع أن أصنع ؟ أأذهب إلى ياسنايا بوليانا ؟ ولكن ما العذر الذى أنتحله ؟ وماذا أقول حينما أمثل فى حضرته ؟ وفى يوم أضحيان من أيام الصيف وجدتنى لا أستطيع الصبر ولا أن أحتمل أكثر مما احتملت فبادرت إلى إسراج جوادى الشركسى ، وقصدت إفريموف فى إتجاه ياسنايا بوليانا ، ولم نكن على بعد أكثر من ثمانين ميلا ، ولكن بعد أن طويت الطريق إلى إفريموف أحجمت وترددت وصممت على أن أقضى الليل هناك وأقلب الأمر على جوانبه ، وكنت مهتاج الخاطر فلم يغمض لى جفن طوال الليل ، ولم أستطع أن أنتهى إلى رأى ، فهل أذهب أولا أذهب ؟ وفضيت ساعات أجوس خلال المدينة حتى أدركنى الإعياء ، فلما وجدتنى أخيراً فى حديقة المدينة العامة جلست على أول مقعد صادفنى ، واستغرقت فى النوم . ولما أفقت من النوم أعدت التفكير فى الأمر ، وعدت أدراجى إلى المنزل ، وهناك قال لى أحد العمال « ناشدك الله ماذا صنعت بالجواد الشركسى فى ليله واحدة وماذا كنت فى مطاردته ؟ » وتطلبت لقاء تولستوى بعد ذلك سنوات كثيرة ، ولكنى لم أظفر به ، وكنت فى تلك الأيام أحلم بالحياة النقية السليمة الشفقة القريبة من الطبيعة والتى أحصل فيها على خبزى اليومى بالمجهود اليدوى الشاق ، وأكون فيها على علاقات أخوية ليس مع الفقراء والمضطهدين فحسب بل مع جميع عالم النبات والحيوان . وهذا كله وفى مقدمته فرط إعجابى بتولستوى الفنان جعلنى من أتباع مذهب تولستوى ، ولم يفارقنى الأمل الخفى بأن فى ذلك ما يسوغ لقائى لتولستوى ، وربما أصبح من حوارييه ، وكنت حينذاك مقيما فى بولتافا ، وكان بها جماعة من أنصار تولستوى ، وسرعان ما تعارفنا ، وكانوا ثقلاء مملين ، ولكنى صبرت عليهم واحتملتهم فى شجاعة » .

ويصف لنا بونين نادرة على لسان أحد أتباع تولستوى هؤلاء واسمه

كلوبسكى فيقول «كنت مسافراً إلى خاركوف فجاء رجل يسمونه لسبب من الأسباب مفتش القطار ، وخاطبنى قائلا «التذكرة من فضلك» فسألته قائلا «ماذا تعنى بقولك التذكرة ؟» .

فأجابنى «التذكرة التى تسافر بها» فقلت له «إننى مسافر بالقطار لا بالتذكرة» .

فأجابنى «أتريد أن تقول إنك لا تحمل تذكرة ؟» فقلت هذا بالضبط ما أردت أن أقوله» .

«إذاً عليك أن تغادر القطار فى المحطة التالية» .

فقلت له «هذا أمر يهمك ، أما ما يهمنى فهو أن أتم رحلتى» .

وفى اللحظة التالية ظهروا ، وطلبوا إلى أن أغادر القطار ، فقلت لهم «لماذا أغادر القطار ؟ إنى سعيد بوجودى فيه» .

«حسن سنرغمك على مغادرته» .

«وماذا يحدث إذا امتنعت عن الحركة ؟» .

«سنسحبك منه ونحملك حملا» .

«وهكذا بدأوا يحملوننى إلى خارج القطار غير مبالين بالدهشة التى استولت على جماعة المواطنين المحترمين» .

وقد صور لنا بونين فى هذه النادرة كيف كان يفهم مبادئ تولستوى أفراد هذه الجماعة التى كانت تنتسب إليه ، وتدعى العمل بتعاليمه والتى شاءت الأقدار أن يجتمع بأفرادها .

وكان بونين يحتملهم ويصابرهم آملا أنهم يمهدون له السبيل إلى لقاء تولستوى والدنو منه ، والاستمتاع إلى حديثه ، وقد تحقق أمله ، لأن الجماعة

قبلته عضواً بين أعضائها ودعته إلى زيارة تولستوى مع سائر الأعضاء بمدينة مسكو .

ويصف لنا بونين متاعب هذه الرحلة وغرابة أطوار هؤلاء الأتباع الشواذ ، ولكنه على ما يظهر كان مستعدًّا لاحتمال الأهوال من كل لون فى سبيل لقاء تولستوى معبوده فى تلك الفترة من حياته ، وقد استطاع فى الأيام التى قضاها معهم أن يتعرف طرائق تفكيرهم وأنماط نفوسهم ، فقد كانوا أنواعاً مختلفة من هذا « الفدم » الذى رآه فى الصورة التى كانت أول موقظ لملكاته الأدبية ومواهبه الفنية .

وتحدد اليوم الأول من يناير للقاء تولستوى ، واستيقظ بونين من النوم فى صباح ذلك اليوم فرحاً لقرب تحقيق أمنيته ، وابتعثه ما كان يشعر به من السرور على أن يبدأ أحد أفراد الجماعة – واسمه الكسندر روفتش – بقوله « سنة سعيدة » ولكن هذه الكلمة أثارت صاحبنا الكسندروفيش فصاح به غاضباً « سنة سعيدة ! ماذا تريد بهذا السخف المبتذل » وكظم بونين غيظه ، والتزم الصمت قائلا لنفسة « كل هذا يهون فى سبيل لقاء تولستوى » وأخيراً حانت اللحظة ، وحدد له وقت لزيارة تولستوى ، وانطلق إلى دار تولستوى ، وسأله الخادم عن اسمه فأجابه « بونين « وجلس فى إحدى الحجرات ينتظر قدومه ، وأخيرا أقبل تولستوى لرؤية ضيفه الذى أضناه الإعجاب به وبدأ الحديث معه بقوله :

« بونين ؟ هل كان والدك الذى عرفته فى القرم ؟ وهل قضيت مدة طويلة فى مسكو ؟ ولماذا قدمت لترانى ؟ وهل أنت كاتب ناشئ ؟ حسن بالتأكيد ، استمر فى الكتابة مادمت تشعر بأنك تميل إليها ، ولكن تذكر أنها لا يمكن أن تكون الغاية من الحياة . من فضلك اجلس وحدثنى عن نفسك :

ويقول بونين « إنه كان يتحدث مسرعا متظاهراً بأنه لم يلحظ ما أصابنى من

اضطراب ، باذلا جهده فى تهدئة خواطرى ، وإدخال الطمأنينة على نفسى ، وظل يوجه إلى الأسئلة ، أأعزب أنت أم متزوج ؟ تريد أن تعيش فى بساطة وتعمل فى الأرض ، هذا حسن ، ولكن لا ترغم نفسك على ذلك ، ولا تتخذه قاعدة مطردة ، إن الإنسان يستطيع أن يكون رجلا صالحاً فى أى نوع من أنواع الحياة . . . » .

ولم يطل اللقاء فى هذه المرة ، فقد أقبلت سيدة تدعوه للقاء ضيف آخر كان ينتظره ، فقام معتذراً ، ونظر إلى وجه بونين بعينه الصغيرتين اللتين كانتا تنمان دائماً على الحزن الأسود الدفين ، وقال « احضر لترانى مرة ثانية حينما تكون فى مسكو ، لا تنتظر كثيراً من الحياة ، إنك لن تلقى أياماً أحسن من الأيام التى تلقاها الآن ، فليس فى الحياة سعادة ، وإنما لها بوارق من الحين إلى الحين ، وعليك أن تقدر هذه البوارق وتعيش عليها » .

وانصرف بونين وقد امتلأت نفسه سروراً ، وقضى ليله وهو يشاهد صور تولستوى فى أحلامه واضحة جلية . واستيقظ من نومه وهو لا يكف عن الحديث عنه والتفكير فيه ، وبعث إليه بطائفة من الرسائل ، وتلقى منه ردوداً عاطفية مشجعة أشار فى بعضها إلى أنه لا يرى له أن يتشدد فى أن يأخذ نفسه بتعاليمه ، ولكن هذه النصيحة لم تجعل بونين يخفف من غلواء تحمسه لتولستوى وآرائه حتى لقد اعتقل مرة وحكم عليه بالحبس لأنه أعان على ترويج بعض كتب تولستوى دون أن يحصل على إذن خاص ببيع هذه الكتب ، ولم ينقذه سوى صدور مرسوم من القيصر ، وكان من حظه بعد ذلك أن حظى بلقاء تولستوى عدة مرات مع الإخوان من أتباع تولستوى ، ويقول بونين عن إحدى هذه الاجتماعات « أردت مرة أن أحوز القبول عند تولستوى فقلت له « إن جمعيات منع المسكرات تتكاثر فى كل مكان » فقطب ما بين عينيه قليلا وقال

«أى جمعيات ؟» «جمعية منع المسكرات» .

«تقصد بذلك أن الناس يجتمعون لكيلا يشربوا الفودكا ؟ أى سخف ! لا حاجة إلى الاجتماع للإمساك عن الشراب ، وإذا كان لا بد من الاجتماع نخير لهم أن يشربوا ، وأى سخف هذا وأى نفاق ، إنهم يحلون محل العمل التظاهر بالعمل» .

ودخل بونين فى ذات يوم عليه وهو يقرأ فى كتاب ، فلما رأى بونين ألقى بالكتاب فى أحد أركان المنضدة ، ولمح بونين بعينيه الحادتين عنوان الكتاب فإذا به كتاب «السيد والعامل» الحديث الظهور ، وبعثه الإعجاب بالكتاب على الثناء عليه ، فظهر الخجل على وجه تولستوى ، وأشار بيديه نحو بونين قائلا «ارجوك ألا تذكر هذا الكتاب ، إنه فظيع ، إنه عادى المستوى إلى حد أنى خجل من الظهور فى الشارع» .

وكان تولستوى فى تلك الأيام قد آلمه ألماً شديداً فقد ولده فانيا فى السابعة من عمره ، وانتقل بعد الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن نجله فقال «إنه كان فاتناً ساحراً وغلاما مباركا ، ولكن لماذا أقول إنه مات ؟ إنه ليس بميت ، إنه يعيش فى نفوسنا لأننا نحبه» وظل يردد قوله «ليس هناك موت ، ليس هناك موت !» .

ومر على هذا اللقاء عشرة أعوام ، ولقيه بونين بعد ذلك للمرة الأخيرة فى الطريق ، فتوقف تولستوى عن السير ، وعرفه فى التو واللحظة ، وقال له «كيف حالك ؟ وأين تعيش ؟ وماذا تعمل ؟» .

وبعد كلمات قليلة هزيد بونين فى رعاية وعطف ونظر فى حزن إلى عينيه وقال له «حسن ليكن معك المسيح ، ليكن معك المسيح ، أستودعك الله !» .

ويذكر بونين فى أحد فصول كتابه وذكرياته عن الكاتب الروائى شيكوف ،

ويقف عنده وقفة طويلة فقد كان شيكوف من أصدقائه وأساتذته ، وقد عرفه بونين معرفة صحيحة ، واتصل به اتصالا وثيقاً ، وقد استهل الكلام عنه بقوله « لقيته لأول مرة آخر سنة ١٨٩٥ فى مسكو ، وقد ظلت بعض تعبيراته الخاصة لاصقة بذاكرتى حتى اليوم ، سألنى قائلا « هل تكتب كثيراً » .

فأجبته بالنفى فقال مكتئبا فى صوت خفيض « يا للعار » اعلم أن عليك أن تعمل ، عليك أن تعمل بدون توقف طوال حياتك » وتريث لحظة ثم أضاف قائلا بدون أن يكون هناك ارتباط بين الكلام « أظن أن على الإنسان حينما ينتهى من كتابة قصة قصيرة أن يحذف منها المطلع والمقطع ، وأغلب ما يعرض لنا من الخطأ نحن كتاب الرواية يأتى من هاتين الناحيتين ، وعلى كاتب القصة أن يتحرى الإيجاز ما وسعه ذلك » .

وبعد هذا اللقاء فى مسكو لم أره إلا فى ربيع سنة ١٨٩٩ ، فقد ذهبت إلى مدينة يالتا لقضاء بضعة أيام ، ولقيته هناك ذات مساء على رصيف الميناء ، وقال لى « لماذا لا تأتى لزيارتى ؟ إنى منتظرك غداً » .

« فى أى وقت ؟ » .

« تعال فى الصباح حوالى الساعة السابعة » .

ولحظ ما انتابنى من الدهشة فقال « إننا نستيقظ مبكرين ، فهل أنت كذلك ؟ » .

« نعم أنى أستيقظ مبكراً » .

« حسن ، هذا مناسب ، احضر متى استوفيت استعدادك ، وعلينا أن نحتسى القهوة فى الصباح لا الشاى ، إنها مدهشة ، وحينما أعكف على العمل لا أتناول حتى المساء سوى القهوة والمرق » .

ومشينا والرصيف صامتين ، وجلسنا على مقعد فى الميدان وسألته « أتحب البحر ؟ » .

فأجاب «نعم ، ولكنه خال من الناس» .

فقلت «هذا أحسن ما فيه» .

فقال وقد أرسل رائد طرفه بعيداً وبدا مستغرقاً فى أفكاره «أظن أنه حسن أن يكون الإنسان ضابطاً أو أن يكون طالباً شابًّا ، وأن يجلس فى مكان مزدحم ويستمع إلى موسيقى سارة» .

وصمت هنيهة وأضاف بطريقته الخاصة دون أن يكون هناك تسلسل فى الحديث «من الصعب أن نصف البحر ، أتعرف الوصف الذى قرأته قريباً فى كراسة أحد تلامذة المدارس «كان البحر كبيراً» وهذا كل ما قاله ، لقد وجدته مدهشاً» .

ويقول بونين إن شيكوف ظل متحفظاً معه برغم توالى الزيارات وتوثيق العلاقات بينهما ، وقد لحظ بونين أنه يلتزم هذا التحفظ حتى مع أقرب الناس إليه ، ولم يكن هذا التحفظ لوناً من ألوان الفتور وإنما كان مجرد سيطرة على النفس وامتلاك لزمامها ، وكانت هذه السيطرة على النفس ظاهر فى أعماله وأقواله فلم يسمعه أحد من الناس شاكياً متبرماً بالرغم من توفر الأسباب التى كانت تدعو إلى الشكوى والتبرم ، فقد عانى الفقر حيناً طويلا ولكنه لم يلف شاكياً ، واحتمل المرض المنهك سنوات عدة ولم يقل لأحد شيئاً ، وحينما كان يقضى يومه جالساً على كرسيه وقد أغمض عينيه كانت والدته تسأله «أتشعر بشىء من التعب ؟» فيجيبها قائلا «كلا إنى على ما يرام» .

ويقول لنا بونين إنه كان معجباً بموباسان وتولستوى ، وكان يكثر من الكلام عنهما وعن رواية تامان للكاتب لرمنتوف .

ويقول بونين «يقال عن كل كاتب بعد موبه إنه كان يسر بتوفيق الآخرين ، وإنه كان خلواً من الغرور ، ولكننا نصدق حينما نقول ذلك عن شيكوف ،

فقد كان يسر حينما يرى أى دليل على وجود الموهبة ، وكان لا يسعه سوى السرور وكانت أقسى كلمة يقولها هى إنه غير موهوب » .

وماذا كان موقفه من مشكلة الموت وخلود النفس ؟ يقول بونين إنه كان فى كثير من الأحيان ينكر الحياة بعد الموت ويؤكد هذا الإنكار ويقول إنها خرافة ، وإنه يستطيع إثبات أن خلود النفس سخافة وهراء ، ولكن العجيب – كما يروى لنا بونين – أنه كان يعود فيناقض نفسه قائلا « من غير الممكن أن نختفى دون أن نترك أثرا ، وبطبيعة الحال سنحيا بعد الموت ، وخلود النفس حقيقة ، إنتظر فإنى سأقيم لك الدليل على صحتها » .

ويتحدث عن المغنى الروسى الشهير شليا بين فيقول إن شيكوف كان يردد أن الشهرة مثل ماء البحر كلما شرب منها الإنسان ازداد ظمؤه ، وقد شرب شاليابين من هذا الماء كثيراً ، وظل إلى النهاية ظمآن .

واستهل ذكرياته عن مكسيم جوركى بقوله « بدأت الصداقة العجيبة بينى وبين جوركى سنة ١٨٩٩ ، وإنى أقول الصداقة العجيبة لأننا ظللنا نعد صديقين حميمين مدة عشرين سنة على حين أننا لم نكن كذلك ، وقد انتهت صداقتنا سنة ١٩١٧ ، فالرجل الذى ظل مدة عشرين سنة لا تبدر منه أى بادرة تستوجب الخصومة الشخصية انقلب فجأة عدوًّا أثار فى نفسى الفزع والغضب ، وقد ذهبت تلك المشاعر بمضى الأيام . وأشعر الآن كأنه لم يكن موجوداً بالقياس إلى » .

وواضح أن الاتجاهات السياسية فرقت بين الصديقين القديمين والكاتبين القديرين ، ولم يكن من ذلك بد على ما يظهر بعد نشوب الثورة ، فقد كان بونين أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية التى قامت الثورة للقضاء عليها ، وكان جوركى رجلا من غمار الشعب يمثل الطبقة الكادحة التى ناصرت الثورة ،

ولقد قال أبو تمام يخاطب صديقه على ابن الجهم :

إلا يكن نسب هناك فبيننا   أدب أقمناه مقام الوالد

ولكن الأدب فى حالة هذين الأديبين – بونين وجوركى – لم يستطع أن يطوى الخلاف الطبق ، ويقضى على الفرقة المذهبية .

وتحدث بونين فى ذكرياته عن الروائى المعروف كوبرن وعن الروائى الشاعر الكسس تولستوى الذى كان يلقب « تولستوى الثالث » ، ويذكر لنا كيف أغراه فى لقائهما الأخير بالعودة إلى روسيا قائلا له « إنهم سيحيونك فى مسكو بدق أجراس الكنائس » ، وإنهم يحبونه كثيراً ويقرءون كتبه ، ويتحدث عن الأمير كروبتكين الزعيم الفوضوى ودعوته إلى روسيا ولقائه لينين ، ومحاولته توجيه الثورة وجهة إنسانية ، ويأسه بعد ذلك من هذه المحاولة ويختم الكتاب بوصفه لرحلته إلى استوكهلم لتسلم جائزة نوبل التى ظفر بها سنة ١٩٣٣ وتمتاز صورة وذكرياته بالبساطة واليسر ومجافاة التعالم والحذلقة ، ويتنقل الإنسان منها بين الملاحظة الدقيقة والفكرة الكاشفة والتصوير الصادق والأمانة فى التعبير عن الأفكار والأحاسيس .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع	١٩٧٨/٤٧١٥
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٤٤٥ - X

١٨٤/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هـذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب صورة موجزة عن حياة بعض الشخصيات التى أثرت فى حياة الشعوب مثل أورليوس الإمبراطور الرومانى الفيلسوف ، وبوذا الحكيم الهندى ، وجيتى الشاعر الألمانى ، وبلزاك الكاتب الروائى الفرنسى وغيرهم ...

وكاتب هذه التراجم يرسم شخصياته من زاويتها الخاصة ، من خلال روح العصر التى عاشته الشخصية ، وما تمتعت به من قدر متميز على مدى التاريخ البشرى ..

ص
١٢٠